زمن الغربة

النيل لا طعم له

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

القاعود ، حلمي محمد
زمن الغربة : النيل لا طعم له/تأليف: أ.د. حلمي محمد القاعود.
- ط1- القاهرة: الوادي للثقافة والإعلام، 2017.
302 ص؛ 24 سم.
تدمك: 420 6515 977 978
1- القاعود، حلمي محمد ، 1946 - المذكرات 2- الأدباء العرب
أ- العنوان 920

* تاريخ الإصدار: 1438هـ -2017م

* حقوق الطبع: محفوظة

* رقم الإيداع: 3743/ 2017م

* الترقيم الدولي: ISBN: 978 - 977 – 6515 - 420

* الكود: 467/ 2

* تحذير: لا يجوز نسخ أو استعمال أى جزء من هذا الكتاب بأى شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل (المعروفة منها حتى الآن أو ما يستجد مستقبلا) سواء بالتصوير أو بالتسجيل على أشرطة أو أقراص أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن كتابى من الناشر.

الوادي
للثقافة والإعلام

ص.ب (130 محمد فريد) القاهرة 11518
darannshr@hotmail.com

أ. د. حلمي محمد القاعود

زمن الغربة
النيل لا طعم له

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

1 - أزواج ومحارم !

سفر صامت:

أول مرة أغادر مصر إلى خارجها !

جاءت سيارة أجرة اتفقنا مع صاحبها من قبل؛ كي تحملني مع زوجتي وأمتعتي إلى مطار القاهرة. كان المطار يومها محدود الحجم، ولكن المسافرين كُثْر. لم يصاحبنا أحد من الأهل أو الأصدقاء كعادة أهل الريف. آثرت أن يكون سفرنا هادئًا أو صامتًا، بعيدًا عن مراسم الوداع، والبكاء الذي يصاحب المسافرين أحيانًا. وصلت بنا السيارة إلى المطار، فدخلنا غابة كثيفة من البشر والفوضى. كان العسكر على الأبواب وفي الداخل، والحمّالون في كل مكان يزاحمون المسافرين بالعربات اليدوية التي تحمل الأمتعة. كان عليّ أن أسأل في كل خطوة لأهتدي إلى مكان الطائرة أو الطريق إليها، وظللنا نخترق الحشود والطوابير، حتى وصلنا إلى باب الخروج.

في مطار جدة كان علينا الانتظار بضع ساعات حتى تقلع الطائرة المتجهة إلى جازان أو جيزان. ومع أن مطار جدة وقتها كان حديثًا نسبيًّا، وواسع الأرجاء بدرجة ما، فقد كان التكالب على الدخول إلى باب الطائرة مريعًا. ويبدو أن معظم المتجهين إلى هناك لا علاقة لهم بالنظام، ولا يعرفون معنى الأسبقية في الدور، ومعنى أن يكون لك مكان محجوز في الطائرة. كان التدافع أوالزحام ينبئ عن الخشونة، والاعتماد على القوة في الوصول إلى باب الخروج. ولعل ذلك يرجع إلى حداثة عهد القوم يومئذ بالسفر على الطائرات. وبعد عناء دخلنا الطائرة، وأمضينا نحو ساعة في الطائرة، ثم هبطت بنا في أرض مقفرة، يشتعل فيها الهواء بنار الحر الشديد والرطوبة الثقيلة ورائحة المستنقعات والملح.

الفندق البائس:

أصحاب التاكسي يهرولون إلى المسافرين القادمين من جدة؛ لنقلهم إلى الفندق الوحيد بالبلدة آنئذ، وهو بيت أو منزل قديم من طبقتين، به عدة غرف واسعة، بكل غرفة مجموعة من السرر السفري الضيقة، وفي كل غرفة مجموعة من الأسر. الزوج والزوجة على سرير، والأطفال على مراتب أرضية، وما بين التاكسي الذي يستغل جهل القادم من السفر فيضاعف الأسعار، والفندق الذي لا يعمل - فيما يبدو - بمثل هذه الكثافة السكانية إلا في موسم استقبال المتعاقدين الجدد،أحسست بالغربة في أقسى معانيها، التي ستتجلى فيما بعد عبر مواقف وظروف مختلفة.

كنت حائرًا تائهًا، وأنا أشاهد المصريين يكتظ بهم وبأسرهم الفندق البائس، والفتى الذي يعمل مسئولا عن الفندق، ويتحدث باسم صاحبه الشيخ، يبدو ولدًا طريًّا غريب الأطوار، ولكنه يتلمظ لمرأى السيدات المصريات الحاسرات، أو اللاتي لم تلفهن العباءة السوداء بعد. لم يكن وحده متفردا بهذا السلوك، ولكن الآخرين من المقيمين في البلدة، سواء أكانوا من أهل البلاد - وهم قلة - أو من العابرين إليها من الشاطئ الآخر، أو القادمين من بلد الجوار؛ يفعلون فعله تلقائيًّا ! بعد سنوات تعددت الفنادق حيث نزلت في فندق أربع نجوم !

لا خصوصية:

استمرت الحيرة والتيه أيامًا حتى غادرنا الفندق إلى أماكن العمل. كانت هذه الأيام قاسية ومؤلمة، حين ننام في الغرفة المزدحمة، لا خصوصية لنا أو قدرة على النوم الطبيعي. تشعر أنك عار أمام الآخرين في حركاتك وسكناتك. لم يكن هناك مفر من قبول هذا الأمر الواقع. ولم يكن هناك مكان آخر تلجأ إليه. تضطر أن تأخذ مع المظروف الأبيض الكبير زوجتك لتجلس مع نساء مصريات أخريات أمام الإدارة التعليمية، التي توزع المتعاقدين الجدد على أماكن العمل، وتنتظر الحصول على ما يسمى بدل السكن، وهو خمسة آلاف ريال يدفعونها للمتعاقد في بداية عمله؛ ليستأجر سكنا، ويرتب أموره الحياتية، بشراء عفش المنزل وأدوات المطبخ والتموينات التي يعتمد عليها، حتى يتم إدراجه في كشوف المرتبات بعد شهرين أو ثلاثة.

كانت الريالات التي استبدلتها وحملتها معي قليلة. حرصت – بعد أن تبدد معظمها في السفر حتى وصلنا الفندق – أن تبقى بقيتها في جيبي من أجل توفير الطعام، وتركت الأمر كله لله. كنت مغامرًا، ولم أحسب حساب الظروف الاستثنائية، فضلا عن أنني لم أرغب أن أمد يدي إلى أحد قبيل سفري، فيسجلها جميلا يظل يتحدث عنه طول العمر، ولا ينساه حتى لو رددت الجميل مضاعفا.

متعاقدات وزوجات:

كان منظر النساء وهن يجلسن أمام الإدارة التعليمية شاذًّا بالنسبة للمحيط الاجتماعي هناك. الرجال الذين يمرّون يتوقفون وينظرون إليهن. ولحسن الحظ كن جميعًا من المصريات، ويشكلن كتلة واحدة وهن جالسات، سواء أكن متعاقدات أو زوجات لمتعاقدين، وكان المحارم بالنسبة للمتعاقدات هم من يدخلون إلى الإدارة لإنجاز ما يتعلق بهن.

لم يكن من الممكن ترك النساء وحدهن في الفندق البائس، وكان الاضطرار بأخذهن للجلوس أمام الإدارة أخف الضررين، حتى يتم تسجيل الجوازات وإثبات الإقامة، ويتعرف المتعاقد على مكان العمل، ويحصل على بدل السكن، فيغادر بمن معه إلى المكان المحدد.

أريد العودة:

عندما جاء دوري في الدخول إلى المختص لتوزيعي على المدرسة التي سأعمل بها كتب أمام اسمي قرية بعيدة نسيت اسمها. عندما خرجت سألت عنها فقيل لي إنها تقع في أعماق الصحراء وبين الجبال، ويأتي إليها عدد قليل من التلاميذ لا يتجاوز العشرين من بقع متناثرة حولها على مسافات طويلة، وغالبًا يكون فيها مدرس واحد أو اثنين يدرّسان المواد كلها للطلاب الذين تتكوّن منهم الصفوف الستة.

بلغ الغضب والحنق والضيق مني مبلغًا عظيمًا، فعدت إلى المختص، وقلت له: أريد العودة إلى مصر. لن أعمل عندكم!

ذهل الرجل، فالمصريون معروف عنهم أنهم على استعداد للعمل في أي مكان، وعادة لا يشكون ولا يتبرمون من أجل الحصول على العائد الذي يترقبونه؛ لأنهم يعدون العمل في الخارج فرصة العمر. وسألني الرجل

باهتمام عن السبب. قلت له: كيف أذهب مع زوجتي إلى مكان لا نستطيع العيش فيه ؟

هدأ من روعي، وكتب اسم قرية أخرى. سألت عنها، قيل لي: إنها تعد مدينة بالنسبة لما حولها، وبها مدرسة متوسطة (إعدادية) وثانوية، ومدرسة بنات أيضًا.

اسمها الأحد:

كانت البلدة اسمها الأحد أو أحد المسارحة، وكلمة الأحد تنسب إلى السوق الأسبوعي الذي يعقد كل يوم أحد، والمسارحة اسم القبيلة الكبرى التي تعيش بداخلها أو من حولها. وكان من يعرفون المنطقة من قبلي يصفونها – وفق اللغة السائدة هناك – بأنها " فنّ "؛ أي جيدة، وأفضل من جيزان نفسها، فهي أقل في درجة الرطوبة، وهواؤها يكاد يكون جافًّا، وبها بعض المحلات التجارية المتواضعة، فضلا عن السوق الذي يعقد بها أسبوعيًّا، ويوفر الخضروات واللحوم وكثيرًا من احتياجات البيت؛ عدا الخبز الذي كان توفيره في بداية الأمر يمثل مشكلة كبرى.

أبو عبده:

بعد أن حصلت على بدل السكن، تركت زوجتي في الفندق مع بعض الأسر المصرية التي لم تنته بعد من إجراءات التوجيه إلى العمل، وركبت سيارة أجرة إلى الأحد، وقدمت خطابًا من الإدارة إلى مدير المدرسة، وهناك تعرفت على زميلين؛ أحدهما مصري، وكنا نناديه الحاج جابر، والآخر سوري كانت كنيته " أبو عبده " من حماة، وكلاهما أقدم مني، ويعملان في المدرسة نفسها.

خرجا معي للبحث عن سكن، ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلا؛ فقد وجدنا بيتًا جديدًا قريبًا من المدرسة، واتفقنا على الإيجار. فهم الزميل السوري أنني سأعود إلى جازان لأرجع مع زوجتي وبعض الأثاث والتموينات. فعرض عليّ أن يصحبني. كانت لديه سيارة شيفروليه من الطراز القديم، وكان يؤجرها في المشاوير المختلفة. وزبائنه غالبا من زملائه الذين يحصل منهم على أجرة أقل نسبيا من التي تتقاضاها سيارات الأجرة. وبالفعل أخبرني أنه سيذهب معي بسيارته ويأخذ أجرًا أقل.

رحبت بالأمر؛ لأنه سيوفر عليَّ مشقات الانتقال الداخلي في المدينة، وسيبقى معي حتى أشتري ما أريد، ويساعدني في المساومة على الأسعار؛ بحكم أقدميته في المنطقة، ومعرفته بتفاصيلها.

تسوخ في الرمال:

الطريق إلى الأحد ترابي، وليس مرصوفًا، وهو ما تسبب في أن السيارة كانت تسوخ إطاراتها في الرمال بحكم أنها منخفضة، وكان قائدو السيارات الأخرى يساعدون في دفع سيارتنا لتخرج من الرمال وتواصل الطريق.

ذهبت أول الأمر إلى الفندق، وسلمت مستحقاته، وانتقلت مع زوجتي والأمتعة في سيارة " أبوعبده " إلى المحلات التجارية التي تجد فيها كل الأصناف تقريبًا، بدءًا من السكر والزيت، حتى المراتب والوسائد والبطاطين، فضلا عن الأجبان والحلاوة والزبد والخبز وعلب الفول المصنعة والخضروات والفاكهة وغيرها. واشترينا للزوجة عباءة سوداء وطرحة سوداء مثل بقية النساء في المجتمع، وكي لا يعرفها أحد عند الخروج.

في الأحد شعرت بالوحدة والخواء والغربة العميقة. كان الليل حين يضويني – على رأي شاعر قديم – أذل دمعًا من خلائقه الكبر ! هذه الأرض التى لا زرع بها .. لا عشب .. لا ماء - على رأي شاعر آخر - تجعل المرء في غربة غير مسبوقة بالنسبة لي على الأقل.

لا كهرباء:

فرشنا غرفة في البيت بالحصير، ووضعنا عليها مرتبتين مع الوسائد .. في النهار تشعر بنار الله الموقدة داخل البيت .. حرارة شديدة تكاد تشعل المبنى الخرساني .. المروحة لا تعمل لأنه لا توجد كهرباء. في الليل إضاءة من خلال لمبات الجاز، وكنا قد اشترينا فانوسًا ألمانيًّا، يسمونه هناك التريك أو التراك، لم أعد أذكر بالضبط التسمية. ويبدو أن الفانوس كان من تصميم الألمان لاستخدامه في إضاءة خيام الجيوش المقاتلة؛ حيث تبدو زجاجته محمية ببعض الأسلاك، وخزان الجاز محكم الإغلاق، وتوزيع الدخان يتم تبديده بانتظام.

لم يكن لدينا راديو أو تلفزيون. كنت أقطع الوقت بالقراءة في بعض الكتب التي حملتها معي، وحين بدأت أتعرف على معالم المدرسة، رأيت هناك كمية هائلة من الصحف المحلية في أغلفة البريد لم يفتحها أحد، وتعود

إلى أسابيع مضت. كنت أحمل بعضها إلى البيت، وأركز على ملاحقها الأدبية التي تضم مقالات نقدية وقصصًا وقصائد وأخبار الأدباء والكتاب في الداخل والخارج. عرفت مواعيد صدور الملاحق أسبوعيًّا والمشرفين عليها وكتّابها. كما تعرفت على كتّاب الرأي السياسي والاجتماعي، وحاولت أن أشارك فيها بالكتابة.

نشرب الشاي:

العام الدراسي لم يبدأ بعد. حتى الظهر نبقى في المدرسة نثرثر، ونقطع الوقت بالتعرف على بعضنا، وحكاياتنا، وبلداتنا في مصر وسورية وفلسطين والسودان. ونشرب الشاي على الطريقة السائدة هناك. في نهاية الشهر يتم جمع عشرة ريالات اشتراك الشاي، والمستخدم (العامل) يقوم على إعداده، وتجهيز الكئوس الصغيرة (الأكواب)، ومن يرغب يصبّ لنفسه مرة أو مرتين أو أكثر. هو شاي خفيف للغاية، ولا يفضله أمثالي، فأكتفي بقدح واحد عند الضرورة.

معظم هيئة التدريس من المتعاقدين المصريين والسوريين والفلسطينيين، وبعض السودانيين. المدرسة فيها ستة فصول لستة صفوف ابتدائية، وبها مدرسة متوسطة (إعدادية) ثلاثة فصول لثلاثة صفوف، ولها مدير آخر غير مدير الابتدائي، وألحق بها فصل ثانوي؛ ليكون نواة لمدرسة ثانوية، وعرفت أن مدير المتوسط والثانوي شاعر، وينظم الشعر في المناسبات الاجتماعية التي يحضرها المسئولون.

تراجعت الظاهرة:

مبنى المدرسة على الطراز الأمريكي الذي ساد مدارس مصر في الخمسينيات والستينيات، ولها فناء فسيح، وبها مقصف يقوم عليه أحد العمال، ويقدم فيه الشطائر والبسكويت وعلب العصير والبيبسي، وعندما بدأت الدراسة كان الطلاب يملأون الفناء ببقايا الشطائر والعلب الفارغة، فيتحول إلى مزبلة واسعة، وبحكم أني المشرف الاجتماعي الذي عينته المدرسة ليتولى شئون الطلاب بجانب عملي في التدريس، طلبت من الطلاب جمع الفضلات ووضعها في البراميل المخصصة للقمامة، وكانوا حين يرون الفناء وقد صار خاليا من الفضلات يشعرون بقيمة النظافة، ويتعودون على إلقاء الفضلات في البراميل المعدة لذلك، وتراجعت ظاهرة تلويث الفناء.

أسقط في يدي:

كان وجودي وسط مدرسي الابتدائي غريبًا. والاستغراب يأتي من الزملاء المصريين الذي يعلمون أن من يحمل شهادة عالية ويدرس في الماجستير يقوم بالتدريس في الإعدادي والثانوي. كيف أكون مدرسًا في المرحلة الابتدائية ؟ بعضهم - كما فهمت فيما بعد - رأى أن ذلك ادعاء من جانبي وليس حقيقة، أي ليست هناك شهادة عالية ولا غيرها. وآخرون تقبلوا الأمر ببساطة، ولكنهم فوجئوا ذات يوم في العام التالي والموجه الإداري يطلبني لأدرّس في المتوسط والثانوي بالمرتب الذي تعاقدت عليه .. أسقط في يدي وأيديهم.

استنجدت بمدير الابتدائي، وقلت له: هل تريدني أو لا تريدني ؟ قال للموجه الإداري: اتركه عندنا فأنا أريده؛ لأنه المشرف الاجتماعي ولا أستطيع الاستغناء عنه .. وسكت الموجه موافقا.

تنفست الصعداء وحمدت الله؛ فقد تمتعت في الابتدائي بوقت فسيح، أحقق من خلاله أكثر من هدف.

توفير الخبز:

توزع جدولي الدراسي بين الصفين السادس والخامس، وكان بالنسبة لي هيّنًا مع عدد الطلاب القليل. كنت أشرح الدرس أكثر من مرة، وأصحح الكراسات، وأدرّب الطلاب على القراءة والإملاء والتعبير، وأبذل جهدًا داخل الفصل يفيدون منه، وأشعر بالرضا عن العمل معهم. بعد انتهاء اليوم الدراسي أعود إلى البيت لأقرأ وأكتب، وأتابع مشكلة توفير الخبز.

الناس في الأحد يخبزون في بيوتهم، ونحن لا خبرة لنا بالخبيز .. زوجتي قاهرية لم يسبق لها أن عرفت الجلوس أمام الفرن. في قريتنا كل النساء يعرفن العجين وتجهيزه ووضعه في الفرن؛ ليستوي أرغفة أو فطائر أو رقاقا أو أقراصا. أما في القاهرة فيندر أن تجد من تخبز بالطريقة الريفية اللهم إلا إذا كانت آتية من الريف. كان عليَّ أن أبني فرنًا وألملم وقوده من فروع الشجر وأوراق الكرتون والأعشاب وغيرها ليشتعل .. ثم نسأل الخبراء في إعداد العجين وتشغيل الفرن. ساعدنا الحاج جابر وزوجه في هذا المجال؛ بحكم أنهما جاءا من ريف المنوفية ويسكنان بالقرب منا، ولكن التجربة الأولى كانت مضحكة؛ فقد أنتجنا شيئًا عبارة عن كتل سوداء أو بين

الأبيض والأسود لا علاقة لها بالخبز الذي يأكله الناس. كان الحل أن تذهب زوجتي إلى زوجة الحاج جابر لتفيد من تجربتها على الطبيعة. تحسن الأمر قليلا، ولكن التجربة كانت فاشلة بصفة عامة، وكنا نضطر إلى التعويض بطبخ الأرز والمكرونة، وشراء كمية من الخبز الفينو من جيزان كل يوم خميس تستمر عندنا عدة أيام.

أذكر أن الوضع استمر بضعة أشهر حتى علمنا أن هناك مخبزا قد أنشئ في البلدة، فكان انفراجة كبيرة وحلا لمعضلة مزعجة، وفي السنة التالية لوجودنا هناك أنشئ مخبز آلي آخر، فأراح الناس من أمثالنا، بحيث كنا نأتي بالخبز ساخنا، وتطور المخبز فيما بعد ليقدم نوعيات متعددة من المخبوزات.

يشبه القبة:

كان الماء يمثل مشكلة أخرى، فهناك خط مائي يأتي من مضخة بجوار البلدة، ولكنه يأتي ضعيفاً، ويستمر لفترة قصيرة في الصباح، وفي هذه الفترة نعبئ بعض الأواني للاستخدام اليومي.

البيت فيه حمام ومطبخ على النظام الحديث، ولكن صنابيرهما أو حنفياتهما لا تعرف الماء. عند صاحب البيت حنفية قريبة من الأرض، يصل إليها الماء في فترة الصباح المشار إليها، وكان ذلك يقتضي أن يمدّ خرطوما طويلا (يسمّونه اللّيّ) من تحت الباب الفاصل بيننا وبين عشته التي يقيم بها.

والعشة هيكل يشبه القبة مصنوعة من حبال الليف القوية، تلتقي متجمعة في رأس القبة، وتتسع متجاورة كلما انحدرت إلى أسفل على شكل دائري، وبها بابان متقابلان، وتُطلى من الداخل بالطين المعجون بفضلات الخرفان والعشب، بحيث تبدو من الداخل مثل بيوت اللبن أو الطين التي كان يسكنها الفلاحون في مصر قبل انقطاع الطمي؛ بسبب إقامة السد العالي.

وتدور مصطبة دائرية يقطعها البابان ملاصقة لقاعدة العشة من الداخل وتستخدم للنوم، وأحيانا تكون السرائر المجدولة من حبال الليف الخشنة بديلا عن المصطبة. بيد أن السرائر عادة تظل خارج العشة؛ حيث

تنام الأسرة معظم شهور السنة خارجها، ولا يدخلون فيها إلا إذا جاء المطر الموسمي أو الريح المتربة التي تسمى الغبرة.

تكييف طبيعي:

وبالنسبة للأطفال الصغار فهم يصنعون لهم سرائر معلقة مربوطة بالأشجار المزروعة حول العشة؛ خوفا عليهم من الحشرات السامة، وخاصة العقارب والأفاعي. ويضعون الرضع في سرير قماشي (يسمونه الحنتول)؛ يحميهم من السقوط على الأرض، بينما زجاجة الرضاعة في أفواههم، وتقوم الأم بتحريك الحنتول كأنه أرجوحة حتى ينام الرضيع.

ميزة العشة أنها مكيفة تكييفاً طبيعيًّا؛ فهي باردة في الصيف، دافئة في الشتاء، وإذا سقط المطر الموسمي الغزير فإنه ينحدر سريعا على جوانبها، ليصل إلى الأرض دون أن يؤثر على هيكلها، ويفضل كثير من السكان المحليين الإقامة فيها صيفا وشتاء، وبعضهم يصر على أن تكون هناك عشة في بيته الفخم المبني من الطوب والأسمنت والمزخرف بالألوان والمبلط بالسيراميك؛ لأنه يجد في العشة ما لا يجده في البيت الجديد حيث الحرارة اللاهبة في الصيف.

لم نتناغم:

كان صاحب البيت يربي حول عشته عددًا من الماعز والخرفان، وأولاده الصغار يلعبون معها وهم بلا ملابس تقريبًا .. حرارة الجو تجعلهم يعيشون مثل أهل إفريقيا القريبين من خط الاستواء. وكنا بالفعل قريبين من خط الاستواء، فالشتاء ليس فيه برودة تذكر، إنه معتدل، وإن كان غزير المطر.

عرفت أن الرجل - صاحب البيت - شرطي، على ذراعه أربعة شرائط (رقيب أول)، ويرأس نقطة شرطة على بعد ستين كيلو مترا، وقد كان من العبيد السود الذين حررهم الملك فيصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومنحهم بعض التيسيرات في التوظيف والعمل والسكن والمعونة الاجتماعية، وزوجته مثله، وأنجبت له ثلاثة صبيان؛ كبيرهم في المرحلة الابتدائية.

مع أن الرجل وأسرته طيبون، فلم نتناغم معهم، ولعل ذلك يرجع إلى اختلاف اللغة (المصطلحات خاصة) والعادات، فضلا عن اكتشافنا أن قيمة

إيجار البيت كانت كبيرة بالقياس إلى البيوت الأخرى. قضينا سنة بجوارهم، واتفقنا على تركهم واستئجار بيت آخر أرخص في الإيجار وأفضل من وجهة نظرنا، وبه فناء واسع يصلح للزراعة، وانتقلنا إليه في العام التالي بعد عودتنا من الإجازة السنوية.

عرفنا بعد فترة أن هناك سيارات فنطاس (لوري) تبيع الماء، وثمن السيارة التي تحمل مترين خمسين ريالا تقريبًا، فكنا نملأ خزان البيت بماء السيارة، حيث تجري المياه في صنابير الحمام والمطبخ. ونحتفظ بأكبر قدر من الماء لاستخدامه عند الضرورة.

تبريد الماء:

ولأنه لم يكن هناك ثلاجات، فقد كان القوم هناك يلجأون إلى تبريد الماء في الجِرار، يملأون الجرّة وهي عبارة عن إناء فخاري يشبه القلل الكبيرة التي كان يستخدمها الفلاحون لسقيا من يعملون في الحقول قديمًا، أو تشبه البلاص ولكنها أصغر، وعنقها ينتهي بفتحة ضيقة، وتوضع في مكان ظليل، وحبذا لو كان به تيار هواء، فتكون المياه غير ساخنة ومقبولة عند الشرب.

بعد شهور كان هناك أحد الجيران من السكان المحليين قد امتلك مولدا كهربيًّا (موتور) يضيء بيته، ويقوم بتشغيل التلفزيون وثلاجة صغيرة (6 قدم)، ويعرض أن يوصل الكهرباء للبيوت المجاورة؛ لمبة واحدة لكل بيت مقابل خمسين ريالا شهريًّا، على أن تبدأ الإضاءة مع المغرب وتنتهي في الساعة العاشرة. قبلنا العرض؛ فهو يضيء البيت ويتيح لي فرصة القراءة والكتابة لبضع ساعات، ثم إنه يريحني من مشكلة إحضار الجاز من مكان بعيد كل فترة للفانوس الألماني، وإن كان الجاز ضروريًّا لتشغيل وابور الطبخ وعمل الشاي، والوابور من النوع الذي يعتمد على فتائل القطن، وحين يشتعل يملأ الدنيا حوله دخانًا وهبابًا حتى تهدأ النار وتصفو.

الأجرة المعتادة:

صارت زيارة جازان أسبوعية تقريبا. يسألني الزميل السوري " أبو عبده " يوم الأربعاء من كل أسبوع إن كانت لي رغبة في الذهاب إلى جازان يوم الخميس أو لا ؟ كانت الإجازة الأسبوعية يومين؛ الخميس والجمعة. فكانت زيارة جازان يوم الخميس تسهل الحصول على متطلبات المعيشة

اليومية بسعر أرخص من أسعار الأحد، بالإضافة إلى وجود مكاتب البريد والتلغراف، والهاتف العمومي والصحف والبنوك هناك، ولا يوجد أي منها في بلدة الأحد .غالبا كنت أذهب مع " أبوعبده ". وفي السيارة يصحب زوجته وابنته، وأصحب زوجتي، وأدفع له الأجرة المعتادة .. نترك الزوجتين والفتاة يتسوقان معًا أو يتفرجن على محلات الملابس والأقمشة والذهب، ونحن بالقرب منهن نشتري الأغراض المنزلية، ثم ننتقل جميعًا إلى البريد أو البنك أومكتب الصحف أو أماكن أخرى.

صحيفة من الصحف:

كان مكتب الصحف يملكه رجل عجوز، وهو أقرب إلى المكتبة المدرسية؛ حيث يبيع الكراسات والأقلام وأدوات الكتابة الأخرى والملفات وبعض الكتب الأدبية والعلمية وغيرها .. وإلى جانب ذلك تأتيه مجموعات من الصحف والمجلات المحلية والعربية. وعندما ذهبت لأول مرة، ورأيت عددا قديما عمره ثلاثة أيام من جريدة الأهرام، أحسست أني وجدت قطعة من نفسي، فقد مضت فترة طويلة لم أر فيها الصحف المصرية ولا مجلاتها. كانت سعادتي لا توصف، مع أن الأمر لا يعدو أن يكون صحيفة من الصحف. ولكن حين تكون الصحيفة جزءًا من تكوينك ومعالم وطنك فالمسألة تبدو شيئا آخر، وتصب في وجودك وحياتك.

كانت الرحلة الأسبوعية إلى جازان مهمة للغاية؛ فيها تغيير للجو، ورؤية معالم أخرى، وتعرف على أخبار جديدة من زملاء نتقابل معهم هناك. ونرى مستوى الجنيه المصري الذي كان ينخفض باستمرار. أظنه يوم سافرنا إلى المملكة كان يساوي ثمانية أو تسعة ريالات ثم انحدر حتى وصل إلى خمسة ونصف بعد أربع سنوات قضيناها هناك. وفي كل الأحوال كانت الرحلة الأسبوعية تعود إلى تشجيع " أبوعبده " الذي كانت سيارته تأخذنا من باب البيت وتعود بنا إلى الباب نفسه. وكان إذا لم ترغب أسرته في الذهاب، فإن بعض الزملاء ينضمون إلينا في الرحلة.

المقاطعة:

بدأت أفكر في الحصول على الصحف المصرية؛ لأتابع ما يجري في القاهرة .. كانت الأحداث بعد كامب ديفيد أخذت شكلا تصاعديًّا، وخاصة في مجال العلاقات بين الدولة العربية ومصر، وبدا أن معظم الدول العربية

تطبق ما يعرف بالمقاطعة. وانطبقت المقاطعة على الصحف والمجلات المصرية، وصرت عندما أزور جازان أسبوعيا أفتقد الصحف المصرية ولو كانت (بايتة) أو صدرت قبل أيام.

قبل حظر الصحف المصرية بشهور، بعثت برسالة إلى الحاج حسن عاشور - مدير الاعتصام - ليشترك لي في الأهرام والأخبار .. في البداية كانت الصحف تصل بصورة معقولة؛ حيث كان البريد يأتي إلى البلدة مرتين أسبوعيًّا .. يصلني عددان أو ثلاثة كل مرة، بعد ذلك صارت الأعداد تتأخر. تصل مجموعة كل أسبوعين أو أكثر، ومع ذلك كنت أسهر على قراءتها، وأتابع ما فيها حتى الوفيات .. كنت أحرص على التدقيق فيها، وكأنني أريد أن أكون حاضرا في مصر، وليس خارجها.

عذابات الغربة:

أفادتني الصحف في متابعة ما يجري والتعليق عليه في مقالات مطولة أو قصيرة، وكنت أبعث بما أكتب بالتتابع إلى الاعتصام والدعوة. فضلا عن توفير حالة من الإشباع النفسي التي تقلل من تأثير الغربة وعذاباتها.

البريد الذي تتولاه الحكومة يعتمد على وكيل من أصحاب المحلات التجارية .. توضع لديه رسائل البلدة والقرى أو الهجر المجاورة لها. والجوار هنا يعني ببساطة شديدة أن يكون بعض السكان على مسافة مائة كيلو مترًا أو أكثر داخل الجبال والصحراء المترامية. وهذه المسافة لا تمثل مشكلة أمام امتلاك المواطنين لسيارات قوية متنوعة يمكن أن تقطع مسافة المائة كيلو في أقل من ساعة واحدة.

بيد أن المواطنين بصفة عامة لا يعنيهم أمر البريد إلا نادرًا. الوافدون أو الذين جاءوا للعمل هم الذين يهتمون بالبريد، وينتظرون الرسائل التي تطمئنهم على أسرهم وذويهم، وتحمل لهم الأخبار التي تضيء لهم ما يجري مع أقاربهم أو في أرض الوطن خاصا بمصالحهم وعلاقاتهم بغيرهم.

وكيل البريد في البلدة صاحب محل حدايد وبويات، وكان يعدّ من كبار الأغنياء في المنطقة، وكان الرجل يترك الأمر لولده الطالب في المرحلة المتوسطة بالمدرسة عندنا، فيسجل الخطابات المضمونة ليوقع عليها صاحبها أو الشخص الذي سيوصلها إليه، بالإضافة إلى الخطابات الرسمية أو الحكومية الواردة إلى المدرسة، وكان أحد الزملاء الذين لديهم سيارة

يذهب إلى المحل ويفرز البريد، ويحمل كل ما يخص المدرسة من مكاتبات رسمية، أو يخص أعضاء هيئة التدريس.

أحد المحارم:

استعان صاحب محل الحدايد والبويات بأحد المحارم الذي جاء مرافقا لزوجته ولم يجد عملا .. كان الرجل يعمل في مصر محاسبا بإحدى الجهات، وجاء مع زوجه المدرّسة محرْمَا لها كما يقضي النظام السائد بالنسبة للسيدات المتعاقدات. ورضي بالعمل في المحل نظير أجر رمزي بقصد شغل الفراغ، وكان ينظم حسابات المحل وأعماله، وبالجملة يستلم البريد من المندوب القادم من جازان ويسلمه لأصحابه الذين يحضرون لتسلمه.

وبالنسبة للبريد المرسل فقد كنت أسعى دائمًا لإرساله من المكتب الرئيس في جازان؛ كي يصل في وقت أسرع .. أشتري كمية من الطوابع وأضعها على رسائلي كي يأخذها " أبو عبده " معه يوم الخميس إذا لم أذهب فيلقيها في الصندوق هناك، كما كنت أرسل الخطابات المسجلة من هناك أيضا، وخاصة تلك التي تحمل شيكات بمبالغ نقدية.

رسالة بعينها:

كنت أنتظر البريد الوارد في قلق دائم .. لا أدري لماذا ؟ ومع أن رسائل عديدة كانت تأتيني من أصدقاء أدباء وصحفيين وزملاء في مجال التعليم فقد كنت أترقب رسالة بعينها، أعرفها من الخط الذي يوجد على الغلاف. إنها رسالة أبي الذي أميّز خطه من بين آلاف الخطوط .. كانت تأتيني رسالة منه كل أسبوعين أو ثلاثة، ويضمّنها أخبار الأسرة، وما يجري في القرية من أحداث، وهو ما يجعلني أشعر بعد قراءتها بالراحة والاطمئنان. لماذا أنا متوتر دائمًا هكذا على غير عادتي في انتظار الرسائل ؟ كنت في أيام التجنيد أمكث وقتًا طويلا بعيدًا عن القرية ولا أشعر بالقلق. أيرجع السبب إلى كوني آنئذ داخل مصر، والآن فإني خارجها ؟ هل هي علاقة الارتباط بالوطن أو المكان التي لا تنفصم مع كل المتاعب والآلام التي يصنعها حكامه وأتباعهم ؟

حل مشكلة:

بعد ثلاثة شهور تقريبا جاءتني رسالة من أبي تخبرني أنه تم حل مشكلة عائلية بين أمي وأبناء أخيها تتعلق بالميراث، واقتضى الأمر أن يدفع أبي

قرابة ألف وخمسمائة جنيه لتصفية المشكلة، فاضطر للاستدانة لأول مرة في حياته؛ كي لا تتدخل أطراف خارجية وتشتري نصيب أبناء الخال من البيت والأرض .. التدخل يمثل نوعًا من الإهانة والقهر والإذلال، وخاصة أن بعضهم يريد التدخل شامتًا وراغبًا في المكايدة، وهي أمور لها حساباتها في الريف .. فأن تترك الآخرين يستولون على بيتك وأرضك أو يشاركونك فيهما ولو بما يدفعونه، أو كان الذي يدفعونه يفوق طاقتك وقدرتك، فهذا وضع لا يقبله من يحرص على عدم المشاركة أو تمكين الغرباء من ميراث ذويه.

جعلوني المنقذ:

مختصر الأمر كانت الاستدانة ضرورة لإنقاذ البيت والأرض على تواضع مساحتهما وفداحة الثمن من أيدي الغرباء .. جعلوني المنقذ دون أن أدري، وبدلا من أن يذهب نصيب أبناء الخال إلى الغرباء يكون من نصيبي أنا؛ لأني في الإعارة أملك - بظنّهم - سداد المبلغ المطلوب الذي تمت استدانته لحل المشكلة، وحتى لا يتمكن الغرباء.

ألف وخمسمائة جنيه في ذلك الوقت مبلغ كبير، وإذا عرفنا أن قيمة الجنيه آنئذ تساوي تسعة ريالات تقريبًا، فقد كان المطلوب تحويل ما يعادل نحو ثلاثة عشر ألفًا وخمسمائة ريال .. لا أملك هذا المبلغ لتحويله إلى أبي .. كان قد تبقى معي مبلغ قليل من بدل السكن، وكان هناك أمل أن نتسلم مرتب شهرين معًا بعد أيام كما وعدونا في الإدارة، وأحتاج بعد صرف الشهرين إلى ضعف ما لدي كي يتم التحويل.

كنت حريصًا على عدم إحراج أبي أو إظهاره بمظهر من يستدين ولا يسدّد، مع أن الذين ساندوه وجمعوا مبلغ الدّيْن كلهم من الأقارب والأصدقاء، ويعلمون جيدًا أن أبي حريص أيضًا على السداد. في المدرسة عرف بعض زملائي بالأمر، وبعد صرف مرتب الشهرين وجدتهم يجمعون المبلغ المتبقي، ويسلمونه إليّ. شكرتهم وتوجهت في يوم الخميس كالعادة إلى جازان، وحولت المبلغ من خلال شيك، وأرسلته في خطاب إلى أبي. وكانت السعادة تكاد تخرج من سطور الخطاب الذي ردّ به على وصول الشيك، وهو يخبرني أنه سدّد الدين كاملا وشاكرًا لمن وقفوا إلى جانبه.

شعرت بالراحة:

أحسست أن جبلا ثقيلا على صدري قد انزاح .. صراع الأقارب مؤلم وقاس، والوصول إلى حلّ ولو كان به بعض الغُبْن، خير من استمرار الصراع .. لقد شعرت بالراحة؛ لأن الموضوع انتهى مع أبناء خالي، ولم يعد هناك مجال لمن يريدون توسيع شقة الخلاف، ودسّ أنوفهم في شئوننا بالتحريض أو التأليب، أو غير ذلك من طرق الإفساد والفرقة.

كان عليّ بعدئذ أن أرتب مع الزملاء تسديد مستحقاتهم في الشهور التالية، بحيث أستبقي من المرتب مبلغًا يكفيني شهريًّا، وكنت سعيدًا في كل الأحوال أنني استطعت إنقاذ كرامة أسرتي أمام الآخرين.

بعض المحارم:

وقت الفراغ بالنسبة لي كان قليلا .. ألتقي ببعض الزملاء عند صلاة المغرب، فنتبادل الحديث حول القضايا اليومية الخاصة بالمعيشة أو العمل في المدرسة، أو غير ذلك من الأمور. وفي البيت أتابع القراءة والكتابة .. لم تكن لدي رغبة في تبادل الزيارات الاجتماعية؛ بسبب ضيق الوقت، وحاجتي الضرورية له لإنجاز بعض الكتابات، فضلا عن قراءة بعض الكتب والصحف والمجلات.

كان يوجد في البلدة بعض المحارم الذين لا يعملون، وكانوا في مصر يعملون بالتدريس في المدارس الثانوية والإعدادية، أو لهم وظائف مكتبية أو فنية في بعض المؤسسات، وهؤلاء كانوا يرافقون زوجاتهم اللاتي يدرّسن في مدارس البنات، وبعضهم له أولاد. وكنت أتأملهم أحيانًا فأجدهم يعيشون وضعًا صعبًا، وكأن إحساسهم تجاه الزوجة التي تعمل وتنفق يدفعهم إلى الاكتئاب والحزن، والحدة في التعامل، والحساسية المفرطة تجاه الآخرين. ولعل بعض الزوجات تحوّلن إلى موقع من يملي على الزوج، وخاصة إذا كانت من بيئة لا تحترم قيم الزواج، فيشعر الزوج بالقهر الذي تظهر آثاره في التعامل مع الآخرين.

حراسة المرأة:

لو كانت في مصر حكومة يهمها أمر مواطنيها وشئونهم، لاتفقت مع الحكومة الأخرى لتفيد من هؤلاء المحارم، بتوفير وظائف مناسبة لهم ولو كانت متواضعة. أقسى شيء أن يشعر الرجل أنه جاء لحراسة المرأة التي

ترعاه بما تقبضه من مال .. لقد اضطر بعضهم ليعمل في القرى المجاورة في صناعات صعبة غير مؤهل لها .. مثلا اشتغل بعضهم في صناعة الطوب الأسمنتي، حتى تسلخت يداه، واسود وجهه من لفح الشمس الحارقة. أراني أحدهم يديه وأثر الأسمنت والتسلخ واضحان عليهما .. إنه لم يعمل في حياته عملا يدويًّا مرهقًا تحت لهيب الشمس .. رثيت له في داخلي.

ومع ذلك لم يتوقف المحارم عن البحث عن عمل، حتى عثروا في العام الثاني أو الثالث على بعض الأعمال الكتابية في بلدة تبعد نحو مائة كيلو متر .. ولكنهم كانوا سعداء؛ لأنهم يخرجون مثلنا نحن المتعاقدين في الصباح، ويعملون ثم يعودون في المساء، ويقبضون مرتبا آخر الشهر يصرفون منه على البيت والأسرة .. لست في حلّ من الحديث عن الخلافات التي تحدث بين زوج لا يعمل وزوجة تعمل وتنفق عليه وعلى الأسرة ! إنها خلافات وقفت ببعض الأسر على الحافة أحيانًا، ولكن الله سلم !

التملق والنفاق:

بصفة عامة، يحرص المصريون في الخارج على بقائهم في العمل، ويخشون فسخ العقود والعودة إلى الوطن دون إكمال مدة عملهم أو إعارتهم، ولعل ذلك من وراء انخراط بعضهم في التملق والنفاق الرخيص لبعض أهل البلاد أو المسئولين في الإدارة؛ كي يضمنوا – من وجهة نظرهم – أنهم مستمرون ولن يفاجأوا بالترحيل، وقطع الإعارة، وقد يبالغ بعضهم في تملقه ونفاقه إلى درجة شاذة تكون مثار استغراب الآخرين ونفورهم. إن أهل البلاد يحترمون من يحترم نفسه ويؤدي عمله كاملا وإن كانوا يكرهونه، ولكنهم يحتقرون من يهين نفسه،ولو أسعدهم مديحه وتقريظه وانحناؤه !

رأيت نماذج – لا أحب الحديث عنها – تسلك سلوكًا معيبًا في التقرب إلى أهل البلاد، وتسعى بكل السبل لإثبات أنهم قريبون من صاحب القرار، وأنهم في مأمن من عدم إنهاء عقودهم، ولكن داخلهم فيما يبدو على الملامح الخارجية يشي بالخوف إلى درجة الهلع. وشاهدت عند قرب انتهاء الدراسة حالات من عدم الاتزان واضطراب أصحابها، ويسألون يوميا: هل جاء تجديد العقود ؟ هل التأشيرة ذهاب وعودة أم ذهاب فقط ؟ كانت حالة التوتر تزداد كلما اقترب تسلم الجوازات..

العملة الصعبة:

وظني أن ذلك يرجع إلى غياب الحكومة المصرية عن متابعة رعاياها، وتفريطها في وجودهم ليس خارج مصر فقط؛ بل في داخلها، حيث لا يوجد أدنى اهتمام أو إحساس بهذا الكائن الذي يقال عنه إنه من أهم مصادر العملة الصعبة حين يعمل في الخارج، إن السلطة المصرية لا تتذكره إلا عند فرض الإتاوات التي تسمى رسوما أو ضرائب أو نحو ذلك ! لذا يحاول المصري أن يأخذ الأمر بيده، ويتوسل إلى بقائه في الخارج بما يتصور أن يحميه ويوطد وجوده هناك، ويرى أن كل الوسائل – ولو كانت مستهجنة – مباحة ليحافظ على لقمة العيش .. فلن تنجده حكومته ولن تسعفه إذا وقع في مأزق، ولا تسل عن السفارة أو القنصلية أو الملحقية الثقافية؛ فهم مثل المعارين مشغولون بأنفسهم، وحريصون على إرضاء أهل البلاد؛ كي يوافقوا على التجديد لهم، وطلب سنوات إضافية استثنائية؛ ولذا لا يتدخلون في أية قضية تهم مواطنًا مصريًّا إلا نادرًا حين تكون المشكلة بسيطة، أو يحتاج حلها للكلام مع موظفين صغار، عدا ذلك فلا شأن لهم بأحد .. وعلى المتضرر أن يضرب رأسه في أقرب حائط !

اختراق الضاحية:

رأيت بعد عقد من الزمان سفيرًا مصريًّا، يتقرب إلى المسئولين والأمراء، لدرجة أنه يشارك معهم في مناسبات معينة، مثل اختراق الضاحية أو الاحتفالات الخاصة التي لا يفرضها البروتوكول، وكان هذا السفير في الوقت ذاته يتحدث إلى المصريين – ومنهم أساتذة جامعات أطول منه قامة وقيمة – بمنتهى الغطرسة والصلافة والعنجهية ! فقلت: سبحان الله !

حكى لي مسئول كبير من أهل البلاد أن سفيرًا عربيًّا لدولة صغيرة في شمال إفريقيا لها نحو مائتي مدرس متعاقد في المملكة، كان يطارد الوزير المسئول كل يوم من أجل هذا المدرّس أو من أجل تلك المدرّسة. هذا يعاني صعوبات في المكان الفلاني ويطلب نقله، وذاك يعيش أوضاعًا غير مريحة ويطلب حل مشكلته. السفير يظل يتابع مشكلات رعاياه، لدرجة أن الوزير المسئول كان يستغرب أن يمر يوم دون أن يطلبه السفير !!

لا سفير لهم:

المصريون يومئذ كانوا أعدادًا ضخمة، تتجاوز مائة ألف، ولكن لا سفير لهم، ولا قنصل، ولا ملحق ثقافي .. كان اعتمادهم على الله وحده، ثم استخدام قدراتهم الذاتية، أو فهلوتهم إذا صح التعبير، مع أنهم في الغالب يؤدون واجبهم وزيادة.

أتذكر الآن زميلا كان حريصًا على التقرب من المدير، لدرجة أنه كان يزوره في بيته ويسهر معه، ويتكلم بلهجته، ويحشر نفسه في أموره الخاصة؛ ليبدو حريصًا على الإسهام والمشاركة في الوقوف إلى جواره ومتابعة شئون أبنائه. وفي المقابل كان لا يتقرب من زملائه المصريين أو يشاركهم شئونهم وأحوالهم، كما يفترض في مجموعة غرباء من جنسية واحدة، يعيشون في مكان واحد .. للإنصاف لم يؤذ أحدًا أو يشي بأحد، ولكن قضيته الأولى كانت تأمين نفسه ومستقبله.

العامل الإيماني:

هنا تظهر أهمية العامل الإيماني، فالذي يؤمن أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، لا يخشى عدم تجديد العقد، أو العودة إلى البلاد في أية لحظة، فالرزق مقسوم منذ الأزل .. المهم أن يعمل الإنسان بما يرضي الله، ويؤدي واجبه المفترض دون تقصير، والله يختار لعبده ما يريد.

ومن هذا المنطلق كنت أتحرك في تعاملي مع الآخرين، وأؤدي الواجب الذي يفرضه عليَّ ضميري. كان ابن المدير طالبًا في الصف الخامس، ولأن الولد ضعيف المستوى، فقد رسب، ووقع أبوه باعتماد النتيجة. ورأى بعض الناس أن ذلك يعد تجاوزًا مني، بل تحديًا للمدير!

ذهبت للمدير، وفتحت معه الموضوع بمنتهى الصراحة والوضوح، وقلت له: إذا كنت تريد أن يواصل ابنك تعليمه، فانتهز الفرصة، واعمل على تقويته ومساعدته. لكن نجاحه وهو بهذا المستوى الضعيف سيجعله يترك التعليم من تلقاء نفسه.

بدا التأثر على الرجل، وقال لي: إني أتركه لك لتقترح طريقة معالجة ضعفه. أخبرته أنني سأجعل له في الفصل مقررًا خاصًّا يتناسب مع مستواه، على أن يقوم هو - أي المدير - أو أحد من إخوته الكبار بمساعدته في المنزل.

أعاد الولد السنة الدراسية، وتحسن مستواه بقدر ما، ومضى في طريقه بعد ذلك في المرحلة المتوسطة، حيث غادرتهم إلى الوطن.

رحلة الحج:

حين يئست من السير في موضوع الماجستير، وقررت اختيار موضوع جديد، عشت فراغاً لمدة شهور حتى تمت الموافقة على الموضوع الجديد، وأتيح لنا بعد وصولنا بعدة أسابيع أول فرصة للحج. كنا على مشارف عيد الأضحى، ووجدت بعد الزملاء المصريين يشيرون عليَّ بالحج في رحلة خاصة يشترك فيها بعضهم، من خلال سيارة تأخذنا من الأحد إلى مكة مباشرة قبيل العيد، وتعيدنا بعد انتهاء المناسك.

وافقت على الفور؛ خاصة أن المشاركين جميعًا من المصريين باستثناء السائق، وكلهم أسَر، ومعهم بعض الأطفال، ومبلغ الاشتراك يعدّ معقولا بالنسبة للطيران، فضلا عن أن السيارة ستكون البيت المتنقل في المناسك، أي لن نحتاج إلى فندق، وخاصة أن الجو صيفي حار، والناس في الحرم أو المناسك ليلا ونهارًا.

الطريق إلى مكة:

هناك طريقان من جازان إلى مكة؛ أحدهما طريق معظمه أسفلتي، ولكنه يمر بطرق جبلية وعرة، وبه منحدرات شاهقة يسمونها العقبة وحوادثها كثيرة ومؤلمة، ويمر بمنطقة أبها. والطريق الآخر محاذ للبحر الأحمر، ولكنه ترابي، واختار السائق الطريق الترابي، ومع أننا خرجنا مع الفجر، فإننا عانينا عناء شديدا بسبب الرمال التي كانت تسوخ فيها السيارة؛ مما يجعلها تتوقف لفترات طويلة حتى يتم دفعها واستئناف السير، بالإضافة إلى أن السائق كان يضلّ الطريق أحيانًا، فيدخل في طرق جانبية ولا يخرج منها إلا بعد فترة طويلة. وصلنا إلى منتصف الطريق في منتصف الليل، وكان الإجهاد قد بلغ منتهاه بالحجاج كلهم. أوينا إلى استراحة في المدينة التي توقفنا عندها، وهي عبارة عن مطعم ومقهى، ويمدّ في الخلاء ما يشبه سرر الحبال لمن يريد أن ينام. نامت النساء في السيارة، وبقي الرجال في الاستراحة. بعضهم أغفى، وبعضهم الآخر ظل يقظا حتى صاح ديك الفجر، دون أن يكون هناك ديك. جاء صوت المؤذن من بعيد فاستيقظ النائمون أو كثير منهم، وصلينا الصبح في مصلى لصيق بالاستراحة،

واستأنفنا السير، وكان الطريق كلما اقتربت مكة يبدو ممهدا وأفضل استعمالا.

الحرم الشريف:

مع العصر يوم التروية وصلنا إلى الحرم الشريف .. كان المشهد مهيبًا، ويصعب التعبير عنه .. طفنا وسعينا، وواصلنا الرحلة إلى منى للمبيت بها؛ استعدادا للوقوف بعرفة. قضينا يوم عرفة ثم عدنا إلى منى في زحام شديد، وصعوبة في الحركة، وأظن أننا وصلنا قبيل الفجر بعد أن توقفنا بمزدلفة لبعض الوقت، وفي صبيحة العيد كانت مهمة رمي الجمار من أشق المهام؛ بسبب الزحام الذي لا يرحم، وخاصة في وجود تكتلات بشرية تندفع بقوة، فتجرف في طريقها من لا يسبقها، وكدتُ أموت بعد أن سقطتُ في الزحام لولا لطف الله الذي بعث إليّ أيديَ رفعتني وحملتني وأنا لا أدري أين أنا.

النساء عادة يوكلن الأزواج أو الأقارب لرمي الجمار؛ بحكم أنهن لا يستطعن الحركة في الزحام، وإن كان بعض الجنسيات مثل الإيرانيين يحرصن على مشاركة النساء من خلال تشكيل حلقة قوية حولهن للحماية.

طفنا طواف الإفاضة، وتحللنا من الإحرام، وبعد أيام التشريق رجعنا إلى مكة، وطفنا طواف الوداع، وبدأنا رحلة العودة..

وصلنا بعد يوم وبعض يوم، واستأنفنا حياتنا العادية.

يوم الغياب:

لاحظت أن المدرسة تكاد تخلو من معظم الطلاب، خاصة طلاب الصفوف الثلاثة العليا: الرابع والخامس والسادس، في يوم الأحد من كل أسبوع. اكتشفت أن الغائبين يشاركون أسرهم في التجارة بالسوق، من يجلس مع والده أو من يبيع، وهناك من يذهب منفردا ليبيع الماء. فالماء له ثمن سواء في القوارير المغلقة التي تسمى عندنا المياه الصحية، أو الماء المثلج في ثلاجات صغيرة (الكولمان)، حيث يدور بها الطفل على البائعين الجالسين في السوق أو المشترين، ويبيع كوب الماء بريال أو نصف ريال حسب المساومة، ويكون الحصاد حسب التساهيل أو ازدحام السوق، فيمكن للطفل أن يربح عشرين ريالا، أو أكثر، وهذا المبلغ مهم للأسرة التي تكون غالبًا فقيرة بالقياس إلى

بقية الأسر، وهؤلاء غالبًا من القادمين من الجانب الآخر من البحر الأحمر: من الصومال أو الحبشة أو إريتريا أو السودان، أو من دولة الجوار: اليمن. وكثير منهم مقيم من فترات طويلة دون أن يحمل الجنسية المحلية؛ لأنها كانت قاصرة على المواليد المسجلين الذين يبلغون الثامنة عشرة .. لا أعرف اليوم ماذا يجري بالنسبة لمنح الجنسية، وإن كان الأمر اليوم يبدو أصعب من الفترة التي كنت فيها هناك.

كنت معجبًا بالتلاميذ الذين يشاركون مع أسرهم تحمل المسئولية، وفي الوقت نفسه أتأثر من أجلهم؛ بسبب الدروس التي تفوتهم، وقد حاولت – قدر الإمكان – أن تكون دروس يوم الأحد مكررة، أو لا تؤثر على الغائبين .. وكنت أجد مندوحة حين أرى أمامي طالبين أو ثلاثة، بدلا من عشرة أو أكثر قليلا في الأيام الأخرى.

طريقة المندي:

وقد قرّبني من الطلاب إسناد مهمة المشرف الاجتماعي إليّ .. كنت أحضر معهم اللقاءات داخل المدرسة وخارجها، وهي لقاءات تتم فيها أنشطة مختلفة تبدأ من السابعة صباحًا، وتنتهي بعد العصر غالبًا، ويشارك فيها طلاب الصفين الخامس والسادس، ويتناولون مع المدرسين والإدارة طعام الغداء، الذي يكون عادة خروفًا يقوم حارس المدرسة العجوز بذبحه وطبخه على طريقة النيفا أو المندي.

وفي هذه الطريقة يتم حفر حفرة برميلية في الأرض الرملية، ووضع فروع الأشجار الجافة المشتعلة في قاعها، وتركها حتى تصفو ثم يفرشون فوقها ورق القصدير، ويضعون عليه الأرز بعد غسله، ثم قطع الذبيحة النظيفة مع الملح والتوابل، ويغطونها بورق القصدير مرة أخرى، ويردمون عليه بالرمل، ويتركون الحفرة لفترة طويلة نسبيًا. وعند الغداء يزيلون التراب، ويرفعون القصدير ليظهر اللحم مطهوا بصورة مميزة، وقد تخلص من الدهون التي تختلط بالأرز فتعطيه نكهة خاصة .. إنها وجبة نظيفة بكل المقاييس، حيث لا تتدخل فيها الأيدي إلا عند الذبح وتقطيع اللحم.

رحلة البرّ:

وفي فصل الشتاء هناك رحلة أخرى خارج البلدة إلى ما يسمى البرّ، أي الخلاء المعشب، الذي يكون فيه العشب ناميًا. ويشتهر هناك وادي صابيا، وهو خلاء فسيح بالقرب من بلدة تاريخية تسمى صابيا على بعد مائة كيلو متر تقريبًا من أحد المسارحة، وينبت فيه العشب بعد سقوط الأمطار الموسمية، وفيه بعض غدران المياه، التي تمثل شيئًا مهمًّا بالنسبة لمن يعيشون في الصحراء المقفرة، ويبتهج لها الطلاب وأساتذتهم؛ خاصة أن مياهها عذبة نقية، وحولها الخضرة المفقودة في معظم الأرجاء.

عرفتُ معظم الطلاب وأحوالهم، واهتممتُ بالفائقين منهم، وساعدتُ الضعاف بقدر الاستطاعة داخل الفصل، وكنتُ سعيدًا حين تواصل معي بعضهم بالكتابة أو الزيارة عندما عدت إلى الرياض بعد نحو عقد من الزمان لأعمل في كلية المعلمين.

جريدة الندوة:

أتاحت لي متابعة الصحف المحلية فرصة التواصل مع بعضها بالكتابة، واسترحت إلى جريدة الندوة التي كانت تصدر بمكة المكرمة. كانت هادئة، وكان رئيس تحريرها واحدًا من رواد اصحافة الأوائل هناك، وهو الأستاذ حامد مطاوع، وكان يملك أسلوبًا صحفيًّا متميزًا، يعلق به على الأحداث وفق الاتجاه السائد في البلاد. وكانت الجريدة تصدر ملحقًا أدبيًّا أسبوعيًّا من أربع صفحات، ينشر دراسات نقدية وقصصًا وقصائد، بالإضافة إلى المقابلات والأخبار .. وكانت هناك صفحة يومية رئيسة للرأي، بالإضافة إلى الأعمدة اليومية والأسبوعية، وقد نشرت في ملحق الأدب وصفحة الرأي والأعمدة عددًا كبيرًا من المقالات والدراسات، وكانت الجريدة ترسل إليَّ مكافأة تتراوح بين مائة ريال ومائة وخمسين ريالا، وقد زرت الجريدة فيما بعد في أثناء حج أو عمرة - لا أذكر جيدًا - وقابلت رئيس التحرير - رحمه الله - الذي رحب بي وبكتاباتي.

أرسلت إلى جريدة الرياض ونشرت لي، ومجلة اليمامة ونشرت لي أيضًا، ولكن دون مقابل.

عدم الالتزام:

وحاولت التواصل مع جريدة المدينة المنورة، ونشروا ما كتبت، ثم أرسلوا لي خطاب شكر، مع الاعتذار عن عدم الالتزام بأي مقابل !

ومن المفارقات التي أذكرها أن الكاتب الصحفي الفلسطيني المعروف عبد الباري عطوان، كان محررًا مبتدئًا آنئذ في المدينة، وكان يصوغ موضوعات إخبارية قصيرة، وكنت أظنه من أهل البلاد، ولكني عرفت بعدئذ أنه فلسطيني من غزة، ترك المدينة – التي كانت تصدر في جدة – للعمل بصحيفة مهاجرة في لندن، لعلها " الشرق الأوسط "، ثم استقل بجريدة " القدس العربي "، التي استقطبت عددًا كبيرًا من الكتاب العرب، أغلبهم من القوميين والناصريين واليساريين. وظل بها نحو عشرين عامًا، حتى تركها، وأنشأ موقعًا إخباريًّا على الشبكة الإلكترونية اسمه "رأي اليوم "، على غرار القدس العربي، ويلقى إقبالا جيدًا من القراء العرب.

نهج هادئ:

كانت هناك مجلة إسلامية أسبوعية، تصدر في الرياض، واطلعت على أعداد منها، فوجدتها تمضي على نهج هادئ رصين، هدفه التعريف بالإسلام وتقديم التفسير القرآني، وشرح الحديث الشريف، وتناول السيرة النبوية، مع الاهتمام بما يجري للأقليات المسلمة من اضطهاد ومتاعب.

بعثت إليهم ببعض المقالات، فنشروها. ثم فوجئت برسالة من الأستاذ محمد جاد البنا - سكرتير التحرير - يثني على ما أكتب، ويذكر مقالات الاعتصام والدعوة المصرية. وكانت هذه بداية صداقة طويلة مع الرجل حتى اختاره الله إلى جواره.

لقد دعاني إلى زيارة الرياض - وكنت في العام الثاني للإعارة فيما أتذكر - فزرته في المجلة، وتعرفت على رئيس التحرير، وكان يومئذ الشيخ سعد آل فريان، وهو رجل مهذب ودود، وكان حين يرى مقالا غير ملائم، يعتذر بلطف ولباقة طالبًا غيره.

استضافني الأستاذ محمد جاد البنا في بيته، وتعرفت على بعض إخوته وزوج أخته الذين يعملون في الرياض أيضًا. احتفى بي الرجل، وعرفني على

آخرين، وقضيت يومًا في الذهاب وآخر في الإياب، وعدت إلى الأحد لأتابع عملي، وأتابع القراءة والكتابة أيضًا.

جاءت أجيال:

امتدت علاقتي بالدعوة السعودية، وتوثقت لمدة عشرين عامًا، حتى صرت في سنوات التسعينيات أكتب افتتاحيتها الرئيسة، والافتتاحية الفرعية، إلى جانب الموضوعات الأخرى.

وكان أكبر مكسب لي أنني خرجت بصداقة محمد جاد البنا، الذي حصل على الدكتوراه، وتبادلنا الزيارات، فزارني في قريتي، وزرته في بلده (طلخا – بالمنصورة)، وعندما غادرت الرياض عام 1996 ظلت العلاقة مع الدعوة قائمة لبعض الشهور ثم انتهت؛ فقد شغلتني أمور، وجاءت أجيال جديدة هناك، لها رؤاها وأفكارها وأولوياتها.

***

2 - ياسمين وجهيمان

رصف الطريق:

في أواخر العام الدراسي الأول، عرفت الكهرباء الحكومية طريقها إلى أحد المسارحة، وتزامن ذلك مع رصف الطريق الرئيس بين جازان في الشمال وبلدة صامطة التي تبعد عن الأحد حوالي 20 كيلو مترًا جنوبًا. قامت شركة إيطالية بالرصف، وكان عمالها تحت شمس شديدة الحرارة يعملون وهم يرتدون سراويل قصيرة، بينما نصفهم الأعلى بلا ملابس، وكان مستوى الرصف جيدًا وقويًّا، وصار الطريق يحتمل السيارات الثقيلة والحركة الكثيفة دون أن يتأثر. وأضحى الذهاب إلى جازان والعودة منها سهلا وسريعًا وبلا متاعب كما كانت عليه الحال قبل الرصف والسفلتة.

شجعنا وجود الكهرباء على شراء تلفزيون أبيض وأسود .. لم يكن الملوّن متاحًا، وامتلكنا جهاز تسجيل نسمع منه الإذاعات المحلية نهارًا والمصرية والعربية ليلا، ونضع فيه الشرائط التي تحمل تسجيلات مختلفة.

نشرة طويلة:

كان التركيز على التلفزيون، وبالأحرى التمثيلية المصرية أو المسلسلة التي تذاع بعد نشرة التاسعة مساء، النشرة تمتد أحيانًا إلى ساعتين، يكون النوم قد غالبنا، فنطفئه قبل مشاهدة التمثيلية. النشرة لا تصل إلى الأخبار الحقيقية إلا في الدقائق الأخيرة. وما يسبقها عرض للاستقبالات الرسمية والاحتفالات والخطب التي يلقيها المسئولون الكبار، ومن يليهم في المستوى، ولعل ذلك يعود إلى الطبيعة العائلية للشعب، وهي التي تجعل أفراد العائلة يتشوقون إلى معرفة أخبارأفرادها، ما حدث لهم ومنهم خاصة الأب والإخوة والأعمام والأقارب. أما ما يجري في المحيط الخارجي ولو كان الحرب العالمية الثالثة فهو أمر ثانوي، لا تستغرق الإشارة إليه إلا دقائق عبر نشرة الأخبار.

أخبرنا بعض الزملاء أنه يمكن التقاط بث التلفزيون اليمني، ومنطقتنا قريبة من اليمن – البلد المجاور – وهناك زملاء يزوروننا من المنطقة الحدودية التي تبعد عنا نحو خمسين كيلو مترا أكدوا لنا ذلك. رأينا في التلفزيون اليمني بعض الحيوية، كما أنه يذيع المسلسلات المصرية أيضًا.

سطحي ومزيف:

المسلسلات المصرية في الغربة تنقلك إلى الوطن .. تعيد إليك بعض ما فيه، مع أن كثيرًا منها سطحي وسخيف، ولا يعبر عن هموم الوطن ومشكلاته الحقيقية .. إنها عادة خلطة تجارية رخيصة لا تقترب من هموم الفقراء والفلاحين والبسطاء، وتكاد تكون قاصرة على طبقة بعينها ونوعية بذاتها، ولا تعتمد على نصوص أدبية ذات قيمة، ولكنها في الغالب حواديت ينسجها تجار المسلسلات؛ حيث يجلسون معًا ليؤلفوا الحدوتة وينتجوها ويخرجوها، والمهم أن يكون فيها ما يجذب المراهقين والبسطاء من ممثلات شبه عاريات، وعلاقات حب مكرورة، ومعارك عنيفة تستهوي الشبان، فضلا عن حبكات بوليسية غير مقنعة، وشروح مستفيضة لكيفية ارتكاب الجرائم بأنواعها، وطرق الإدمان المختلفة، وأساليب تمرد البنات على عائلاتهن والمجتمع، وبذل الأسباب لتسويغ الانحراف بأشكاله المتعددة. وإن كان هذا لا يمنع من وجود بعض المسلسلات المعقولة، وخاصة المأ خوذة عن أعمال أدبية جيدة.

اشتعل الأفق:

قبيل امتحانات آخر السنة، اشتعل الأفق السياسي في مصر والعالم العربي؛ بسبب توقيع معاهدة الصلح مع العدو اليهودي في فلسطين المحتلة.

لقد وقعت المعاهدة في واشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية يوم 26 مارس 1979، بناء على اتفاقية كامب ديفيد المبرمة في 1978. ومن أبرز بنود المعاهدة اعتراف كل دولة بالأخرى .. الإيقاف التام لحالة الحرب

الممتدة منذ عام 1948 .. الانسحاب الكامل لقوات الاحتلال ومعداتها والمستوطنين اليهود من شبه جزيرة سيناء التي احتلها الغزاة اليهود في عدوان يونيه 1967.

كما تضمنت المعاهدة السماح لسفن العدو بالمرور في قناة السويس، والاعتراف بمعابر تيران وخليج العقبة ممرات مائية دولية، وتوفير قوة مراقبة دولية لمراقبة تنفيذ المعاهدة.

في 18 مايو 1981 أعلن رئيس مجلس الأمن الدولي "أن الأمم المتحدة لن تكون قادرة على توفير قوة مراقبة دولية"، وذلك إثر تهديد الاتحاد السوفييتي باستخدام حق النقض "الفيتو"، ونتيجة لذلك بدأت مفاوضات بين كل من مصر والعدو والولايات المتحدة لتشكيل قوات حفظ سلام خارج إطار مجلس الأمن الدولي.

وفي 3 أغسطس 1981، تم توقيع البروتوكول المرتبط بمعاهدة السلام؛ ليؤسس قوات المراقبة المتعددة الجنسيات؛ ومعظمها أميركي؛ حيث تراقب هذه القوات مدى التزام أطراف المعاهدة ببنودها.

أنهت المعاهدة حالة الحرب رسميًّا بين مصر والعدو .. وتمتع كل من البلدين بتحسين العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية مع الدول الأوربية والولايات المتحدة.

وفتحت المعاهدة وإنهاء حالة الحرب الباب أمام تطوير السياحة، خاصة في سيناء.

مذبحة التنازلات:

وعلى الجانب العربي، تم تعليق عضوية مصر في جامعة الدول العربية من عام 1979 إلى عام 1989؛ نتيجة التوقيع على هذه الاتفاقية.

لقد أثارت اتفاقيات " كامب ديفيد " ردود فعل معارضة في مصر ومعظم الدول العربية. ففي مصر استقال وزير الخارجية محمد إبراهيم كامل؛ لمعارضته الاتفاقية، وسماها مذبحة التنازلات، وذكر في كتابه " السلام الضائع في اتفاقات كامب ديفيد " المنشور في بداية الثمانينيات أن " ما قبل

به السادات بعيد جدًّا عن السلام العادل "، وانتقد كل اتفاقات كامب ديفيد؛ لكونها لم تشر بصراحة إلى انسحاب صهيوني من قطاع غزة والضفة الغربية، ولعدم تضمينها حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره.

وعقدت الدول العربية مؤتمر قمة، رفضت فيه كل ما صدر. ولاحقًا اتخذت جامعة الدول العربية قرارًا بنقل مقرها من القاهرة إلى تونس؛ احتجاجًا على الخطوة المصرية.

كان هناك جو من الإحباط والغضب في الشارع العربي، وخاصة في مصر والعراق وسوريا وليبيا والجزائر واليمن. وتطلع بعض العرب إلى الزعامة الإقليمية والشخصية لسد الفراغ الذي خلفته مصر، وكانت هذه البوادر واضحة لدى القيادات في العراق وسوريا، فحاولت الدولتان تشكيل وحدة في عام 1979، ولكنها انهارت بعد أسابيع قليلة، وتشكلت ما يسمى بجبهة الرفض من عشر دول عربية، ومعها منظمة التحرير الفلسطينية. وفي 20 نوفمبر 1979 عقدت قمة عربية عادية في تونس، وأكدت على تطبيق المقاطعة على مصر .. وأخذت الدول العربية تقطع علاقتها الدبلوماسية والسياسية تباعًا مع حكومة القاهرة.

عاصفة العلاقات:

أما القيادة السياسية في مصر فلم تعبأ بالمقاطعة أو قطع العلاقات، ولم تهتم كثيرًا بهذه القرارات؛ إذ " اعتبرت أن قطع العلاقات لم يكن قرارًا، ولكنه كان توصية، ولما كانت شركات الاستثمار العاملة في مصر خاضعة للقانون " 43 " المصري؛ لذلك فإن قرارات المقاطعة تعتبر خاطئة؛ لأنها تعتبر تدخلا في السيادة المصرية " .. وبعد أيام قلائل من هذا الموقف المصري بدأت الأخبار تتوالى عن إجراءات اتخذتها الدول العربية الخليجية، ومن بينها السعودية بحق مصر، والتي صادق مجلس وزرائها في 2 / 4 / 1979 على قرارات قمة بغداد لوزراء الخارجية والاقتصاد العرب.

في بداية عهد الرئيس أنور السادات، وصلت العلاقات بين السعودية ومصر إلى أبهى صورها، خاصة بعد الدور الذي قامت به السعودية في حرب أكتوبر، وجاءت اتفاقية كامب ديفيد لتعصف بهذا الاستقرار، حيث قررت

السعودية في 23 أبريل 1979 في عهد الملك خالد بن عبد العزيز قطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر.

وأعلن مجلس الوزراء السعودي، أن حكومة مصر العربية، قد قبلت وعزمت على تبادل التمثيل الدبلوماسي مع العدو الصهيوني، وبدأت في إنشاء علاقات طبيعية معه، دون مراعاة الحد الأدنى من المطالب التي تتطلع الأمة العربية من خلالها إلى تحقيق السلام العادل والشامل، وقد قررت المملكة السعودية قطع العلاقات الدبلوماسية والسياسية مع جمهورية مصر العربية.

انتقادات مضادة:

شنّ الرئيس أنور السادات هجومًا على السعودية، مؤكدًا أن موقفها من حملة قطع العلاقات يعود إلى التخوف من تهديد حزب البعث والفلسطينيين بنقل المعركة إلى " غرف نوم " حكام السعودية، والاحتجاج على أمريكا لأنها تخلت عن شاه إيران ويمكن أن تتخلى عنهم، وإثبات زعامة لا يستطيعون تحمل مسئولياتها أمام العالم العربي .. وظلت العلاقات مقطوعة حتى استؤنفت مرة أخرى عام 1987 في عهد الرئيس مبارك والملك فهد بن عبد العزيز.

في المقابل قامت الصحف السعودية بشن حملة انتقادات مضادة، واتهمت الصحف السعودية الرئيس المصري بالتخبط والفشل في حل أزمات مصر وبيع القدس إلى إسرائيل، ونهب ألوف الملايين من الدولارات التي قدمتها الدول العربية الغنية إلى مصر؛ لتمكينها من الوقوف على قدميها. وأعلنت السعودية – تنفيذا لقرارات المقاطعة – وقف شحن النفط إلى مصر؛ بسبب توقيعها على معاهدة الصلح مع إسرائيل، كما قامت الحكومة السعودية بالاتفاق مع الحكومة الكويتية بسحب أرصدتها المالية المودعة لدى المصرف المركزي المصري، التي بلغت ألفي مليون دولار، وصدر قرار بمنع الصحف والمجلات المصرية من دخول المملكة السعودية اعتبارا من 14 مايو 1979، وفي اليوم نفسه أكد الأمير فهد – ولي العهد آنذاك – أن بلاده لن تسدد ثمن الطائرات (ف – 5) التي طلبت مصر شراءها من الولايات المتحدة كما كان مقررًا، وفي اليوم التالي أعلن الأمير سلطان بن عبد العزيز رئيس

الهيئة العربية للتصنيع إنهاء وجود الهيئة من الناحية القانونية اعتبارًا من أول يوليو 1979.

استدعاء السفراء:

كانت مصر قد ردت على دعاوى المقاطعة والحملات الصحفية والإعلامية، التي اشتدت في بعض العواصم العربية عقب كامب ديفيد، باستدعاء سفرائها من سبع دول عربية، هي السعودية والكويت والإمارات وقطر والبحرين وتونس، وقالت الخارجية المصرية: إن مصر اتخذت هذا القرار نظرًا لما صدر عن حكومات هذه الدول من تصرفات لا تتفق ومقتضيات التضامن العربي. وبعد ذلك بأقل من أسبوعين جاء قرار السعودية بقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر، كما سبقت الإشارة. وفي اليوم نفسه ردت مصر بالإقدام على الخطوة نفسها تجاه السعودية والكويت، مع التأكيد على أن قطع العلاقات الرسمية لن يؤثر على علاقات مصر مع الشعبين السعودي والكويتي.

وفي اليوم التالي، قررت السعودية والكويت - إلى جانب قطر والإمارات - وقف تقديم المساعدات الاقتصادية لمصر إلى أجل غير مسمى؛ مما حرم الرئيس السادات من دعم دولٍ عربية معتدلة، ومن المعونة المالية الأساسية التي كانت تغدقها عليه، وباتَ عزل مصر عن العالم العربي شبه كامل، سواء على الصعيد السياسي والدبلوماسي أو على الصعيد الاقتصادي.

النظام والشعب:

وفي ضوء التفرقة التي نصت عليها قرارات مؤتمر بغداد لوزراء الخارجية والاقتصاد العرب بين المقاطعة الرسمية للنظام المصري وبين محاولة تعزيز الروابط مع القطاعات الشعبية التي لا تتعاون مع الكيان الصهيوني، تُفهم خطوة المملكة السعودية، حين طلبت من الإدارة العامة للإعارات الخارجية بوزارة التربية والتعليم المصرية إعارة 3285 معلمًا ومعلمة من مختلف التخصصات والمراحل، كما طلبت تجديد إعارة 7 آلاف معلم ومعلمة مصري ومصرية لاستكمال مدة الإعارة القانونية، وهي 4 سنوات. وفي الإطار نفسه أكد وزير الداخلية السعودي أن بلاده لم تتخذ أي إجراء ضد دخول المصريين إلى السعودية، أما وزير التعليم العالي السعودي فقد نفى

– بدوره – أية نية سعودية بسحب أو إيقاف بعثات المملكة الطلابية إلى مصر.

دعوة للحرب:

ومع محاولة السياسة المصرية استمالة الموقف السعودي، إلا أن الأخير حرص – من خلال الأمير فهد – أن يؤكد رفضه للمعاهدة المصرية الإسرائيلية؛ لأنها غير واقعية وغير معقولة، وأن السلام الذي قيل إنه تحقق:

أ – يسقط حق الشعب الفلسطيني في العودة والاستقلال.

ب – يهمل مدينة القدس، وما تمثله من قيمة دينية وتاريخية ومعنوية.

ج – يتجاهل منظمة التحرير الفلسطينية، الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني.

د – يكرس الوجود الإسرائيلي العسكري في الضفة والقطاع وهضبة الجولان.

هـ – يبقي على المستعمرات الحالية ويشجع إسرائيل على بناء المزيد منها.

و – يعطي إسرائيل حقًّا قانونيًّا في استمرار السيطرة على المياه والأرض في الضفة والقطاع.

ز – يتنكر لأكثر من نصف الشعب الفلسطيني الذي يعيش في المنفى.

وباختصار فإن ما جرى حتى الآن – وفقا للموقف السعودي – هو دعوة للحرب، وليس للسلم؛ لأنه يدفع بمنطقتنا العربية نحو العنف والتطرف، والمزيد من إراقة الدماء.

أدخل الطمأنينة:

كانت المقاطعة مثار خوف لدى كثير من المصريّين العاملين في المملكة، ولكن إعلان الحكومة السعودية عن طلب التعاقد مع معلمين إضافيين، وطلب التجديد للقائمين بالعمل حتى يكملوا أربع سنوات، أدخل الطمأنينة في نفوس المتعاقدين، وأكد على بقائهم، وكان بعضهم قد فكر في قضاء إجازته داخل المملكة خوف تفاقم الأمور، وإلغاء التعاقدات!

وللأسف،كان هناك انعكاس للعلاقات المتأزّمة على أهل البلاد، وخاصة عقب أي بيان أو مقال أو خطاب يصدر عن القاهرة ضد المملكة وحكامها، وكنا نرى الوجوه عابسة وغاضبة، وإن لم تفصح عما في داخلها، فهي في كل الأحوال ليست الوجوه الطبيعية التي تتعامل بود وتلقائية كما في الأيام العادية، وكان لابد من تحمل العناء زمنًا استمر حتى رحيل السادات بالاغتيال !

الدبابيس:

كان هناك عقلاء تسمع منهم إذا وثقوا بك وجلست إليهم شكاوى مريرة عن التمييز والتفرقة على أساس عنصري أو قبلي، وعن أوضاع مختلة كثيرة هناك، ولكنهم لا يبوحون؛ لأن الدبابيس في كل مكان، أو كما نقول في مصر العصافير، وهم المخبرون الذين ينقلون إلى جهات الأمن أخبار الناس وآراءهم وسلوكياتهم، وخاصة من يعارضون النظام أو لا يحبونه أو لا يتعاطفون معه. وإذا ذهب الواحد من هؤلاء الذين يشتم منهم رائحة عدم الولاء - بحسب الدبابيس - إلى المقرات الأمنية، فالويل له، وقد لا يعرف عنه الناس شيئًا إلا بعد زمن طويل، وربما لا يعرفون عنه شيئًا أبدًا ! وهذا تقليد فرعوني، نقلوه عن مرحلة الزعيم الملهم جمال عبد الناصر، ومنهج رجله الأول في هذا المجال صلاح نصر، ونقلته معظم الدول العربية الثورية والرجعية على السواء، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

انتهت امتحانات آخر العام، وحصل الطلاب على الإجازة، وبقي أن يحصل المدرسون المتعاقدون على إجازاتهم.

رحلة صعبة:

بدأت رحلة السفر إلى الوطن لقضاء الإجازة .. كانت رحلة صعبة، بدءًا من طريقة الحجز البدائي على الطيران من جازان إلى جدة إلى القاهرة .. عدة أيام قضيناها في الذهاب إلى مكتب الطيران والزحام يخنق الأنفاس؛ فقد جاء المتعاقدون من كل حدب وصوب بالمئات، وكلهم يريد الحجز في أقرب طائرة، وينتهي وقت العمل ولا نصل إلى موظف الحجز، فنذهب في اليوم التالي وهكذا، وبعد جهد جهيد على مدى أيام، إذا بنا في جدة لا نجد مكانًا على رحلة القاهرة المثبتة في التذكرة. وكان غضب، وكان شد وجذب، وانتهى الأمر إلى المبيت في المطار انتظارا لرحلة أخرى في اليوم

التالي تنقلنا إلى القاهرة .. كان التكييف الآلي البارد في المطار كأنه ثلاجة ويكاد يقلب معدتي، وفي الوقت نفسه لا أستطيع التحرك بعيدًا لوجود زوجتي نائمة بجوار بعض المصريات، وانتظارًا لسماع صوت المذيع الداخلي، وقراءة لوحة المواعيد التي تعلن مواعيد القيام والوصول للطائرات.

أخيرًا وبعد انتظار طويل، جاءت طائرة القاهرة، وعند وصولنا إلى مطارها رأيت كثيرًا ممن كانوا معي يسجدون على أرضها ابتهاجًا بوصولهم، وكأنهم رجعوا بعد أسر طويل !

يرفع عقيرته :

ركبنا سيارة أجرة إلى القرية .. ويا ويل المسافر من سائقي المطار .. سألت السائق عن المكان الذي سنذهب إليه، قال أعرفه جيدًا. اتفقنا على مبلغ محدد، وعند وصولنا إذا بالسائق يرفع عقيرته ويجأر، ويطلب مبلغًا زائدًا يكاد يساوي المتفق عليه، ويردد حججًا داحضة وأسبابًا واهية من عينة بعد المكان وكثرة المطبات، ويعلنها بصوت عال حال تجمع الأقارب والجيران وكلهم يقول لي: أعطه ما يريد .. الحمد لله على سلامتك .. المهم أنك وصلت بخير .. والآخر يزداد شراسة في الكلام والزعيق، ولما حاولت إقناعه بأنني اتفقت معه وسألته عن المكان وأنه أكد لي معرفته، راح يلف ويدور، ورأيت من تطوع وأعطاه جزءًا كبيرًا من الزيادة التي طلبها، فاضطررت لدفعها، وهو ما علمني بعدئذ أن أطلب سيارة من القرية أو من حولها حين أكون قادمًا من خارج البلاد بمعرفة الوالد، فتأتي وتنتظرني في المطار .. أشعر بالأمان من ناحية وخاصة عند الوصول ليلا، ويريحني السائق المعروف لي في أثناء الرحلة، وإذا طمع في شيء فسيكون بطريقة مهذبة لا استغلال فيها، ويناله عن رضا وطيب خاطر.

مغموس بالعرق :

عندما انتشر خبر وصولي هرع إليّ كثير من أهل القرية .. كبارها وغيرهم .. جاءني العمدة وأصدقاؤه، وزارني من كانوا لا يعبأون بي .. تأكدت أن الدنيا مربوطة بالقرش، ويا له من قرش مغموس بالعرق والدموع والقهر والعناء في أرض غريبة قاسية.

قضيت الإجازة في تجهيز أوراق العام الثاني للإعارة، وترددت ما بين مديرية التعليم والقاهرة، وكان من الضروري إعادة الكرّة من أجل الحجز على الطيران للعودة. والحجز في القاهرة أسوأ منه في جيزان، فالمكتب المختص هنا يحجز لكل المتعاقدين في أنحاء المملكة .. في جيزان كان الأمر قاصرًا على مئات، الوضع هنا مختلف؛ لأنه يحجز لألوف، والأمر يقتضي أياما طويلة في طوابير طويلة.

كان يخفف عني أن أذهب إلى دار العلوم، فأقابل المشرف الجديد على الرسالة الدكتور على عشري، وأرى الأساتذة والزملاء في القسم، ونتناول قضايا علمية وأمورًا أخرى. كما كنت أتابع النشاط الصحفي في مجلات الاعتصام والدعوة والشعر، التي كان رئيس تحريرها الدكتور عبده بدوي قد أعير إلى جامعة الكويت.

مطربة جديدة:

وكانت هناك قضية شغلت الأوساط السياسية في خضم المقاطعة العربية بسبب اتفاقيات كامب ديفيد وما تلاها، وهي ظهور مطربة جديدة قيل إنها ستحل مكان أم كلثوم، ويتبناها المسئولون في النظام، وهي السيدة ياسمين الخيام ابنة شيخ المقارئ المصرية الشيخ محمود الحصري، أول من سجل المصحف المرتل للإذاعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واسمها الأصلي إفراج، وحصلت على ليسانس آداب قسم فلسفة وعلم نفس، وعملت بعد تخرجها في الجهاز الإداري لمجلس الأمة (مجلس الشعب) حتى درجة وكيل أول وزارة.

وعرفت في بداية حياتها بقراءة القرآن الكريم، وحدث أن جاءت الشهبانو فرح ديبا إمبراطورة إيران السابقة لزيارة مصر، ودعتها السيدة جيهان رءوف زوج الرئيس السادات إلى حفلة شاي في مجلس الشعب، وضغطت الحاضرات من المدعوات على السيدة إفراج الحصري لافتتاح الحفلة بقراءة القرآن الكريم، وسمعت السيدة جيهان صوتها الجميل فانبهرت به.

ثم ذهبت إفراج الحصري مع أم عدنان " حرم بهجت التلهوني " رئيس البرلمان الأردني آنئذ، وكانت ضيفة على مجلس الشعب، في زيارة إلى القناطر الخيرية؛ لزيارة جيهان، حيث رافقتها ياسمين رسميًّا ممثلة

للمجلس، ثم رافقتها في زيارة لنهلة القدسي حرم المطرب والملحن محمد عبد الوهاب، الذي سمع القصة من ' أم عدنان ' عن مواهبها، فوافق على أن يلحن لها أغنية وشجعها على ذلك.

تشجيع وفتوى:

وقيل إن السادات علم بذلك فشجعها، بل طلبها لمقابلته مع والدها الشيخ الحصري، الذي كان معترضا - كل الاعتراض - على قيامها بالغناء.

وبناء على نصيحة السادات - كما قيل - غيرت اسمها إلى ياسمين الخيام؛ حتى لا يؤثر اسمها الأصلي على هيبة والدها شيخ المقارئ المصرية.

وبدأت ياسمين تغني الأغاني العاطفية، فقام علماء المساجد بمهاجمة الشيخ الحصري؛ لأنه لا يليق بشيخ قراء القرآن الكريم أن تغني ابنته، وتظهر على الناس وهي غير محجبة !!

في ذلك الوقت صدرت فتوى من الشيخ صلاح أبو إسماعيل (والد الشيخ حازم)، تبيح لياسمين الغناء، وكان وقتها مديرًا لمكتب شيخ الأزهر.

وهنا تصدت له الاعتصام؛ لأن الفتوى ترتب عليها أن بيت ياسمين بدأ يهتز وينهار، وسمعتُ أن زوجها اتصل بالشيخ صلاح وآخرين، وقال لهم إن فتوى الشيخ صلاح خربت بيته، وأن أولاده سيتشتتون ويحرمون من أمهم ومن رعايتها.

موقف شجاع:

وما كان من الشيخ صلاح إلا أن حضر إلى الاعتصام، واعتذر عن الفتوى، وكتب مقالا يعبر فيه عن أسفه، وتراجعه عن الفتوى. وهو موقف شجاع يحسب للشيخ صلاح، الذي تراجع عندما شعر بالخطر على بناء أسرة مسلمة مستقرة.

تحولت قصة غناء ياسمين إلى ملمح من ملامح الصراع السياسي، وتجاوزت مسألة يجوز الغناء أو لا يجوز إلى تحد يواجه الإسلاميين الذين أخذت علاقتهم تسوء مع النظام؛ بسبب كامب ديفيد، وقد رآها فريق من الناس تدخلا من جانب الدولة لكسر هيبة الشيخ الوقور محمود خليل

الحصري، وفرض ابنته مطربة للنظام، ونسب فريق إلى جيهان زوج الرئيس وقوفها وراء تصعيد ياسمين، وتحريك أجهزة الدعاية الصحفية والإعلامية للحديث عنها وبثّ أغانيها، والإشادة بها نكاية في الإسلاميّين المعارضين.

كنت قبل سنتين أو أكثر في إحدى المجلات الأسبوعية في القاهرة، وسمعت محررا من محرريها المهتمين بالنميمة يتحدث عن مطربة قنبلة ستتفوق على أم كلثوم، وظل يتحدث عنها بانبهار كبير، ولكنه لم يذكر اسمها الأصلي، بل ذكر الاسم الأول فقط ياسمين. عبَر الحديث أذني إلى النسيان .. لم أهتم بالأمر في حينه حتى جاءت القصة كاملة إلى الاعتصام من خلال الشيخ صلاح أبو إسماعيل، الذي جعلته هذه الحادثة يتحول إلى معارض شرس للنظام، ويدخل تحت قبة البرلمان من خلال حزب الأحرار ليوجه قذائفه إلى الحكومة المقصّرة، ويتحول إلى واحد من كبار الداعين إلى تطبيق الشريعة، ويكون له دور في الأحداث التي مرت بها مصر، وانتهت باغتيال السادات، وشهادته أمام المحكمة التي وقف أمامها المتهمون بقتله، واستمراره في العمل السياسي، والصراع بينه وبين وزير الداخلية الشهير زكي بدر، حتى اختاره الله إلى جواره، وخلفه ابنه الشيخ حازم في متابعة دوره السياسي.

الاعتزال والحجاب:

بعد سنوات أعلنت ياسمين الخيام اعتزال الغناء العاطفي، وأنها ستكتفي بالغناء الوطني والابتهالات الدينية، وكان أشهر ما قدمته، أغنية مسلسل محمد رسول الله ﷺ، ثم كفت تماما عن الغناء، واعتزلت وارتدت الحجاب منذ عام 1990، وكرست وقتها وجهدها للأعمال الخيرية.

وقيل إن الشيخ الشعراوي نصحها كثيرًا في ذروة شهرتها، ولكنه لم يلق استجابة، وفي إحدى مقابلاتها للشيخ بعد وفاة والدها بسنوات قالت له: ادع لي يا مولانا .. فقال لها: غدًا أسافر لأداء العمرة وأمام الكعبة الشريفة وعند حضرة الرسول الكريم يا إفراج، سأدعو الله أن يصرفك عن الغناء، ويجعلك تزهدين فيه .. وتتحجبين.

وتقبل الله دعوة الشيخ .. وذهبت ياسمين بنفسها إليه، وبشرته بأن الله شرح صدرها، وتقبل الله دعوته، ففرح الشيخ بها وبما آلت إليه.

رقيقًا مثل النسيم:

ويبدو أن والد ياسمين الشيخ الحصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تأثر بما جرى، فمرض وعانى عناء شديدًا، ثم توفي مساء يوم الاثنين 16 من المحرم سنة 1401 هـ = الموافق 24 من نوفمبر 1980؛ بعد أن امتدت رحلته مع كتاب الله الكريم ما يقرب من خمسة وخمسين عامًا.

وأذكر أنني سمعت الشيخ قبل وفاته يقرأ في الحرم المكي الشريف، فانساب صوته هادئًا رقيقًا مثل النسيم، فلطف حرارة الجو، وأضفى على روّاد الحرم حالة من السكينة والهدوء نادرًا ما عرفها الحرم، وانشغل الناس بما يقرأ تأملا واستيعابًا واستمتاعًا بصوت كأنه آت من السماء.

وعلى كل حال، فقد كان الرجل داعية خير، وربّى أولاده على حفظ القرآن كله، ومن بينهم إفراج التي حفظته مجوّدًا، وختم حياته بتشييد مسجد ومعهد ديني ومدرسة تحفيظ للقرآن بمسقط رأسه في قرية شبرا النملة القريبة من طنطا. كما أوصى بثلث أمواله لخدمة القرآن الكريم وحُفَّاظه، والإنفاق في كافة وجوه البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

عودة إلى الأحد:

انتهت الإجازة سريعًا، وعدنا إلى أحد المسارحة بعد رحلة طيران مضنية؛ فقد انتظرنا في جدة وقتًا طويلا مرهقًا بعد وصولنا من القاهرة، وكنت قبل بدء الإجازة قد استأجرت بيتًا آخر في الناحية الجنوبية من المدرسة، ولكنه قريب منها، وإيجاره أقل، وتهويته أفضل، وبه مساحة من الأرض تعادل مائة متر أو نصف قيراط يمكن زراعتها، بل إن المستأجر السابق زرع به بعض الخضراوات، ولكن مشكلة الماء فيما يبدو قعدت به عن متابعة الزراعة، فتركها بورًا، ينبت فيها بعض شجيرات الباذنجان.

لقد حملت معي بعض البذور من مصر لاحتمال زراعتها، ودعوت الله أن ينزل علينا الغيث لتخضر الأرض. وقد زرعت المساحة بالفعل، وكنت أفيد من المياه التي نستعملها عدا المخلوطة بالصابون لتصرف في المزروعات، وعندما يتيسر بعض الماء من الخط الذي يعمل في الصباح لمدة محدودة، أقوم باستعمال الخرطوم على طريقة الرش. والحمد لله نجحت الزراعة إلى حد كبير، فقد أينع الجرجير والفجل والبقدونس، والخس، والطماطم،

والباذنجــان، ولأن الأرض قويــة وعفيــة، فهــي لا تحتــاج إلى تــسميد أو كيماويات، كانت تحتاج فقط إلى الماء، وعندما تهطل الأمطار الموسمية كانت تعد تسميدًا طبيعيًّا. لقد كنا نوزع إنتاج المزرعة بالتناوب على الجيران، لدرجة أن المحصول الوفير كان لا يجد من يحتاجه؛ لأنه كان متوفرًا عندهم.

المزرعة مثار بهجة في المكان القاحل المقفر، ولذا كنت سعيدًا بها أيما سعادة. كانت ترطب المكان، وتشغلني بعض الوقت في المساء، وكنت أشعر أنني أفيد من عمل يدي .. لقد ظلت المزرعة قائمة حتى تركت البيت في العام التالي.

مؤتمر موسّع:

بدأت الدراسة، ولكن الجو تكهرب؛ بسبب خطب السادات وحملاته الضارية على الحكومة السعودية، وكانت الحكومة ترد بالمثل في صحفها وإذاعاتها وتلفزيونها، وفي الحفلات والخطب العامة، وهو ما وسع دائرة الحساسية بين أهل البلاد والمتعاقدين المصريين أو الوافدين كما يسمونهم. وأذكر أن مدير الإدارة التعليمية عقد مؤتمرًا موسعًا حضره مديرو المدارس ووكلاؤهم ومندوب من هيئة التدريس من كل مدرسة، وكنت المندوب عن مدرستي، كما حضر عدد كبير من ممثلي المدارس، وكان المندوبون مصريون في أغلبيتهم الساحقة، ولاحظت أن المدير العام كان حادًّا في كلامه، الذي ضمنه تهديدًا صريحًا للمتعاقدين بالاستغناء عنهم، وجرى ذكر الاستعانة بمدرسين من جنسيات أخرى كما جرى في عهد الملك فيصل وجمال عبد الناصر. وحين رد عليه زميل مصري واسمه كمال، كنت أعرفه وكان يعمل في قرية مجاورة، كدت أنفجر من فجاجة التهديد، ولكني نهرت الزميل بطريقة تلقائية، وطلبت منه أن يصمت، فصمت، ثم عاتبني بعد انتهاء اللقاء، فشرحت له أن لحظات الانفعال يجب أن نتفاداها بقدر الإمكان؛ وأفهمته أن الرجل يثبت ولاءه لحكومته، وأن الاستغناء عن المصريين صعب، وتجربة الملك فيصل بالاستعانة بالمدرسين الباكستانيين كانت فاشلة؛ لأن اللغة وقفت حائلا بينهم وبين الطلاب، ثم إن العاصفة سوف تتبدد عما قريب إن شاء الله، وأرضيته، ورضي.

الحج ثانية:

هلت بشائر موسم الحج، وأردنا أن نحج هذه المرة على راحتنا، فحجزنا في الطائرة إلى جدة ذهابا وإيابا، ونزلنا في أحد البيوت لدى أحد المطوفين، وكانت فرصة أن نقضي إجازة الحج كلها في مكة المكرمة، وهو ما أتاح لي أن أوفر معظم مراجع بحثي للماجستير. عثرت على بعض المكتبات بحذاء مسعى الصفا والمروة، مكتظة بالكتب فوق بعضها من الأرض إلى قرب السقف، وصاحب المكتبة يترك الزبائن للتقليب بأنفسهم والحصول على ما يريدون، ثم يذهبون إليه للمساومة على الثمن .. كل شيء قابل للمساومة .. كنت من قبل أستحي أن أساوم، ولكن حين رأيت الناس جميعا يساومون فعلت مثلهم.

خرجت بحصيلة جيدة من الكتب التي تتعلق بالبحث وغيرها، وصرت أتردد على هذه المكتبات، كلما نزلت مكة حاجًّا أو معتمرًا؛ لأجد كتبًا يصعب أن أجدها في القاهرة، وخاصة تلك التي توقف طبعها لسبب أو آخر، وللأسف فإن هذه المكتبات أزيلت ضمن مشروعات التوسعة المستمرة للحرم. ولا أدري إلى أين انتقلت ؟

تعرفت على المكتبة الحكومية في مكة، ولعل اسمها مكتبة الملك عبد العزيز، وتقع في مقابل مستشفى أجياد ومواجهة الحرم، وتتميز بالفخامة، وتتكون من عدة أدوار، وكنت أجلس في قسم الدوريات والصحف لأتابع بعض الموضوعات، ولا أدري أيضًا هل ظلت في مكانها أو خضعت لمطلب التوسع المستمر ؟

في المدينة فسحة:

أجلنا زيارة المدينة المنورة إلى إجازة منتصف العام الدراسي؛ حيث نذهب إليها بالطائرة، وبها نعود أيضًا. وننزل في أحد الفنادق، ونقضي بضعة أيام، نستمتع فيها بالصلاة في الحرم النبوي الشريف وزيارة قبر الرسول ﷺ.

وفي المدينة فسحة لمن يريد التسوق؛ فالأسعار معقولة وتقل هناك المساومة أو تكاد تنعدم؛ لأن أهل المدينة لا يساومون، ولا يكثرون من الكلام. البائع يحدد السعر، وعلى الزبون أن يختار بين الشراء أو الانصراف. ولذا يستريح كثير من الناس إلى شراء لوازمهم من تجار المدينة.

خبر مزعج:

مع مطلع القرن الخامس عشر الهجري، نقل إلينا التلفزيون المحلي خبراً غريباً ومزعجاً؛ حيث أشار في البداية إلى وجود مجموعة مسلحة تحتجز إمام الحرم مع مجموعة كبيرة من المصلين كانوا يؤدون صلاة الفجر صبيحة اليوم الأول من المحرم 1400 هـ = 20 من نوفمبر 1979، وأن السلطات تحاول إنهاء المشكلة الطارئة. ولكن المشكلة استمرت أياماً دون حل، والأخبار تتواتر عبر الصحف والتلفزيون والإذاعة من وجهة نظر واحدة، وتذكر سقوط قتلى من المعتصمين المسلحين، بينما يقول القادمون من مكة كلاماً مختلفاً عن سقوط قتلى من قوات الأمن.

وفيما بعد عرف العالم أن 200 مسلح (مصادر أخرى تقول 500) استولوا على الكعبة، وتحصنوا داخل الحرم المكي، في محاولة وصفت بأنها لقلب نظام الحكم في المملكة العربية السعودية إبان عهد الملك خالد بن عبد العزيز. دخل شخص يدعى جهيمان مع جماعته المسجد الحرام، يحملون نعوشاً لأداء صلاة الجنازة عليها بعد صلاة الفجر، وما أن انفضّت الصلاة حتى قام جهيمان وصهره أمام المصلين في المسجد الحرام ليعلن للناس نبأ ظهور المهدي المنتظر وفراره من " أعداء الله " واعتصامه في المسجد الحرام. قدّم جهيمان صهره محمد بن عبد الله القحطاني على أنه المهدي المنتظر، ومجدد هذا الدين، وذلك في اليوم الأول من بداية القرن الهجري الجديد.

مبايعة القحطاني:

وقام جهيمان وأتباعه بمبايعة " المهدي المنتظر " محمد بن عبد الله القحطاني، وطلب من جموع المصلين مبايعته، وأوصد أبواب المسجد الحرام، ووجد المصلّون أنفسهم محاصرين داخل المسجد الحرام. يروي بعض شهود العيان أنهم - أي المسلحين - كانوا قناصة ماهرين، لدرجة أنهم يقنصون العسكر السعوديين من أعلى المنارة، وكانت أحياء مكة ترى الأدخنة بكل وضوح؛ نتيجة لتبادل إطلاق النار داخل الحرم، ويروي آخرون أن بقاءهم في المسجد الحرام استمر ثلاثة أيام أخلى جهيمان بعدها سبيلهم لمرافقتهم النساء والأطفال، وبقي عدد لا بأس به من المحتجزين داخل المسجد.

وبمساعدة الجيش تم استخدم المياه والكهرباء لشل حركة المعتصمين المسلحين.

وقد هزت العملية العالم الإسلامي برمته، فمن حيث موعدها فقد وقعت مع فجر أول يوم في القرن الهجري الجديد، ومن حيث عنفها فقد تسببت في سفك الدماء في باحة الحرم المكي، وأودت بحياة كثير من رجال الأمن السعوديين والمسلحين المتحصنين داخل الحرم. وحركت الحادثة مشاعر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .. أغلبهم شجبها واستنكرها ووقف ضدها، وهناك أقلية ممن أيّدوها وتضامنوا معها.

كان جهيمان ينطلق من مفهوم الإيمان بقدوم مجددين للدين كل مائة عام كما يؤمن أهل السنة والجماعة، استنادًا إلى الحديث الشريف الذي رواه أبو داود في سننه، أن النبي ﷺ قال: " إنّ اللهَ يَبعثُ لهذِهِ الأُمّةِ على رأْسِ كلِّ مِائةِ سنةٍ مَنْ يُجدِّدُ لها دِينَها "، وهو حديث صحيح. كما يؤمن المسلمون بقدوم المهدي المنتظر الذي ينتسب إلى آل بيت الرسول ﷺ، وأن اسمه محمد المهدي كما في إحدى الروايات؛ فالقرن الهجريّ الجديد حلّ، وصهره ورفيقه يسمّى " محمد بن عبد الله "، وكما يرى جهيمان فـ " الفساد " مستشر، و" البعد " عن الصراط المستقيم ظاهر، إذن لم يبق إلا بيت الله الحرام ليلوذ به " المهدي المنتظر "، وتتحقق البشارة !

فتوى الاقتحام:

ظل جهيمان ومن معه متحصنين داخل الحرم نحو أسبوعين، وبعد إصدار فتوى تبيح اقتحام المسجد الحرام بالأسلحة، بدأ الهجوم في العاشرة صباحًا (حسب بعض المصادر) يوم الثلاثاء 14 من المحرم 1400 هـ = الموافق 4 من ديسمبر 1979 من جانب قوات الحكومة السعودية، واستمر حتى حلول المساء؛ حيث تمكنت القوة الحكومية من الاستيلاء على المسجد وتحرير الرهائن في معركة خلفت وراءها نحو 250 قتيلا وقرابة 600 جريح، وتم إخراج الباقين أحياء.

تم أسر من تبقى على قيد الحياة، ومن بينهم جهيمان العتيبي، في حين كان محمد بن عبد الله القحطاني بين القتلى. ونُفّذ في الناجين من

الأسرى ومن بينهم جهيمان حكم الإعدام في 9 يناير 1980، بعد أن قسّموا إلى أربع مجموعات، أعدم أفرادها في ساحات أربع مدن رئيسة في البلاد.

وقد برّر جهيمان هجومه بوصفه محاولة لتصحيح الوضع الذي تسبب به آل سعود، الفاقدين للشرعية؛ بسبب فسادهم وتدميرهم لثقافة البلاد وحضارتها، ونهجهم في اتباع الغرب وموالاته. إضافة - كما يعتقد - إلى ظهور المهدي المنتظر وتمثل في صهره محمد عبد الله القحطاني، الذي طلب مبايعته خليفة للمسلمين، وإمامًا لهم.

من هو جهيمان ؟:

وجهيمان بن محمد بن سيف الضان الحايف الروقي العتيبي، مولود في غرة رجب 1355 هـ = 16 سبتمبر 1936م، وتم إعدامه مع من بقي حيا من جماعته. درس جهيمان في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وانتقل بعدها إلى الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة. وكان موظفا في الحرس الوطني السعودي لمدة ثمانية عشر عامًا، واستطاع أن يجند من زملائه في الحرس مجموعة غير قليلة من الأتباع الذين شاركوه عملية الاعتصام المسلح بالحرم. وفي المدينة المنورة، التقى جهيمان بمحمد بن عبد الله القحطاني، أحد تلامذة الشيخ عبد العزيز بن باز، فزوّجه جهيمان أخته لتبدأ بعدها عملية الحرم.

وجهيمان صهر وخال أولاد الشاعر النبطي (شعر عامية) خلف بن هذال، المقرب من الحكومة، وشاعرها المفضل في المناسبات الرسمية، وفي الوقت نفسه يحظى بشعبية كبيرة تشير إليها الأعداد الكبيرة من المواطنين الذين يترقبون إلقاء شعره النبطي.

وقد تزوج جهيمان ثلاث مرات، ولديه ثلاثة من الأبناء وبنتان.

استغلال الحادثة:

على المستوى الإقليمي استغل الخميني الزعيم الديني الإيراني العملية، وصرح بأن الولايات المتحدة الأمريكية تقف وراء هذه الحادثة؛ مما تسبب في ازدياد السخط على أمريكا، وسريان حالة من الغليان ضدها في

المنطقة. واقتحمت الجموع الغاضبة مبنى السفارة الأمريكية في العاصمة الباكستانية إسلام آباد في اليوم التالي لبدء العملية، وحطمته تمامًا، ثم أحرقته، وفى 2 ديسمبر 1979 أحرق متظاهرون ليبيون مبنى السفارة الأمريكية في العاصمة الليبية.

وفي خضم تبادل الاتهامات بين مصر والسعودية عبر وسائل الإعلام، هدد الرئيس السادات بنشر نسخ سرية من التسجيلات الصوتية التي قامت جماعة جهيمان العتيبي المتحصنة في الحرم المكي ببثها عبر مآذن الحرم.

ظروف مضطربة:

وقد جاءت عملية جهيمان في ظروف مضطربة داخل العالم العربي، فقد كان نشاط التيارات الإسلامية في أوجه، بداية بحركة الإخوان المسلمين في مصر، وبدء تشكل التيارات الإسلامية في دول عربية عديدة ومنها السعودية، وكان ذلك يشكل تهديداً للحكومات العربية المستبدة، والحكومات الغربية الاستعمارية، التي تؤثر التعامل مع الطغاة العرب التي تعرفهم جيدا، وكانت اتفاقات كامب ديفيد، التي أشارت إلى بدء الاعتراف العربي الرسمي بالكيان الصهيوني الغاصب ووجوده الطبيعي، وانتهاء عهد الحروب معه، تمثل حالة من الهزيمة الداخلية، والانبطاح أمام العدو الصهيوني، وضياع فلسطين رسميًّا، ثم كان انتصار الثورة الإسلامية في إيران الذي ولّد لدى التيارات الإسلامية إمكانية تكرار الثورة في أماكن أخرى مثلما حدث في إيران، بالإضافة إلى تخوف الحكومات العربية والعالمية في الوقت نفسه من نجاح حركات إسلامية في السيطرة على بلدان بعينها في المنطقة، ونشوء دول أو جمهوريات إسلامية خارج نطاق السيطرة الغربية؛ مع ملاحظة أن أحداث الحرم بدأت بعد ستة عشر يوما على بدء أزمة احتجاز الرهائن في السفارة الأمريكية في طهران، تلاها بعد عشرين يومًا تقريبًا الغزو السوفييتي لأفغانستان، وهو أمر فسره بعض المراقبين بأنه مرتبط بأحداث الحرم، وله علاقة ما بها.

ولادة القاعدة:

وقد أفادت السياسة السعودية والبلاد العربية من الهجوم السوفييتي على أفغانستان؛ لتفريغ طاقة التيارات الإسلامية في مواجهة عدو خارجي

بعيد، والتقت مصلحة أمريكا مع مصالح الحكومات العربية في منع السوفييت من الوصول إلى المياه الدافئة، وإشغال الشباب الإسلامي في تحرير أفغانستان من الاحتلال السوفييتي.

وتردد الحديث عن دعم الشباب المسافر إلى بيشاور في الباكستان – مركز تجمع اللاجئين وقادة المجاهدين الأفغان – من جانب بعض الحكومات العربية بتوفير تذاكر سفر مخفضة بالطائرة، والسماح للجان التطوع بالعمل وجمع المجاهدين العرب من كل مكان. وبذا تمكنت العواصم العربية من تصدير أزماتها بطريقة أو أخرى نحو أفغانستان.

رأى ياروسلاف تروفيموف صاحب كتاب (حصار مكة، الانتفاضة المنسية في أقدس الأماكن الإسلامية وولادة القاعدة)، أن الأسلوب الذي تم التعامل به مع «حركةجهيمان» هو الذي أفضى في نهاية الأمر إلى ولادة تنظيم القاعدة.

شلالات الدم:

وقد كان هناك من يرى أن الحكومة السعودية تسرعت بإنهاء المشكلة عبر شلالات الدم وإطلاق البارود، وكان يمكن حل تلك الأزمة بغير قتال، وكان الموقف يحتاج إلى بعض الوقت، وخاصة أن الموجودين في الحرم بضع عشرات، وأسلحتهم خفيفة، أكثرها بنادق صيد، وذخيرتهم قليلة وهم مُحاصَرون، ولكن السلطة رفضت الصبر والمعالجة الهادئة، ودفعت بالمجنزرات والمصفحات إلى داخل الحرم، وقصفت المآذن بمدافع الدبابات، وكان ما كان.

وعلى أية حال، فقد تركت حركة جهيمان آثارًا واضحة في الحياة العربية والإسلامية بصفة عامة، والواقع السعودي بصفة خاصة، كان من علاماته تغيير برامج التلفزيون لتكون أكثر احتشاما، وإسكات بعض الأصوات العلمانية مؤقتًا، والاهتمام بالقضايا الدينية في الخطاب الرسمي بصورة ما، ولكن أسئلة عديدة تم طرحها عقب الحوادث، وانتظر الناس الإجابة عليها، ولكنهم لم يسمعوها !

الشرق الأوسط:

انقطعت الصحف المصرية التي كنت مشتركًا فيها، ولكن الحديث تواتر عن إنشاء صحيفة سعودية في لندن اسمها " الشرق الأوسط "،

ويحررها المصريون وصحفيون من جنسيات أخرى، وقيل إنها خطة وضعها الصحفي المصري مصطفى أمين مع أصدقائه السعوديين أصحاب جريدة المدينة المنورة، والهدف منها إيصال أخبار مصر إلى المصريين في المملكة عبر الجريدة المذكورة، فضلا عن كونها ستعتمد على أقلام الكتاب المصريّين المشهورين، فكأنها جريدة مصرية في حقيقة الأمر، ثم إن الجريدة ستتخلص من الرقابة والمحظورات التي تعيشها الصحافة المحلية.

سعدت بالخبر؛ لأنني سأتابع ما يجري في بلادي أولا بأول، وظهرت الجريدة يقودها شاب مصري في الثامنة والعشرين من العمر، اسمه عماد الدين أديب كان من التلامذة الفائقين في قسم الصحافة بكلية الإعلام، وكان يدرّس له جلال الدين الحمامصي الصحفي بالأخبار وصديق مصطفى أمين.

مؤسسة شاملة:

وضح أن فكرة إصدار الصحيفة لاقت قبولا لدى جناح مهم في النظام السعودي، بدليل أن الصحيفة تطورت فيما بعد لتكون مؤسسة شاملة، تصدر مجموعة من المطبوعات، وتمارس أنشطة إعلامية أخرى، ويتولى أمرها أحد الأمراء المهمين في الدولة.

كانت الصحيفة تباع بضعف ثمن الصحيفة المحلية، ولكن الإقبال عليها كان كبيرًا، وكانت متابعتها محليًّا مرتفعة للغاية، فهي مخدومة مهنيًّا، وتظهر لأول مرة في ثوب أخضر يشكل أربع صفحات من الغلاف الأول والأخير، ثم هي بعدئذ تضم شبكة مراسلين واسعة في الداخل والخارج، وتغطي الأخبار المحلية بحرفية عالية غير مسبوقة.

لم تكن الجريدة توزع في الأحد، فكنت أشتري العدد الذي يصدر يوم الخميس الذي نذهب فيه إلى جازان. وعندما كنت أعلم أن زميلا يذهب إليها في أيام الأسبوع الأخرى كنت أكلفه بشرائها.

نشرت في الشرق الأوسط بعض المقالات الأدبية النقدية عن طريق بعض مكاتبها المحلية، وتابعت من خلالها الأزمة في مصر بعد أن اختلف السادات مع الإسلاميين بسبب كامب ديفيد، والأخبار التي كانت تنفرد بها دون الصحف المحلية.

الزائر الوحيد:

بعد أن توفرت لي المراجع الأساسية لرسالة الماجستير، أخذتُ في القراءة والكتابة. وتعرفت على المكتبة العامة في جازان، ويبدو أني كنت الزائر الوحيد؛ حيث أقضي ساعات من نهار الخميس فيها، وهو ما جعل أمين المكتبة يرحّب بي، ويتعرّف عليّ ويقدم لي الشاي طوال الفترة التي أمكث فيها بالمكتبة، ولحسن الحظ وجدت في المكتبة عدداً كبيراً من الكتب المهمة التي أفدت منها، و للإنصاف فالقوم هناك يشترون الكتب من كل مكان ويزودون المكتبات العامة والمدرسية والجامعية بكل ما يمكنهم الوصول إليه من كتب ودوريات، وكانت تقوم في هذه الفترة لجان من الجامعات ووزارت المعارف والإعلام والأوقاف وغيرها لشراء مكتبات بأكملها تركها كبار العلماء المشهورين في مصر، بالإضافة إلى شراء المخطوطات المتاحة من كل مكان في العالم، وهناك قسم للتزويد في كل مرفق ثقافي أو تعليمي، يستقبل كتب المؤلفين المحليين والعرب، ويشتري كميات لا بأس بها؛ تشجيعًا للمؤلف من ناحية، وتزويدا للجهات التابعة من ناحية أخرى، فيكون لديها نسخة على الأقل من كل كتاب.

لا أدري هل استمر هذا النظام حتى الآن، أو أنه توقف ؟ على كل حال فقد رأيت في بعض المكتبات الكبرى هناك دوريات وكتبا لم أعثر عليها في مصر.

متابعة الكتابة:

قطعت شوطا لا بأس به في كتابة الرسالة، إلى جانب متابعة الكتابة في الاعتصام والدعوة، من خلال التركيز على موضوعين مهمين يشغلان الناس في ذلك الحين؛ أولهما موضوع الصلح مع العدو النازي اليهودي، وإذعان السادات لإرادة اليهود، وتسليمه بمطالبهم التي جَرّدتْ مُبادرته من قوة الدفع، ووصلت بها إلى مجرد معاهدة لتسليم سيناء بعد سنوات شبه مجردة من السلاح، مع منح اليهود الغزاة حق الدخول إلى مصر بلا قيود، وفتح معبر طابا ليدخلوا منه دون تأشيرة تحت مسمى قضاء إجازة نهاية الأسبوع .. كل هذا مع خذلان العرب لمصر وتفككهم؛ بحثًا عن الزعامة أو سعيًا للمصالح الخاصة.

وقد ساءت العلاقات بين السادات والإسلاميين إلى درجة خطيرة، وكان في خطبه الطويلة التي ينقلها التليفزيون وتستمر ثلاث ساعات أو أربع، يركز فيها على هجاء الإسلاميين وانتقادهم، بل كان يستشهد ببعض المقالات في مجلة الدعوة، ويرفعها أمام الكاميرا وهو يخطب.

الموضوع الآخر كان الحرب الأهلية في لبنان، وكان اليهود الغزاة يقفون من ورائها، حيث حرضوا النصارى المارون على العنف، وأمدوهم بالسلاح والمعلومات ليشتبكوا مع منظمات المقاومة الفلسطينية أولا، ثم يتوسعوا في الاشتباكات ليقاتلوا المسلمين، ويفسحوا المجال فيما بعد للغزو اليهودي للبنان، حيث وصلت قوات إيريل شارون إلى قلب العاصمة اللبنانية بيروت، وعينت رئيسًا من آل الجميل المارون، لم يعمر طويلا فلقي مصرعه اغتيالا، فعينوا أخاه.

الصلح الأسود:

كانت نتيجة متابعتي لموضوع الصلح مع العدو كتابًا يقرب من خمسين ومائتي صفحة، جمعت فيه بعض ما كتبته عن المعاهدة وما يتعلق بها، وسميته " الصلح الأسود – رؤية إسلامية لمبادرة السادات والطريق إلى فلسطين "، وقسمته إلى أربعة أقسام: الأول عن المعاهدة وأبعادها، والثاني عما بعد المعاهدة والتطبيع، والثالث عن دعاوى الفكر المهزوم والطريق إلى فلسطين، والرابع يضم مجموعة من الوثائق المهمة التي تتعلق بالمعاهدة وما ترتب عليها .. وقد طبع الكتاب مرتين.

لقد أهديت الكتاب إلى كاتب مصري عاب على الكتاب المصريين سلبيتهم وعدم تأييدهم للمفاوضات بين مصر والعدو؛ لعله يعرف السبب!

ومن الطريف أن أصول هذا الكتاب ضاعت في حملة المداهمة التي شنتها قوات الأمن على دار الاعتصام ناشر الكتاب، ودور النشر الإسلامية الأخرى في أحداث سبتمبر 1981م التي انتهت باغتيال السادات في الشهر التالي أكتوبر. وشاء الله أن يتم العثور على الأصول بعد سنوات، ويخرج الكتاب إلى النور، ويكون سجلا لفترة عصيبة مرت بالأمة، وأنماط من التفكير شهدتها الساحة السياسية على الجانبين اليهودي والإسلامي، ويكون بعد ذلك عبرة للأجيال القادمة التي ستتولى مسئولية الصراع مع اليهود الغزاة.

أكدت أن صراعنا مع العدو النازي اليهودي لن يتوقف بقصاصة ورق يوقع عليها أطراف من هنا أو هناك، ولكنه يتوقف عندما تقوم الإرادة الإسلامية الظافرة باستعادة المقدسات والحقوق، ويتم تطهير أرض الإسلام من القتلة والأشرار، والله غالب على أمره.

مكتب الوزير:

في أثناء نشر موضوعات الكتاب في المجلات عقب مبادرة السادات، أذكر أنني كنت في القسم الأدبي بجريدة الأهرام لأمر ما، فإذا بصديق ينتحي بي جانبا، ويقول لي: إن مكتب وزير الداخلية اتصل بنا وسأل عنك وعن عنوانك ومحل إقامتك، وهل الاسم الذي يكتب في الأهرام هو الذي يكتب في الدعوة والاعتصام .. وأضاف الصديق بأن إجابتهم كانت أنهم لا يعرفون عني أكثر من أنني أرسل إليهم المقالات الأدبية لنشرها. أما عدا ذلك فلا معلومات لديهم. وكانت هذه بداية الملاحقة !

الحرب الصليبية:

أما الموضوع الآخر الخاص بلبنان فقد أثمر كتابًا بعنوان " الحرب الصليبية العاشرة "، ضمنته معظم ما كتبته حول الحرب الأهلية اللبنانية وملابساتها، وأوضحت طبيعة المخطط اليهودي الصليبي الماركسي، الذي يهدف إلى تمزيق المنطقة العربية، وتركيع الدول الإسلامية، وقبول الكيان الصهيوني الغاصب، وإنشاء دويلات على أساس طائفي أو عرقي أو عنصري .. وأشرت إلى المخططات التي تدور في أروقة الغرب، وخاصة واشنطن بهذا الخصوص.

كان الكتاب في نحو عشر ملازم، وصل إلى 166 صفحة، ولكنه كان مزعجًا بالنسبة للدوائر التي تشارك في المخططات الإجرامية من الصحف والإعلاميين، فأهملته ولم تتكلم عنه، لدرجة أن صديقا احتال لينشر عنه خبرًا صغيرًا في الأهرام، فوصف الكتاب بأنه فصول من الأدب الديني !، ومع ذلك فقد حقق الكتاب توزيعًا كبيرًا في حينه، ونجح بفضل الله.

***

3- صحافة واغتيال

الصحافة المهاجرة:

في العام الثاني للإعارة إلى جازان، مرضت زوجتي وكانت حاملا بولدنا الأول (محمد). أصيبت بالملاريا، وتأزم الأمر حين أبدى المسئولون في الوحدة الصحية بالأحد عدم قدرتهم على اتخاذ موقف، والحمل يمنعهم من تقديم العلاج، وكان علينا أن نتجه إلى جيزان. وفي المستشفى الرئيس دخلت المريضة إلى القسم الداخلي، وعولجت بعقار الريزوكين الذي لوّن جسم الطفل عند ولادته بلون أصفر غامق، ظل فترة غير قصيرة حتى زال أثره بعد عام أو أكثر. حمدت الله أن أنقذ المريضة التي خرجت من المستشفى سليمة بعد أيام قليلة.

كنا نتهيأ للعودة إلى الوطن لقضاء إجازة الصيف، وبعدهاعدت وحدي إلى جازان، وسكنت مع زملاء يعملون خارج مدرستي، وكانت تجربة جديدة بعد تجربة التجنيد، كشفت عن معادن مختلفة، ولكني انصرفت إلى متابعة الكتابة في الماجستير، وأوشكت على إنهائها في النصف الأول من العام الدراسي، وتكررت محاولة مدير المدرسة المتوسطة / الثانوية لأنتقل إليها، ولكن مدير المدرسة الابتدائية ساعدني في البقاء وعدم النقل، وهو ما أتاح لي الفرصة للقراءة والكتابة ومراسلة الصحف والمجلات لنشر موضوعاتي، وكانت مجلة الدعوة السعودية تحظى مني بمقال شبه أسبوعي، وقد أفدت من ذلك في نشر كتابي الصحافة المهاجرة مسلسلا، ثم نشره في غلاف بعد ذلك.

الشرق الأوسط:

كان الصحفيون اللبنانيون عقب اشتعال الحرب الأهلية اللبنانية يعانون في إصدار صحفهم ومجلاتهم، وتوقف كثير منهم عن العمل بسبب توقف إصداراتهم، ففكر بعضهم مع بعض العرب في تكرار التجارب العربية السابقة - أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين – في نشر دورياتهم من إستانبول (الأستانة) ولندن وباريس وسويسرا، وكانت المحطة

الأولى في لندن؛ حيث صدرت جريدة " الشرق الأوسط " بمعرفة أصحاب جريدة المدينة السعودية، ونشأت عنها مؤسسة توسعت في إصدار مجلات سياسية وإسلامية ونسائية، إلى جانب نشاطات أخرى تتعلق بالإعلام. وأنشأ اللبنانيون في باريس ولندن مجلات أخرى مثل المستقبل، والوطن العربي والحوادث، وتتابعت الإصدارات من قبرص وإيطاليا وألمانيا. .. ولفتت الظاهرة انتباهي؛ بحكم بحثي عما يخص الشئون المصرية في هذه الصحافة، وكان من الملاحظ أنها تتوسع في الاهتمام بالشأن المصري؛ من أجل زيادة التوزيع في الخليج الذي قاطعت حكوماته مصر، ومنعت دخول الصحف المصرية.

ثم إن الأحوال في مصر كانت تشتعل بسبب الاتفاق مع العدو الصهيوني، وبدأ الاشتباك بين السادات والقوى السياسية المصرية جميعا، عدا حزبه الذي يرأسه، ويمثل الحزب الرئيس في البلاد، وشهد عام 1980 أزمات تموينية خانقة، وارتفاع في الأسعار غير مسبوق، واضطر لحظر ذبح اللحوم طوال شهر سبتمبر، وهو الشهر الذي ولد فيه نجلي الأكبر (محمد)، وكنا نسمّيه شهر اللحمة.

علاقة أبوية:

كان الأخطر بعد ذلك هو شدة الصراع الإعلامي بين الدول العربية، وخاصة الخليج ومصر، وهو ما كان يدفع السادات إلى مخاطبة الناس في فترات متقاربة، ويستمر في خطبه فترات طويلة، ربما تصل الخطبة إلى أربع ساعات في مجلس الشعب أو الحزب أو في مناسبات أخرى، وكان يكيل في خطبه الصاع صاعين لمن يهاجمونه في بغداد أو دمشق أو الرياض أو عمان أو غيرها، وكان يتناول الحكام بالاسم، وكنت أرى انعكاس ذلك على وجوه الزملاء من أهل البلد، حيث تمثل العلاقة مع الحاكم علاقة أبوية، وكانوا يرون السجال موجهًا إليهم، وليس للحاكم وحده؛ مما كان يجعل الأمور في العمل محكومة بالتربص أحيانًا، وبالبرودة في كل الأحوال.

أخذت الحكومات الخليجية والعراق وليبيا تفيد من ظاهرة الصحافة المهاجرة، ومن لم ينشئ صحيفة من قبل استدرك وأنشأ صحيفة أو أكثر، واستعانت العواصم العربية بالصحفيين المصريين اليساريين والناصريين، وكانوا تحت الطلب في ذلك الوقت؛ بسبب تضييق السادات عليهم، وانتزاع

القيادة الإعلامية منهم إلى حد ما، فشدّوا الرحال إلى العواصم الأوربية، ونعموا أو أتخموا بأموال النفط، الذي كانوا لا يكفون عن هجائه في عهد جمال عبد الناصر، ويصمون أهله بالرجعية والجهل والتخلف، ومن لم يتولّ منهم إدارة صحيفة أو مجلة كان كاتبا أو محررا كبيرا فيها، ومن المفارقات أنهم كانوا يسمّون أنفسهم الطيور المهاجرة ! ويزعمون أن السادات هوالذي طردهم ونفاهم إلى الخارج، مع أنهم - في حقيقة الأمر - كانوا يسافرون بمعرفة الأجهزة الأمنية.

الظاهرة المتفق عليها:

وجدتُ في هذه الصحف ظواهر عديدة شدتني للكتابة عنها، وكانت الظاهرة شبه المتفق عليها فوق صفحاتها هي تشويه الإسلام، وشن الحملات عليه في صور شتى، بالإضافة إلى التعبير عن الدولة المموّلة، وهو ما وضح من خلال اهتمام الصحيفة بمن يمدّها بالمال النفطي، ولذا كانت تعرف الصحيفة بولائها لهذه العاصمة أو تلك، أو هذا الحاكم أو ذاك من خلال الإلحاح على دولة معينة أو حاكم معين.

أذكر أن إحدى المجلات كانت تعبر عن صدام حسين، وكانت دول الخليج كلها آنئذ تفتح صدرها له، وعندما غزا الكويت في أغسطس 1990م، وقع صاحب المجلة في حيص بيص: هل يواصل تأييد صدام أو يغيّر الموجة ؟

ولم يجد مفرًّا إلا أن يصدر بعض أعداد المجلة وفيها موضوعات باهتة بعيدة عما يجري في الخليج، وبعد أن رأى الاتجاه العام إقليميًّا ودوليًّا ضد صدام، غيّر الموجة، وانتقل إلى المعسكر الآخر، الذي قام بالواجب تجاهه وموّله خير تمويل، وجاء الاحتلال الأمريكي الذي أسقط " صدام " لينهي علاقة صاحب المجلة بصدام تماما !

حملة ضارية:

نشرت دار الاعتصام كتاب الصحافة المهاجرة، فقوبل بحملة ضارية من بعض المجلات التي تصدر في باريس، وحاول محرروها أن يتنصلوا من تهمة العمل لحساب الأنظمة العربية، ولكن دفاعهم كان متهافتًا، وغير مقنع.

الذي آلمني في موضوع الكتاب أن شخصًا انتحل الفكرة، وأفاد من معلومات الكتاب، وأصدر كتابًا باسم " الصحافة العربية المهاجرة "، ودرسه للطلاب في كلية الإعلام بإحدى الجامعات .. وعندما وجدت إحدى الصحف اليومية المصرية تفرد له صفحة كاملة في عددها الأسبوعي، وصفحة أخرى نشرتها في الأسبوع التالي، بعثت إلى المسئول عن التحرير في الجريدة بنسخة من الكتاب وشرحت له عملية الانتحال، وذكرت له أنه لم يشر – على الأقل كما تقضي تقاليد البحث العلمي – إلى كتابي؛ بوصفه من الدراسات السابقة على كتابه.

وفوجئت بالمحرر الذي احتفى بكتاب المنتحل وخصص له صفحتين لعرضه، يشير إلى كتابي في عرض موجز يغطي نحو عمود في صفحة مكتفيًا بالقول: إننا عرضنا كتابك وكتاب الآخر والحكم للقارئ، ولسنا طرفا في الموضوع ونغلق الكلام فيه !

التحكم في الإعلام:

حزنت ! ووجدت أن لا جدوى من التعامل مع شيوعي هو المحرر، يتضامن مع رفيق له هو المنتحل؛ ليطمس الحقيقة، ويغطي على فعل كريه، يتقنه الشيوعيون واليساريون عادة، مع أنه يعلم أن قدرتي على المواجهة في صحف السلطة محدودة؛ بحكم سيطرتهم شبه التامة عليها.

ساعتها عرفت لماذا يتمسك الشيوعيون واليساريون – على اختلاف أحزابهم وجماعاتهم – بالتحكم في الإعلام المكتوب والمسموع والمرئي، وفي سبيل ذلك يبيعون المبادئ والأخلاق ليكونوا خداما للاستبداد الذي يمكنهم من مخاطبة الرأي العام والتحكم في توجيهه الوجهة التي يريدون !

بعد نفاد الطبعة الأولى من كتابي " الصحافة المهاجرة "، أعددت الطبعة الثانية، وأضفت إليها بعض القضايا المهمة، وأشرت فيها إلى قصة الانتحال، وموقف الجريدة اليومية منه. وبقي الكتاب متداولا في الجامعات العربية حتى نفد، وكنت أنوي إعادة طبعه بعد ذلك، ولكن تراجع الظاهرة، وإغلاق كثير من الصحف والمجلات، وعودة بعضها للصدور من

القاهرة وبيروت، جعلني أهمل الأمر، وإن كان الكتاب مطلوبا لتقرأ الأجيال الجديدة عن ظاهرة إعلامية قامت بدور ما في زمنها.

توتر أمني:

كان شاغلي في السنة الثالثة للإعارة هو إنجاز الماجستير، وبالفعل وفقني الله لإتمام الرسالة قبيل أحداث سبتمبر 1981م بشهور، وأردت إرسالها إلى القاهرة ليطبعها شقيقي. كانت الأمور في مصر تتحرك من خلال توتر أمني ملحوظ أشعله وزير الداخلية آنئذ النبوي إسماعيل، وصارت الحركة في المطار محكومة بتعقيدات غير مسبوقة. حمل الرسالة أستاذ جامعي صديق يعمل بجامعة الملك عبد العزيز في جدة، واستأذنني أن يحملها في ظرف مفتوح حتى إذا تعرض للتفتيش في المطار يراها المفتش مجموعة من الأوراق فلا ينزعج!

بدأ العمل في طبع الرسالة، وكان المشرف الدكتور علي عشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ نبيلا في سلوكه مع شقيقي؛ حيث كان يوجهه في ترتيب الصفحات، والتعامل مع الإدارة في الجامعة والكلية لتحديد موعد المناقشة، وكنت أعتزم السفر إلى مصر في أكتوبر لإجرائها، ولكن جاءت الرياح بما لا يسرّ، ففي أثناء أداء مناسك الحج مع زملاء مصريين، سمعنا خبر اغتيال السادات!

صدمة في العالم:

الاغتيال شكّل صدمة ليس في مصر وحدها، ولكن في العالم كله، فمصر مهما كانت ضعيفة إلا أنها رمانة ميزان العالم فيما يبدو لي. كان الخبر صاعقا .. رئيس أكبر دولة عربية يلقى مصرعه يوم عيده السنوي والاحتفال بالعبور العظيم، وفي مكان مدجج بالحراسات والمخابرات وأجهزة الأمن الظاهرة والخفية. كيف ذلك؟

في شهر سبتمبر أي قبل اغتيال السادات بنحو شهر، قام باعتقال أكثر من ستمائة وألف شخصية سياسية؛ إسلامية وعلمانية ونصرانية، عدا آلاف من شباب الحركة الإسلامية، بالإضافة إلى تحديد إقامة رئيس الكنيسة المتمرد الأنبا شنودة، وتشكيل مجلس خماسي لإدارة الكاتدرائية وشئون النصارى الدينية.

عرفت بعض تفاصيل عمليات الاعتقال من رجال أمن كانوا يؤدون فريضة الحج، وفهمت أنها تمت في الثالثة بعد منتصف الليل في جميع أرجاء مصر، وأن الذي نصح بالاعتقالات بعض المسئولين الأمنيّين من رجال التنظيم الطليعي الذي أسّسه عبد الناصر؛ ليورّطوا السادات في صراع مع كل المصريين باستثناء المنافقين ورجال كل العصور.

أزعجني أن يكون من بين المعتقلين عدد كبير ممن أعرف، وخاصة في الحركة الإسلامية. كان هناك الأستاذ عمر التلمساني مرشد الإخوان، وحسن عاشور مدير الاعتصام، وجابر رزق مدير مجلة الدعوة المصرية، والشيخ حافظ سلامة قائد المقاومة الشعبية في السويس، وآخرون.

التحفظ:

أحدث الاغتيال صدمة عنيفة في المجتمع المصري؛ خاصة وأنه أعقب الاعتقال الذي سمي " التحفظ "، وكانت الذريعة المعلنة أن التحفظ سيستمر حتى يتم الانسحاب الصهيوني من بقية سيناء وفقا لاتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة الصلح.

فوجئت في منى بمجموعة من الفلسطينيين يوجهون حديثهم إلينا ويقولون: مبروك يا شباب ! الخائن مات ! (يقصدون السادات).

تحرك الغضب في الصدور، وللابتعاد عن الجدال والصخب، قلت لهم: حجّوا يا شباب .. حجّوا يا شباب ! ولاحظوا ما على الوجوه من رفض لسلوكهم، فانصرفوا !

كان الاغتيال وما أعقبه من إجراءات صارمة لا يبشر بخير .. وفكرت في أحوال البلد وما سيجري في المستقبل الغامض، وأصبت بحزن شديد !

على كل حال، تجاوزت مصر المحنة، وتم تنصيب نائب الرئيس رئيسا بعد استفتاء عام، وكان الناس جميعًا يتوقون إلى الاستقرار، خاصة وأن الاغتيال صحبه عنف مسلح في الصعيد، وقلاقل في بعض الأماكن، ولكن الأمور هدأت بعد الاغتيال ووجود رئيس جديد، وأخذت أفكر في السفر إلى مصر، ولكن المشرف أرسل إليّ بألا أغامر، خاصة وأنني من المطلوبين بدرجة ما (مطلوب لاحق – وفقاً للغة الأمن)، وطلب الانتظار حتى يخبرني بالوقت الملائم. وانتظرت حتى اقترب موعد إجازة نصف العام، فوصلني منه ما يفيد أن المناقشة ستكون – بمشيئة الله – في نصف العام الدراسي، وحصلت على

إجازة خمسة أيام، سافرت فيها إلى القاهرة، وناقشت الرسالة، وعدت حاملا للماجستير بفضل الله.

المناقشة:

ساعدني الزملاء في الكلية في الإعداد للمناقشة، وقد صاروا أساتذة فيما بعد: حسن طبل، ومحمد الحفناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعبد المطلب زيد. صحبت شقيقي، وحضرت أسرة الاعتصام، والأستاذ أنور الجندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبعض الأقارب، إلى دار العلوم، وتدفق الطلاب مع بدء المناقشة.

كان الدكتور علي عشري مشرفًا، ومعه عضوان آخران؛ أحدهما من الكلية والآخر من كلية الآداب. مضت المناقشة في البداية هادئة، ولكن العضو القادم من الآداب أراد أن يشعلها ويجعلها غير هادئة، وكانت هناك نصيحة بأن أكون هادئًا مهما كان العنف والحدة في التناول. عملت بالنصيحة، ولكن آلمني أن يشير العضو القادم من الآداب إلى مرجع اعتمدت عليه للأستاذ أنور الجندي إشارة جارحة؛ مما جعل الرجل بعدها ينسحب بهدوء، والتفت إلى المقاعد فلم أجده، وظننت أن موعد النوم – وكان ينام مبكرا – كان من وراء انسحابه. فهمت أن الرجل أدرك الإشارة الجارحة، خاصة أنه سمع المناقش يذكر اسم كتابه. اعتذرت للأستاذ أنور فيما بعد حين التقينا، فأبدى تسامحه، وقال إن القوم يدفعهم انحيازهم الفكري إلى عدم المناقشة الموضوعية، وطلب مني عدم الاهتمام بالموضوع.

المناخ الإقصائي:

وقد عانيت – فيما بعد – من هذا الانحياز المدمر كثيرًا، مما سآتي على ذكر بعضه – إن شاء الله. ولكنها ضريبة لابد أن يدفعها من يعلن عن انتمائه الإسلامي،أو تمسكه بالتصور الإسلامي. ولست آسفًا على الانتماء أو التصور بحال، فهو فطرة الله التي فطر الناس عليها.

إن المناخ الإقصائي أو الاستئصالي الذي ساد مصر عقب انقلاب 1952، جعل الفكرة الإسلامية بمفهومها المتكامل مصدر إزعاج لصاحبها ولمن حوله، خاصة في ظل نظام بوليسي قمعي استبدادي، يتسامح مع كل الملل والنحل إلا الإسلام، الذي نص عليه الدستور بوصفه دين الدولة !

عدت إلى جيزان، وقد حملت معي نسخًا كثيرة من ملخص الرسالة وبعثت بها إلى الصحف والمجلات في مصر والسعودية، وقد اهتمت بنشر الملخص كاملا في معظم الحالات، وقد أسعدني النشر الذي نبه المتخصصين إلى أهمية الموضوع الذي درسته، وأكد لبعض الزملاء في المدرسة أنني أحمل مؤهلا عاليا، ودرجة الماجستير. ظهرت الرسالة بعد عامين تقريبًا في كتاب بعنوان " مدرسة البيان في النثر الحديث "، وطبع مرتين داخل مصر وخارجها، ولقي إقبالا ملحوظا؛ حيث نفدت النسخ المطبوعة بعد سنوات قليلة، وكنت قد أعددته للطبع لدى ناشر في الرياض، ولكن أمورا خاصة بالعمل صرفته عن التنفيذ، ولعل الفرصة تتاح مستقبلا لنشره مرة ثالثة.

الشاعر السنوسي:

وكنت في تلك الفترة قد تعرفت على الأديب محمد بن علي السنوسي (1924- 1987) رئيس النادي الأدبي بجازان، وهو شاعر جيد، كتبت عنه دون تردد، وقد صدرت له مجموعة من الدواوين، هي: القلائد .. الأغاريد .. الأزاهير .. الينابيع .. نفحات الجنوب .. وقد جمعت في مجلد واحد بعنوان: الأعمال الشعرية الكاملة، صدر عن نادي جازان.

وقد كان محبًّا لمصر، وعلى علاقة وثيقة بكثير من أدبائها الكبار، ولم تتوقف أسفاره إلى القاهرة والمدن المصرية إلا برحيله إلى الرفيق الأعلى.

طلب مني ذات مساء أن أعد محاضرة لإلقائها في النادي ضمن الموسم الثقافي السنوي للنادي، وقد اخترت قصيدة مجهولة لعلي أحمد باكثير بعنوان " نظام البردة "، نبهني إليها الدكتور عبده بدوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكانت ضمن أوراق باكثير التي خلفها بعد رحيله، وذهب شقيقي مع زميل له إلى بيت باكثير في المنيل، والتقيا بأحد أقاربه حيث نسخا القصيدة الطويلة .. درستها وأعددت بحثًا طويلا عنها .. كان موضوع المحاضرة، وكان هذا البحث بداية لإعداد كتاب ضخم يضم القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث، وقد كشفت عن بعضها المجهول، ونشرته، مع الدراسة النقدية.

المحاضرة كانت موضع تقدير ممن حضروا لسماعها، وعقب إلقائها جاء إليّ كثير من أدباء جازان وتعرفت عليهم، وظلت علاقتي ببعضهم

قائمة حتى اليوم، ومنهم أحمد بهكلي، والشيخ حجاب الحازمي وآخرون، حيث نمت بيننا مودة واتصالات مستمرة.

كان السنوسي - يرحمه الله - نشيطًا وذكيًّا، فصار النادي في عهده شعلة من الحركة والحيوية، وشجع الشباب هناك على التأليف وتنمية مواهبهم، وطبع سلسلة ممتدة من الكتب للفائقين منهم، وأظنها ما زالت تطبع حتى الآن. وقد أصبح هؤلاء الشباب اليوم - ومنهم الدكتور حسن الحازمي ابن صديقي الشيخ حجاب - من أعلام الثقافة في جازان، يقودون النشاط الثقافي الذي يضارع نشاط العاصمة.

المنطقة الشرقية:

ولعلي هنا أتذكر أول زيارة لي إلى المنطقة الشرقية بالمملكة .. فقد زرت منطقة الخفجي، التي تقع على الحدود مع دولة الكويت، وكانت تسمى بالمنطقة المحايدة، واستضافني هناك صديقي حسن المطرودي - رئيس تحرير مجلة الخفجي تصدرها شركة استخراج البترول، وتحمل اسم المنطقة، وهي أقرب للأدب والثقافة العامة، بالإضافة إلى بعض الموضوعات العلمية، وخاصة ما يتعلق بالبترول واستخراجه، وقد نشرت فيها كثيرا من الموضوعات، وانقطعت عن النشر منذ عشرين عامًا أو يزيد، وكان بلوغ رئيس التحرير سن المعاش وتركه للمنطقة وعودته إلى مسقط رأسه، من وراء توقفي عن الكتابة للخفجي، فقد تغير طاقم التحرير، كما تغير الاتجاه التحريري.

تعلم حسن المطرودي في دار العلوم بالقاهرة، وسكن في المعادي، وأحب مصر إلى درجة أنه كان ضمن تشكيلات الاتحاد الاشتراكي، وكانت المشاركة متاحة آنئذ للعرب؛ انطلاقًا من حديث الزعيم الملهم عن الوحدة العربية والقومية العربية، وظل المطرودي دائم التردد على القاهرة إلى فترة التسعينيات، وصدمه توقيف الأمن في مطار القاهرة لسبب لا يعلمه، فأثر ذلك في نفسه تأثيرًا كبيرًا، وعزم على ألا يعود إلى مصر، وكان يعدها بلده وموطنه، ولا أدري هل خالف قراره هذا أو صمم عليه، فقد لزم الصمت منذ ذلك الحين، ولم أعد أعلم عنه شيئًا، وإن كان أحد الأصدقاء طمأنني عليه.

تصريحات خاصة:

في الخفجي مدينة جديدة أقامتها شركة البترول على ضفاف الخليج للعاملين بها، وهي على مسافة قريبة من البلدة القديمة، ويعمل الموظفون والفنيون في المياه حيث البترول، ويعودون إلى مساكنهم في المدينة من خلال العبارات، وهي مكونة من مساكن ذات تصميم جيد يشبه الفيلات، ويحقق راحة ملحوظة للسكان، وهناك مطعم ضخم يتناول فيه العزاب والضيوف طعامهم.

قضيت يومين في الخفجي، وصحبني المطرودي في جولة بسيارته إلى مشارف الكويت، وعرفت أنهم يومئذ كانوا يطبعون المجلة هناك، وسألته عن كيفية الدخول والخروج، فعلمت منه أنهم وأهل المنطقة يحملون تصريحات خاصة لتسهيل دخول الكويت والخروج منها.

وقد زرت الخفجي مرة ثانية في منتصف التسعينيات من القرن الماضي برفقة الحاج حسن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واستضافنا المطرودي في بيته، وأذكر أنني ذهبت إلى مستشفى الشركة من أجل الفحص، والتقيت زميلا من طب الزقازيق نسيت اسمه، كان أول من نبهني لضرورة إجراء عملية جراحية، وبالفعل نفذت الأمر عقب عودتي إلى مصر مباشرة.

التدين الشكلي:

في هذه الفترة – أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات – أخذ الإعلام المصري – بوحي من السلطة – يثير قضايا التطرف الديني والتشدّد، ويبالغ مبالغات ممجوجة، وكنت أول من أشار في " الاعتصام " إلى التدين الشكلي، والاهتمام بالهوامش دون المتن، لدى بعض الجماعات الإسلامية، ولما رأيت إعلام السلطة يعالج الأمر بأقلام الشيوعيين واليساريين والليبراليين، فضلا عن المرتزقة، ورجال كل العصور – كففت عن تناول الموضوع؛ لأن كتّاب السلطة، لم يهدفوا إلى الإصلاح، بقدر ما كانوا يسعون إلى التشهير بالإسلام، وكأنهم يقولون للناس: تخلّوا عن الإسلام حتى تكونوا مواطنين صالحين، ولعبت جريدة " الأهالي " – لسان حزب التجمع "توتو " – دورًا بارزًا في هذا السياق، حيث كانت قيادته الشيوعية ترى في الإسلام عدوّها اللدود الذي يجب سحقه؛ حتى يخلو لها الجو، فهي بلا قواعد شعبية، ولا أنصار

على الأرض، وترى أن الإسلام يحرمها من الظهير الشعبي القوي، فكان من الطبيعي - من وجهة نظرها - أن تستغل فرصة الهجاء الذي توجهه السلطة إلى الحركة الإسلامية، وتؤلب الرأي العام ضدها، وتشارك في حفلة التشهير بالإسلام والمسلمين جميعا.

حزب توتو:

وكان حزب توتو (اختصار: التجمع الوطني التقدمي الوحدوي) من خلال قيادته الشيوعية آنئذ، قد صادم الرأي العام في مصر حين دافع عن الغزو الشيوعي الذي قام به الاتحاد السوفييتي لأفغانستان، وتولت صحيفة " الأهالي " الدفاع عن الجرائم الوحشية التي يقترفها السوفييت هناك؛ من قتْل للأفغان، واستخدام الغازات السامة المحرمة، أو ما أطلق عليه المطر الأصفر في عمليات القتل، وقد وصفت الجريدة المجاهدين الأفغان بالعصابات وقطاع الطرق، وأكثرتْ من مديح الحكومات الشيوعية التي تعاقبت على حكم كابول سواء من حزب خلق (الشعب) أوالبرشام (الراية)، وكلاهما شيوعي يرفض الإسلام وولاؤه لموسكو، ولكن الصراع بينهما كان شديدا لدرجة أنهم قتلوا الحاكم الشيوعي الأول نور الدين طرقي بكتم أنفاسه، وتولى بعده شيوعي آخر اسمه حفيظ الله أمين، قتله الشيوعيون السوفييت، ثم جاء ثالث اسمه بابراك كارميل، وكان يعيش بلا زواج رسمي مع امرأة شيوعية اسمها أناهيدة، عينها وزيرة في حكومته، وتمت تنحيته، وجاء رابع اسمه محمد نجيب الله شنقته طالبان عام 1996م بعد أربع سنوات على إسقاطه.

الحاج خالد:

كان موقف " الاعتصام " هو التعبير عن السخط على موقف " توتو " من أفغانستان، وقد شاركت بالعديد من المقالات دفاعًا عن الشعب الأفغاني المسلم، ضمنت بعضها كتابي " العودة إلى الينابيع "، وقد تلقت المجلة ردًّا من خالد محيي الدين - رئيس حزب التجمع " توتو " — وكان عضوا في مجلس قيادة الانقلاب العسكري عام 1952، وحاول في رده أن يخفّف من غلواء جريدة حزبه، ويبرر أسلوبهم النشاز، ويعاتب المجلة على استخدام لقب

الحاج خالد الماركسي، الذي كان عنوانا لبعض المقالات الغاضبة من موقف الأهالي !

كان خالد مهذبًا بصفة عامة، ولكن الشيوعيين الذين يسيطرون على تحرير الجريدة، كانوا لا يخافتون بولائهم للشيوعية العالمية وتأييد الاتحاد السوفييتي، ومع ذلك نشرت الاعتصام رد خالد محيي الدين. وظلت تدافع عن أفغانستان حتى تم انسحاب قوات الاحتلال وهزيمة الشيوعيين الأفغان.

لوحظ أن السلطات المصرية - في ذلك الحين - سمحت بنوع من الدعم للمجاهدين الأفغان، وسافرت أعداد كبيرة بموافقة هذه السلطات إلى أفغانستان وبيشاور في باكستان؛ لدعم اللاجئين الأفغان، ومساعدتهم في مجالات الإغاثة والعلاج وغيرها ، وهؤلاء شكلوا - بعد عودتهم من أفغانستان - مشكلة كبيرة؛ إذ عدّتهم السلطات قنابل موقوتة تهزّ الاستقرار الداخلي، وقُدّم بعضهم إلى المحاكمات تحت ذرائع مختلفة.

علماء السلطة:

استمرت التوترات في آخر عهد السادات مع الحركة الإسلامية، وتنافس علماء السلطة وفقهاء الشرطة في التقرّب إلى الحكومة على حساب الحركة الإسلامية. وأذكر أن أحدهم - كان عميدا لإحدى الكليات الأزهرية - وقف أمام السادات في إحدى المناسبات يتباكى مخاطبا الرئيس لحمايته من بعض الجماعات الإسلامية التي ادّعى أنها هددته بالقتل .. وبعدها عيّن الشيخ مفتيا للديار المصرية !

وكنت في كتاباتي بالاعتصام أتناول هؤلاء المنافقين، وأشير إلى دورهم في التحريض على الإسلام وإهدار شريعته، بفتاواهم التي تعتمد على الآراء المرجوحة غالبًا، أو تبدو نوعًا من النفاق الفج للحكام؛ من أجل تحقيق منافع دنيوية رخيصة. وفي الوقت نفسه، كنت أقدم نماذج للفقهاء أو العلماء الذين لا يخافون في الله لومة لائم، من أمثال سعيد بن جبير، وأبي حنيفة، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، وعز الدين بن عبد السلام، وغيرهم من القدماء والمعاصرين.

الشاه الهارب:

وفي تلك الفترة أشعلت إيران ثورتها، التي أسقطت إمبراطورية الشاه، وإعلان الجمهورية الإسلامية، ولم يقبل الغرب باستضافة الشاه الهارب من الثوار، وتجولت طائرته في عواصم عديدة، وأخيرا حطت في القاهرة؛ حيث دفن ومات بها، وهو ما أغضب الإيرانيين، وجعلهم يشمتون بمصرع السادات، ويطلقون اسم قاتله على شارع من أكبر شوارع طهران، وهو ما مثّل مشكلة، منعت إعادة العلاقات الدبلوماسية بين مصر وإيران حتى كتابة هذه السطور.

الطائرة السعودية:

وفي ظل انشغال الغرب بالثورة الإيرانية، وقع حادث محلي لإحدى الطائرات السعودية التابعة للخطوط الجوية؛ حيث أقلعت في 19 أغسطس 1980 طائرة من الخطوط الجوية العربية السعودية في الرحلة رقم 163 طراز لوكهيد إلـ1011 تراي ستار من مطار الرياض القديم بالعاصمة السعودية الرياض، متوجهة إلى مطار جدة الدولي القديم في جدة، وبعد إقلاعها بدقائق أبلغ قائدها " محمد عبد العزيز الخويطر " برج المراقبة بالرياض بوجودٍ حريق في مخزن الأمتعة بالطائرة، وطلب العودة للمطار مرة أخرى حفاظًا على سلامة الركاب، وبالفعل هبطت الطائرة بسلام على مدرج المطار، إلا أنه لم يتم إخلاء الركاب ولم يتم التعامل مع المشكلة بالشكل السليم، وهذا ما أدى إلى انتشار النيران بشكل سريع جدًّا في بدن الطائرة، ونتج عن ذلك مقتل جميع الأشخاص الذين كانوا على متنها وعددهم 301 شخصًا.

وإذ أكتب من بعض القصاصات، فإن الذي أذكره أن هذا الحادث كان له دوي مزلزل على المستوى الشعبي، لا يقل عن حادث اقتحام جهيمان العتيبي للكعبة مع جماعته، وانتشر الحديث عن جنسية الركاب الذين لقوا حتفهم، من إيرانيين وباكستانيين وكوريين وبريطانيين وتايلانديين، بيد أن أغلبهم كانوا من السعوديين، بالإضافة إلى طاقم الطائرة.

حرب الخليج:

وظل الحدث الأبرز الذي استمر نحو ثماني سنوات؛ كان حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران، واحتلال كل طرف أراضٍ من الطرف الآخر، فقد استمرت الحرب من 22 سبتمبر 1980 إلى 20 أغسطس 1988، حيث قبل الطرفان وقف إطلاق النار، بناء على قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم 598، بعد أن بلغت الخسائر البشرية والمادية حداً مهولا؛ فقد خسرت العراق 340,000 قتيل، 700,000 جريح 400,000 لاجئ، 70,000 أسير، وخسرت إيران 730,000 قتيل، 1,200,000 جريح 2,000,000 لاجئ،45,000 أسير ! عدا ملايين الأرامل واليتامى، ومئات الألوف من الأسلحة والوسائط القتالية والذخائر والمنشآت والمؤسسات والمباني التي تم تدميرها هنا وهناك.

أطلق العراق على الحرب اسم قادسية صدام، بينما عرفت في إيران باسم الدفاع المقدس (بالفارسية: دفاع مقدس)، وتكلفت هذه الحرب نحو 400 مليار دولار أمريكي، وكانت أطول صراع عسكري في القرن العشرين، وأكثر الصراعات العسكرية دموية، وأثرت على المعادلات السياسية في منطقة الشرق الأوسط، وأدت إلى ما عرف بحربي الخليج الثانية والثالثة.

شط العرب:

ويعود السبب المباشر للحرب إلى قضية شط العرب؛ إذ تأزمت العلاقات السياسية بين العراق وإيران بعد قيام الثورة الإسلامية الإيرانية عام 1979؛ حيث تبادل البلدان سحب السفراء في مارس 1980، وخفض مستوى التمثيل الدبلوماسي، وفي 4 سبتمبر 1980 اتهم العراق الإيرانيين بقصف البلدات الحدودية العراقية، واعتبر العراق ذلك بداية للحرب، فقام الرئيس العراقي صدام حسين بإلغاء اتفاقية الجزائر لعام 1975 مع إيران في 17 سبتمبر 1980، واعتبار مياه شط العرب كاملة جزءاً من المياه الإقليمية العراقية، وفي 22 سبتمبر 1980 هاجم العراق أهدافاً في العمق الإيراني، وردت إيران بقصف أهداف عسكرية واقتصادية عراقية.

وبالطبع أفاد الغرب من هذه الحرب إفادة كبيرة معنويًّا وماديًّا، فقد أضعف الطرفين، وانتقمت أمريكا لنفسها من إيران التي احتل ثوارها السفارة الأمريكية في طهران، واستراح اليهود الغزاة من تهديدات صدام الجوفاء، وضمن القوم جميعًا أن الطرفين تم تدمير قوتيهما، وأن البترول سيظل تحت السيطرة الغربية، وأن أرصدة دول الخليج وإيران يتم استنزافها في تشغيل مصانع السلاح في أوربا وأمريكا والكيان الصهيوني، وقد ظهر غلاف مجلة " التايم " الأمريكية في 6 أكتوبر 1980، وعليه صورة معبرة لبرميل نفط رسم في وسطه الخليج العربي، وتظهر النيران تشتعل به.

تبادل الهجمات:

وبعد اشتباكات حدودية متقطعة في الفترة من مايو إلى أغسطس 1980، اشتدت حدة الاشتباكات الحدودية في شهر سبتمبر، حيث أعلن العراق عن تحرير عدة قرى حدودية من الجيش الإيراني، وعبرت بعدها وحدات وتشكيلات برية عراقية الحدود الدولية المشتركة مع إيران، التي صارت مسرحًا لأطول حرب شهدها القرن العشرون، وأكثرها دموية.

وتبادل الطرفان هجمات عنيفة بالطيران وصلت إلى قلب طهران وبغداد، فضلا عن احتلال الطرفين أراضي على جانبي شط العرب والحدود بصفة عامة، وجرت محاولات لوقف إطلاق النار، ولكنها أخفقت تمامًا.

تدمير المفاعل النووي:

وقد استغل الكيان الصهيوني انشغال الدفاعات الجوية العراقية بالجبهة الإيرانية، فشنت طائراته في 7 يونيه 1980 هجومًا على المفاعل النووي العراقي الواقع قرب بغداد، وحولته إلى أنقاض في ثوان معدودة. وكانت حجة مناحيم بيغن رئيس وزراء العدو آنذاك، أن العراق كان يطور أسلحة نووية.

ومع أن دول الخليج خذلت السادات بعد حرب رمضان، ولم تدعمه كما ينبغي ليواصل صموده ضد العدو، مما دفعه إلى مبادرته المعروفة، فإن هذه الدول دعمت " صدام " بلا حدود، وقدمت له الدعم اللوجستي والاقتصادي، بفتح الموانئ وتقديم القروض والمساعدات بعشرات المليارات؛ ليواصل حربه العبثية ضد إيران.

على مدى السنوات التاليه تبادل الطرفان تحقيق انتصارات في أرض كل منهما، وقد تعرض العراق لاحتلال بعض مدنه المهمة، ولكنه استطاع تحريرها بمساعدة مصرية، وقبل أن ينتهي يونيه 1988، تمكن العراق من الاستيلاء على مدينة مهران الإيرانية قبْل أن ينسحب إلى داخل حدوده. وفي يوليو هاجمت القوات العراقية المناطق المحيطة بالزبيدات، وأسرت 2500 إيراني، ثم تابعت تقدمها إلى داخل الأراضي الإيرانية، بعمق 40 كم واستولت على مدينة دهلران، جنوب مهران، إلا أنها انسحبت منها، بعد عدة أيام.

وقف إطلاق النار:

ثم وافق البلدان على وقف إطلاق النار في 20 أغسطس لتبدأ بعدها المفاوضات المباشرة بينهما في جنيف من 25 أغسطس إلى 7 سبتمبر 1988، وكان على المتفاوضين بحث قرار مجلس الأمن رقم 598، ويتضمن:

وقف إطلاق النار.

الانسحاب إلى الحدود الدولية.

تبادل الأسرى.

عقد مفاوضات السلام.

إعمار البلدين بمساعدة دولية.

وجرت مفاوضات صعبة لتنفيذ القرار في جنيف ونيويورك، ولكن البند الأول – وهو وقف إطلاق النار – هو الذي تحقق أولا وسريعًا، وشهدت بقية البنود مساومات ومماطلات.

غزو الكويت:

وفي أغسطس 1990 انسحبت القوات العراقية فجأة من الأراضي الإيرانية (2,500 كم مربع) وسلمت جميع الأسرى الإيرانيين المسجلين عندها، لتقوم بعدئذ بغزو الكويت في 2 أغسطس 1990 بإيحاء من الولايات المتحدة !!

لا أحد من المسئولين في العالم الإسلامي يفكر بعقلية مبدعة، ويتجاوز حدود الكرسي الذي يجلس عليه، وطالما كان الكرسي ثابتًا فكل شيء على ما يرام، أما إذا حدث ما يهزّ الكرسي أو يقترب منه فالأمور ليست بخير، وتقتضي شن الحرب على كل من يهدّد الكرسي.

لقد شجع الخليجيون العراق على محاربة إيران خوفًا من امتداد الثورة إلى بلادهم، وخسروا في سبيل ذلك عشرات المليارات، ولكنهم أبدا لم يشجعوا على تحرير فلسطين والقدس والمسجد الأقصى، ويلزمون الصمت غير الجميل كلما طولبوا ببذل المال والسلاح من أجلها، أما الكراسي فيبذلون من أجلها كل شيء، وعندما تيقنوا أن إيران تحطمت هي والعراق، صموا آذانهم عن طلب صدام بإمداده بالمساعدات، فكانت خطوته المباغتة باحتلال الكويت، ومن ثم تهديد الآخرين في الخليج، وتحالف الغرب لإخراجه من الكويت وإذلاله في اتفاق يقضي بسحب قواته وتعويض الكويتيين.

احتلال العراق:

ثم يتربص به الغرب بعد ذلك ببضع سنوات ليقضي عليه ويحتل العراق ويعدم " صدام "، ويحكم عاصمة الرشيد أو عاصمة الخلافة الإسلامية لأول مرة سفير صليبي أمريكي اسمه بول بريمر.

كتبت في أثناء حرب العراق وإيران مقالات عديدة ضد هذه الحرب، وهاجمت سياسة صدام التدميرية، وأذكر أنني كتبت مقالا طويلا ضمنته هجومًا على الخميني وصدام معًا، وطالبت بإيقاف الحرب والتوجه إلى القدس إذا كان الطرفان جادين. ومن المفارقات أن هذا المقال كان سببًا في منع دخول مجلة " الاعتصام " إلى السعودية، وعادت سبعة عشر ألف نسخة إلى القاهرة دون توزيع؛ مما أحدث خسائر كبيرة للمجلة ذات الإمكانات المتواضعة. وكنت أشعر بالحرج من أصحاب المجلة بسبب هذه الخسارة التي صنعها مقالي، ولكنها كلمة حق يجب أن تقال في جو يعلو فيه صوت الباطل والعصبية الجاهلية الغبية.

من المفارقات المضحكة أنني دخلت لصلاة الظهر في أحد المساجد بالرياض عقب احتلال صدام للكويت، وعند الخروج وجدت شابًّا يقف أمام الباب ويعطي الخارجين ملفًّا به بعض الأوراق حول الاحتلال، وعندما ذهبت

إلى البيت وفتحت الملف، وجدت به صورة ضوئية لمقالي الذي نشر قبل سنوات، وبسببه منعت الاعتصام من دخول الرياض وغيرها من مدن المملكة ! كيف جاء هذا المقال ولماذا تذكروه الآن ؟! الله وحده أعلم !

وفود كثيرة:

كان صدام يستعين بأبواق الصحفيين والكتاب والإعلاميين والفنانين المصريين، ويأجرهم للوقوف بجانبه والدعاية له، وذهبت وفود كثيرة إلى العراق من كل شكل ولون تحت لافتات مختلفة، وفي مناسبات شتى، وأغدق عليهم صدام مكافآت وهدايا، وصلت - في بعض الأحيان - إلى سيارات فخمة لرؤساء تحرير الصحف، وعندما كتبت صحف المعارضة عن ذلك طلب الرئيس السابق حسني مبارك ضم السيارات إلى ملكية المؤسسات الصحفية.

كان صدام يقيم مهرجانًا أدبيًّا سنويًّا في البصرة اسمه المربد، وفي إحدى سنوات الحرب مع إيران كان اسمي رقم 3 في قائمة طويلة تضم الأدباء المصريين المدعوين إلى المهرجان. ولكني على كل حال لم أذهب.

اتصل الملحق الثقافي العراقي آنئذ أو جاء إلى الاعتصام ليقنعني بالوقوف إلى جانب صدام ويرد على ما كتبته، فقيل له إنني لا أقيم في القاهرة، وننشر لك ردك عملا بحق الرد !

كما أرسل مسئول في السفارة الإيرانية ردًّا على ما كتبت، وتم نشره، ولكن موقفي في كل الأحوال كان هو الصواب بفضل الله. واضطر الخميني بعد الخسائر في الأرواح والممتلكات للقبول بوقف إطلاق النار، وقال إنه مضطر لشرب السم !

القادسية الجديدة:

صنع الفنانون المصريون لصدام فيلمًا بعنوان القادسية، مستلهمين القادسية الأولى التي كان بطلها سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن القائد هذه المرة صدام حسين التكريتي، الديكتاتور الذي لم يحقق انتصارًا ولا مجدًا، بل حوّل شعبه إلى عبيد، أو هاربين في المنافي، أو قتلى في باطن الأرض، أو أسرى داخل السجون، وفي النهاية قدم بلاده لقمة سائغة للصليبيين، الذين أعدموه وأذلّوه وأذلوا العرب والمسلمين معه !

مشكلة القيادات في العالم العربي أنهم لا يتعظون، ولا يفيدون من دروس التاريخ، ويصرون على تقديم المصالح الشخصية على حساب المصالح العامة، ولا عجب بعد ذلك أن صاروا قصعة الأمم كما تنبأ البشير النذير عليه الصلاة والسلام.

تجفيف المنابع:

كان السادات قبل اغتياله قد أجرى تعديلا على قانون الصحافة، يتفق مع فكرة تجفيف المنابع التي رسم خطتها الدكتور ميتشيل، واعتمدتها أجهزة الأمن الأميركية والصهيونية والمصرية، وأشرت إليها في موضع سابق، وتقضي - في بعض بنودها - بحرمان الإسلاميين من أية منابر للتعبير، وخاصة في الصحافة، فأصدر ما سماه قانون السلطة الرابعة عام 1980، وذهب إلى نقابة الصحفيين يوم 31 مارس 1981 موعد الاحتفال بيوم الصحفي المصري، وألقى خطابًا مطولا، حاول فيه أن يتقرب إلى الصحافة والصحفيين..

وبدأ خطابه بالفقرة التالية:

" بسم الله ..

إخوتى وأخواتي وأبنائي وبناتي أعضاء السلطة الرابعة ..

أبدأ فأقول إن هذا اللقاء قد تأخر عن موعده كثيرًا، لعله كان يجب أن يتم بعد ثورة 1971 وما أجدر أصحاب القلم أن يكونوا مع الشعب أول المحتفلين بحرية الإنسان المصري على أرضه .. حرية الإنسان المصري لكل مصري يوم أن تحطمت أغلال المعتقلات، وساد القانون، وانتهت سيطرة القلة على مقدرات الملايين، فجعلت الشعب - كل الشعب - هو مركز القوة، وهو المصدر لكل السلطات، ولعلها أيضا كان يجب أن تتم بعد إلغاء الرقابة على الصحف سنة 74، تلك التي كانت من أكبر القيود على حرية التعبير، والتي استمرت عشرات السنين حاجبة هذا الحق الديمقراطي، باستثناء فترات متقطعة قليلة كانت الصحافة فيها لا تكاد تعيش أجواءها الصحية الطبيعية، حتى تعود الرقابة لتكتم أنفاسها من جديد. .. ".

السياسة والصحافة:

واستطرد السادات ليسرد عديدًا من القضايا التي ترتبط بالسياسة والصحافة .. ووصل بعد الإشارة إلى تاريخه مع الصحافة قبل 52 وبعدها إلى القول: " لعل السؤال هو: ما هي الصحافة التي نريدها لمصر لبناء الحاضر والمستقبل ؟ " .. وراح يجيب عن هذا السؤال من خلال استعراض تاريخ الصحافة منذ عهد محمد علي، مرورًا بعهد الخديو إسماعيل حتى العصر الراهن (عهده).

ولوحظ في هذا الخطاب تركيزه على مسألة الملكية الفردية للمؤسسات الصحفية، وتحولها - من وجهة نظره - فى مجتمع الغرب الى قيد مفزع على حرية الصحافة .. وضرب مثلا برجل الصحافة الأسترالي ميردوخ الذي اشترى جريدة التايمز البريطانية، وأصبح يملك ثلث صحافة بريطانيا وأقوى صحافة فى أستراليا، وعددًا كبيرًا من الصحف المؤثرة فى أمريكا، وتسخير هذا الرأسمالي لهذه الصحافة لمصالحه والتأثير على أقلامها، وذكر أن الغرب اشتكى من هذه الظاهرة ..

كما ضرب أمثلة أخرى تتعلق بجريدة الأوبزرفر، وعرج على مصطلح حرية الصحافة التي أسيء استخدامها في الغرب، بنشر الأخبار التي تمس الأمن القومي، وكشف أسرار الدولة، وخدمة الصراعات السياسية، وسمى هذه الصحافة بالصفراء؛ لأنها تعتمد على الجريمة والجنس وإثارة الغرائز، والعدوان على الحرمات ونشر الفضائح، حتى أصبحت هذه الصحافة الصفراء تمارس تحت دعوى حرية الصحافة عدوانًا خطيرًا على الأخلاق والقيم والفضائل؛ بحكم أنها أكثر توزيعًا.

الطاعون والصحافة:

وذكر السادات أن المعسكر الشيوعي الشرقي يرفض أيضًا الملكية الفردية للصحافة، وأشار إلى أن أحد فلاسفة الشيوعية له عبارة ساخرة بليغة تقول: "لو استطاع الطاعون أن يتجسد ويتسرب في رءوس أموال ضخمة لسرعان ما ظهرت صحف وكتب تمجد الطاعون ورسالته التاريخية وأياديه البيضاء" ..

واستشهد السادات أيضًا بمقولة لجريدة البرافدا التي كانت تصدر في الاتحاد السوفييتي، مضمونها أن حرية الصحافة وموضوعيتها ما هي إلا ضرب من الخيال. وأن الإعلام وسيلة من وسائل كفاح الطبقات وليس مرآة تعكس الأحداث بطريقة موضوعية. وأضاف مقولة الزعيم الشيوعي السوفييتي لينين التي تقول: " إن الصحيفة يجب أن تقوم بدور الداعية والمهيّج الاجتماعي ".

كما تحدث عن مقولة أخرى له فحواها: " أن احتكار البروليتاريا للصحافة هي الديمقراطية الحقيقية، فكل ما تنشره الصحافة البرجوازية خداع وتضليل، وما دام الهدف الشيوعي هو سيطرة الطبقة فلا موضوعية ولا تسامح، ولا رأي لغير حكم الطبقة الواحدة !! ".

وأشار السادات إلى عدم قبوله للمفهوم الغربي والمفهوم الشرقي معًا، ووضح الأسباب المتعلقة برفض المفهومين.

تقييد إصدار الصحف:

كان السادات – فيما يبدو – يحاول أن يجد عذرًا لمنع إصدار الصحف من جانب الأفراد، وتقييد حرية إصدارها من جانب الشركات والمؤسسات، فقد وضع شروطًا مادية ومعنوية صعبة ومتعسفة في قانونه الذي أصدره باسم السلطة الرابعة، وصارإصدار صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية أو شهرية من سابع المستحيلات، ما لم توافق أجهزة الأمن على هذا الإصدار.

كان المقصود بذلك كله التيار الإسلامي بالدرجة الأولى، وكان القانون المذكور قد أوغل في وحشيته، حين نزع من القانون القديم حق توريث الترخيص الذي صدرت الصحف القائمة على أساسه، ويبدو أن أحد الشياطين أدرك أن أصحاب الصحف الإسلامية القائمة وخاصة الدعوة والاعتصام من كبار السن، وأنهم على وشك الوفاة، فينتهي وجود هذه الصحف تلقائيًّا، فقد أُلغي ترخيص الدعوة عقب وفاة الشيخ صالح عشماوي عام 1983م، ووفاة الشيخ أحمد عيسى عاشور عام 1989م. ولم

يعد للحركة الإسلامية غير مجلة واحدة هي المختار الإسلامي، وإمكاناتها المادية محدودة للغاية.

حصانة " وطني " :

المفارقة أن جريدة " وطني " الأسبوعية التي يصدرها المتمردون الطائفيون النصارى، سقط امتيازها الممنوح لأنطون سيدهم في الفترة ذاتها، فلم تتوقف يومًا عن الصدور ولم يلاحقها الأمن، وظلت تصدر حتى تم توفيق أوضاعها وفقا لقانون السادات المذكور أو قانون السلطة الرابعة كما كان يسمى، وكان واضحًا أن النظام المصري في عهد مبارك كان يساعد على سرعة توفيق أوضاع " وطني "، في الوقت الذي ظلت فيه أوراق تأسيس شركة لإصدار " الدعوة " لمدة ثلاثين عامًا، يتم تداولها بين هذه الجهة أو تلك، حتى يئس الشركاء أو مات كثير منهم، وكفوا عن متابعة الأمر .. لقد قصد النظام الصحافة الإسلامية وحدها بقانونه؛ سعيًا لتجفيف المنابع، وفقاً لخطط أعداء الإسلام الشريرة.

تعثرت الاعتصام بعد اغتيال السادات؛ بسبب الظروف المادية والديون، وكانت تصدر عددين أحيانًا في عدد واحد، ومع ذلك كانت تمثل إزعاجا للسلطة، لم يتوقف إلا بعد أن سقطت رخصتها بوفاة صاحبها رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وسكتت عن الكلام !

البحث عن منبر :

استمرت محاولات الإسلاميين للبحث عن منابر للتعبير من خلال إصدار كتب غير دورية أو صحف الأحزاب المتعاطفة معهم. وحاول الإخوان المسلمون إصدار كتاب غير دوري بعنوان " البشير "، وكانت أجهزة الأمن له بالمرصاد، فصادروه بعد اكتمال طبعه، واتفقوا مع " الحمزة دعبس " رئيس مجلس إدارة " جريدة النور " التي تصدر عن حزب الأحرار لتحرير عدة صفحات منها بمعرفتهم، ولم يستمر الأمر طويلا، وربما كان ذلك بإيعاز من الأمن أيضًا.

تكررت المحاولة مع مجلة " لواء الإسلام "، وكان صاحب امتيازها أحمد حمزة الوزير في العهد الملكي، وآلت رخصتها بالميراث إلى ابنته " فاطمة حمزة " قبل إصدار قانون السلطة الرابعة، وبالفعل تولى الإخوان مسئولية

تحريرها كما أوضحت من قبل في مكان آخر، وقد شاركت في تحرير القسم الأدبي بها حتى سافرت مرة أخرى خارج البلاد، ولكن جاءت حرب الخليج لتمارس دولة خليجية كانت تقيم بها صاحبة الامتياز - ربما بتحريض من القاهرة - ضغوطًا على السيدة وزوجها، تتعلق بالإقامة والعمل ولقمة العيش، فانهارت تجربة لواء الإسلام.

آفاق عربية:

اتجه الإخوان مرة أخرى إلى حزب الأحرار، لتولي تحرير جريدة من جرائد الحزب اسمها " آفاق عربية "، وكانت تصدر أسبوعيًّا، وشاركت فيها بمقال أسبوعي، وكان الشخص الذي يرأس تحريرها قانونًا يعتمد في تحريرها من قبل على تناول شئون السفارات وأخبارها والحركة الدبلوماسية وما إلى ذلك، وكان ذلك يوفر له بعض الإعلانات المحدودة، ولكن الجريدة بعد أن تولى الإخوان تحريرها منحوه راتبًا كبيرًا، وكان الاتفاق يقضي بعدم تدخله في التحرير، ولكنه بين حين وآخر - وبحكم رئاسته الرسمية للتحرير - كان يفتعل مشكلات تنتهي عادة برفع راتبه.

حققت آفاق عربية توزيعًا كبيرًا أزعج سلطات الأمن، فظهرت في الأفق أزمة جديدة مع رئيس التحرير، وانضم إليه للأسف بعض المحررين من الإخوان، وانهار توزيع الجريدة، وبعد عدة أعداد تمت معالجة الموضوع وعادت آفاق عربية سيرتها الأولى، وحققت أرقام التوزيع صعودًا كبيرًا، وهو ما جعل السلطة تتدخل مباشرة لدى رئيس الحزب الموجود آنئذ، وطلبت منه إيقاف الجريدة، وإلا .. ولم يكن هناك مفر من انتهاء التجربة، وصار الإسلاميون بلا منبر مرة أخرى.

الأسرة العربية:

لم ييأس الإخوان من محاولة أخرى مع جريدة أخرى من جرائد حزب الأحرار محدودة التوزيع للغاية، وهي الأسرة العربية، وتولوا تحريرها، وظلت تصدر لأسابيع، وما كادت تحقق وجودًا ملحوظًا بين الصحف الأخرى حتى كان قرار النظام بإنهاء التجربة!

ورافق ذلك كله محاكمات استثنائية لقادة الإخوان، وقضى بعضهم سنوات وراء الأسوار، حتى جاءت ثورة يناير، فخرجوا من السجون، وتم تأسيس حزب الحرية والعدالة، الذي أصدر جريدة تحمل اسمه، وأنشأ قناة تلفزيونية اسمها مصر 25. لم أدع إلى الكتابة في الجريدة، وإن كان بعض محرريها استفتوني في بعض القضايا الثقافية، وكانت الجريدة تنقل أحيانًا بعض مقالاتي التي كنت أنشرها في أماكن أخرى.

أما القناة التلفزيونية فقد استضافتني في بعض البرامج، ولكن جاء الانقلاب العسكري الثاني (يوليو 2013)، الذي أطاح بالثورة والديمقراطية، فأغلق القناة والجريدة معًا، إضافة إلى جريدة الشعب الجديد، وقنوات إسلامية أخرى، وكمم الأفواه، وأعاد مصر إلى سيرة الانقلاب الأول (يوليو 1952)؛

سنة هادئة:

كانت السنة الأخيرة في إعارتي إلى السعودية هادئة، وكنت أفكر في موضوع للدكتوراه، وبالفعل أرسلت خطة البحث إلى الدكتور على عشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فأخبرني أنها قدمت لمجلس القسم، الذي وافق عليها، وأن المشرف سيكون أستاذًا آخر؛ لأنه يشد الرحال إلى إسلام أباد في باكستان؛ ليتولى عمادة كلية الدراسات العربية هناك. وقد قضى بالفعل نحو عشر سنوات هناك، وقابلته بعض المرات في الإجازات الصيفية حتى داهمه المرض وانتقل إلى رحاب الله.

عشت السنة الرابعة مثل السنة الثالثة مع بعض الزملاء، وتقاسمنا العمل في شئون المنزل، وكنا نستقبل زملاء كثيرين يأتون إلينا من بعيد في يومي الخميس والجمعة، بعيدا عن الوحدة والعزلة وجهامة الصحراء حيث يعيشون، وفي الوقت نفسه يتجولون في البلدة (أحد المسارحة)، التي تطورت تطورًا كبيرًا من حيث التنظيم والتخطيط والبناء، فقد صارت شوارعها مسفلتة، وأصبح لها مولد كهرباء عموميًا، يوفر الإضاءة في البيوت والشوارع، كما أتاح للسكان فرصة استخدام الثلاجات وأجهزة الإذاعة والتلفزيون على مدى اليوم والليلة، فضلا عن أجهزة التسجيل والعرض.

وعرفت البلدة المحلات التجارية الكبيرة للملبوسات والبقالة ومستلزمات المعمار والأدوات الصحية والمخابز الآلية ونصف الآلية، وما تقدمه من المخبوزات المتنوعة، بالإضافة إلى تعدد مدارس التعليم الأساسي للبنين والبنات بمراحلها المختلفة، مع مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم.

وكان هذا التطور جاذبًا على كل حال.

❋❋❋

4 - متاعب ومذابح !

صامطة:

كانت هناك بلدة أخرى قريبة من أحد المسارحة، اسمها صامطة سبقت الإشارة إليها، ويبدو أن لها ثقلا اجتماعيًّا ما، فضلا عن كونها محطًّا مهمًّا قبل بلدة أخرى اسمها الطوال على الحدود بين المملكة واليمن. صامطة، ولعل اسمها محرف عن صامتة، كانت تتوفر فيها بعض الخدمات، مثل خدمة الهاتف أو السنترال، وكنت أذهب إليها - بحكم أنها أقرب من جازان - للاتصال بمن أريد في داخل المملكة أو خارجها، بالإضافة إلى أنها تضم معهدًا دينيًّا تابعًا لجامعة الإمام، وبها كثير من العلماء أو المشايخ المعروفين على مستوى المملكة، وهي مجال للاستيطان والهجرة بين الدولتين المتجاورتين، فهناك ذوو أصول يمنية يعيشون فيها، واكتسبوا الجنسية، ومنهم من زحف إلى اليمن وعاش هناك، وإن كانت مرحلة النفط قد جذبت إليها عديدًا من المستوطنين، بل إن منطقة جازان كلها تعد منطقة جاذبة لليمنيين وغيرهم ممن يأتون عبر البحر من إثيوبيا والصومال وجيبوتي وإريتريا والسودان، للإقامة والعيش بصورة وأخرى.

وكنا نجد في صامطة فرصة أفضل للحصول على مستلزمات المطبخ الأسبوعية؛ من لحوم وخضروات وأسماك وفاكهة، وفي كل يوم خميس كان أحد الزملاء يركب دراجته البخارية ويتوجه إليها؛ ليأتي لنا بما لا يتوفر في أحد المسارحة من هذه الأصناف التي تبدو هناك أرخص نسبيًّا، وأكثر تنوعًا.

ولكن تبقى أحد المسارحة في تطورها أسرع تحديثًا، وأقدر على الوفاء بمتطلبات القرى العديدة من حولها.

تذاكر السفر:

في نهاية العام، وعقب الامتحانات، صفّينا - نحن المعارين - موقفنا، وحصلنا على الإخلاءات المطلوبة، وتسلمنا تذاكر السفر، وبدأنا الاستعداد لرحلة العودة النهائية إلى الوطن.

وفي هذه الأثناء أعلن عن وفاة الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود في 13 يونيو 1982م، وكان قد تولى الحكم عقب اغتيال الملك فيصل في مارس 1975.

والملك خالد رجل طيب، حفظ القرآن الكريم، ولم يكن له نشاط سياسي ملحوظ، وصار وليًّا للعهد مع الملك فيصل، ومع تسلمه الحكم ازداد دخل البلاد من البترول فيما عرف بالطفرة، وهي الزيادة الهائلة في أسعار النفط؛ بسبب حرب رمضان التي شنّها المصريون على العدو الصهيوني، وقطع الملك فيصل البترول عن الدول المساندة للعدو الصهيوني، فأدى ذلك إلى توفير الأموال لتنفيذ الخطة الخمسية التي وضعت في عهد الملك فيصل، وحدث توسع كبير في المجال التعليمي والجامعات ومجال المواصلات واستحداث مطارات جديدة، وإنشاء جسر السعودية – البحرين، وإتمام ما تبقى من عمارة المسجد الحرام، وافتتاح مصنع كسوة الكعبة بعد تجديده وتوسعة المسجد النبوي، وزيادة رواتب موظفي الدولة من أهل البلاد بنسبة عالية، ارتفعت على إثرها مستوى المعيشة للمواطنين، بالإضافة إلى إصلاحات وإنشاءات عديدة في مجالات أخرى.

العودة:

وبعد وفاة الملك خالد أعلن تنصيب ولي العهد الأمير فهد بن عبد العزيز ملكًا على البلاد. وكان فهد - في حقيقة الأمر - هو الحاكم الفعلي؛ بسبب الظروف الصحية القلقة للملك خالد، الذي بدا غير مشغول بالحركة السياسية النشيطة، فتولى أخوه الأمر عمليًّا.

عدت إلى مصر وتسلمت عملي، وقضيت فترة الصيف أتردد على المدرسة الإعدادية، وكان ناظرها رجلا سطحيًّا متزمّتًا لدرجة غريبة، فقد كنا في إجازة صيفية عامة والتلاميذ لا يحضرون، والمدرسون يجتمعون طوال فترة الحضور الرسمي اليومي، لا يعملون شيئًا غير الثرثرة، ويشعرون أنهم محبوسون بطريقة متعسفة، وباب المدرسة مغلق لا يفتح إلا بأمر الناظر المذكور، ولا يسمح لأحد بالخروج لأي سبب كان، لدرجة أن بعض المدرسين من أهل المدينة الذين يمارسون أعمالا إضافية غير التدريس، كانوا يمارسون الفهلوة، ويقفزون من فوق السور، ويعودون قبل انتهاء الدوام الرسمي للتوقيع في دفتر الانصراف. وكان الأمر مجال تندر وفكاهة، فبعد

أن كان التلاميذ هم الذين يهربون من المدرسة، صار المدرسون هم الذين يفعلون ذلك !

اتهام مباغت:

فوجئت بالرجل ذات يوم يستدعيني، ويواجهني بالاتهام:

- لماذا تركت المدرسة يا أستاذ ؟

كان الاتهام مباغتًا ومفاجئًا، قلت له:

- متى ؟

قال:

- بالأمس !

رددت عليه مباشرة:

- من وشى لك بهذه الوشاية ؟

فرد عليّ متغطرسًا:

- أنا لا أسمع وشايات يا أستاذ !

قلت له:

- إذًا عليك أن تسأل المدرس الأول الذي كنت أجلس معه طوال اليوم !

وبالفعل استدعى المدرس الأول الذي شهد أنني كنت معه، فاضطر أن يصرفني، وخرجت من فوري إلى المديرية في كفر الشيخ، وقدمت طلبًا للانتقال إلى دار المعلمين بدسوق، وفي خلال أسبوعين، تركت المدرسة الإعدادية، وأصدقائي من المدرّسين والموظفين، وهناك في المعلمين قضيت سنة كاملة، حيث وجدت زملاء قدامى، وأساتذة لي مذ كنت طالبًا في الستينيات قد صاروا مسئولين، وكان الوضع مقبولا بصفة عامة، ولكني أحسست أن هناك نوعًا من الغيرة؛ بسبب حصولي على الماجستير تتبدّى في بعض السلوكيات والعبارات، وهو ما جعلني أعجّل بالانتقال إلى الجامعة.

المنصورة وطنطا:

في أثناء العام الدراسي نشرت كلية التربية - جامعة المنصورة إعلانًا يطلب مدرسين مساعدين في تخصصي، إلى جانب وظائف أخرى. أرسلت الطلب، وبعد فترة تلقيت خطابًا يطلب الحضور إلى الكلية. قابلت عميد

الكلية الذي كان في الوقت نفسه يشرف على القسم الذي يفترض أنني سأنتمي إليه. كان الرجل مهذبًا، وناقشني في بعض الأمور العلمية، ثم طلب أن أتوجه إلى المسجل (يسمى الآن أمين الكلية)، وبدوره طلب أوراقًا، وعبأت استمارة معينة، وسلمت صورًا شمسية. وتوقعت أن يستغرق الأمر وقتًا طويلا، وفوجئت بعد وقت قصير أن الكلية تستدعيني لاستلام العمل.

نبهني أحد أصدقائي أن جامعة طنطا بصدد الإعلان عن طلب وظائف، وستطلب تخصصي، وطنطا أقرب إليّ مكانيًّا من المنصورة، بحيث أستطيع أن أسافر يوميًّا إذا اقتضى الأمر، بالإضافة إلى أنها أقرب إلى القاهرة أيضًا ؛ مما يوفر وقتًا وجهدًا في السفر إليها لدواع علمية أو ثقافية. وبالفعل ظهر الإعلان، وتقدمت بطلب إلى كلية التربية – جامعة طنطا، وقبلتني الجامعة، وأصدرت قرارا بذلك، ولكن المشكلة تمثلت في موافقة الجهاز الأمني التي تأخرت كثيرًا. وتدخل بعض من أعرف لمعرفة أبعاد الموقف، فعلموا أن الإدارة في القاهرة تعارض تعييني، دون إبداء الأسباب !

البحث عن حلّ:

تعجبت؛ فهذه الإدارة وافقت على تعييني في المنصورة، فلماذا لم توافق على تعييني في طنطا ؟

ولأن الكلية تحتاجني في طنطا، فقد حاول بعضهم البحث عن حل، وأخيرًا قيل لي: اذهب إلى الضابط فلان (رتبة عقيد) في الإدارة بالقاهرة.

كنا في رمضان، مع نهايات إجازة الصيف تقريبًا، وصرت أتناول السحور وأصلي الفجر، ثم أنطلق إلى القاهرة، لأصل مبكرًا إلى لاظوغلي .. استقبلني الضابط أول مرة مباشرة، وصعدت إليه بعد فترة انتظار قصيرة في الاستقبال، تعرف عليَّ، وتناقشنا في عدة أمور، سمعته يطلب بالهاتف الملف الخاص بي. ويقول لمن يحدثه على الطرف الآخر " جماعات " ! .. جاء الملف الضخم يحمله أحد العساكر. فتصفحه الضابط، وطلب مني أن أعود إليه في منتصف الأسبوع.

عدت حسب الموعد، وانتظرت طويلا، وكلما سألت المسئول في الاستقبال يخبرني أن الضابط لم يحضر بعد، وبعد أن أقضي ساعتين أو ثلاثًا يخبرني من في الاستقبال أن أحضر في المساء (بعد الإفطار)، وعندما أصل، أجلس طويلا، يأتيني المسئول، يقول لي تعال غدا ؛ لأن الباشا لديه اجتماع مطول..

وظل الأمر كذلك عدة أسابيع، يحددون لي مواعيد متتالية، دون أن أقابل الرجل. أخبرني من يعرف خصائص القوم، أنهم يمارسون معي لعبة المماطلة لتطويعي. ولم أدرك حتى هذه اللحظة: لماذا ؟

تحليل خبر:

عرفت أن الضابط يكون عادة موجودًا، وأنه يتلذّذ بذهابي وعودتي؛ اعتقادا منه أنه يخدم الدولة بهذا السلوك. وعقب العيد ذهبت حسب موعد ضربوه لي، فاستقبلني بعد فترة، ووجدته يقدم لي إحدى الصحف التي أمامه، ويطلب مني تحليل خبر من أخبارها. ومع أني لست متخصصًا في الإعلام، فقد حللت له الخبر تحليلا علميًّا بفضل الله، ويبدو أن الصورة الذهنية التي يكوّنها في رأسه عمّن يسمونهم الجماعات قد تغيرت بالنسبة لصورتي في ذهنه، وانصرفت بعد أن حدّد لي موعدًا آخر.

حضرت أكثر من مرة، وفي المرة الأخيرة صعدت إلى مكتبه، فلم أجد أحدًا فجلست، وجاء ضابط أقل رتبة (رائد)، كان قد قابلني في إحدى المرات مع رئيسه الذي أجلس في مكتبه، وقال لي: إن الباشا لم يحضر اليوم، ووجدته يتصفح أمامي ملفي الذي كان موجودًا على المكتب – لما يزل، ورأيت ملخصات لمقالاتي وكتاباتي في الصحف والمجلات، وبعد تصفح عشرات الأوراق التفت إليّ وأخبرني أنه يطلب مني ألا أكتب عن كامب ديفيد !

قلت له:

– لقد انتهت كامب ديفيد من زمان.

قال:

– عدني !

قلت له:

– أعدك ! فقد انتهت كامب ديفيد !

قال:

– اذهب إلى مكتب الأمن بوزارة التعليم العالي وخذ الموافقة.

قلت في نفسي المهم ما يجري بعد كامب ديفيد. كانت المسافة – فيما أذكر – قريبة بين لاظوغلي ووزارة التعليم العالي بالمبتديان. سرت على

قدمي، ودخلت إلى مكتب الأمن، وسلمني الموظف ورقة موجهة إلى كلية التربية بطنطا، مكتوب فيها: " لا مانع ".

الموافقة:

فرح من حولي بالموافقة، مع أنهم كانوا يفضلون أن أتسلم العمل في المنصورة، ولا أتعرض للعذاب الذي عانيته في السفر شبه اليومي في رمضان وما بعده من قريتي إلى القاهرة والعودة، ويبدو أن هاجسًا داخليًّا كان يحرّضني على متابعة الموضوع؛ لأكتشف عالمًا جديدًا لم تكن لي - وأنا الفلاح الساذج البعيد عن المدينة وأحوالها - دراية به.

رأيت في مكان الاستقبال بلاظوغلي خلقًا كثيرين يدخلون ويخرجون، بعضهم مقيد اليدين وهو داخل، وبعضهم يجلس تظلله الكآبة، ويدخل بعض العساكر يحملون نسخًا من مجلة " فصول " المتخصصة في الأدب والنقد، وأتساءل في داخلي: ما علاقة القوم بهذه المجلة التي لاعلاقة لها بالسياسة ولا الأمن ؟

رأيت أشخاصًا من جنسية أجنبية يدخلون في حفاوة واهتمام. هناك بعض النساء يسألن عن أشياء وينتظرن. صادفت في الطرقات أشخاصًا معصوبي الأعين، يقودهم بعض العساكر في الردهات .. عالم آخر يثير الانقباض والكآبة، لا أعرفه ولا أتمنى معرفته، ولكني دخلته وأنا إنسان مسالم لا أمتّ بصلة لجماعة أو تنظيم أو حزب أو حتى شلة، ولكن القوم صنعوا لي ملفًّا بسبب ما أكتبه، وصنفوني ضمن الجماعات (أي جماعة ؟ لا أدري !).

إخلاء الطرف:

لحق بمتاعب الموافقة الأمنية متاعب قليلة في عملية إخلاء الطرف من دار المعلمين ومديرية التعليم في كفر الشيخ .. ظهرت تصرفات صغيرة، ولكنها بائسة تدل على خبث بعض النفوس وقبحها، ولكني تجاوزتها، وسامحت أصحابها.

على كل حال، فقد تسلّمت عملي، وصرت مدرسًا مساعدًا بقسم اللغات (لغة عربية) بكلية التربية – جامعة طنطا.

أسند إليَّ رئيس القسم بعض الساعات التدريسية، وقد منحتني تجارب التدريس في مراحل ما قبل الجامعة خبرة جيدة في أداء المحاضرات والتواصل مع الطلاب، وكان عليَّ - في الوقت نفسه - أن أواصل العمل في رسالة الدكتوراه.

مشغول عنّي:

كان المشرف ذكيًّا وقارئًا جيدًا ومثقفًا، ويجيد الفرنسية والفارسية والأردية، وخطه جميل، وكان من الذين تعلموا الخط على أصوله أيام كان الخط مادة مقررة في دار العلوم، بالإضافة إلى ذلك، يملك أسلوبًا مميزًا، وله أعمال مترجمة ممتازة تدل على وعي واقتدار، لكنه كان مشغولا عني لسبب لا أعرفه، لم يقرأ شيئًا مما كنت أسلمه له، بل كان يلقيه في أحد الدواليب، ويخبرني أن هناك رسائل أخرى تشغله. كنت قد انتهيت من الكتابة، وانتظرت أن يقرأ ويطلب مني أن أطبع الرسالة استعدادا للمناقشة، ولكني لم أجد منه تعاطفا ولا تجاوبًا ولا مشاركة. حاولت توسيط بعض الأساتذة الذين أعرفهم بطريقة غير مباشرة للوصول إلى حل، لكن لم يتوصلوا إلى نتيجة.

أقلقني أن طالب ماجستير من جنسية عربية، بدأ بعدي وناقسن قبلي، فقد طبع رسالته، وحدد له المشرف موعدًا للمناقشة. ظللت أكثر من عام ونصف أنتظر أن يبت المشرف في أمر الرسالة ولو بالرفض. ولكنه لم يفعل !

مجزرة حماة:

في أثناء ذلك كانت هناك بعض الأحداث الخطيرة تشغل الصحافة والرأي العام، وكنت أتابعها لأكتب عنها أو أعلق عليها؛ بحكم ارتباطي بالكتابة الصحفية، ومنها مجزرة حماة في سوريا التي جرت في الثاني من فبراير (شباط) 1982م، وحدثت نتيجة حملة عسكرية واسعة وغير مسبوقة شنّها النظام البعثي السوري ضد الإخوان المسلمين، وأودت بحياة عشرات الآلاف من أهالي مدينة حماة.

استمرت المذبحة 27 يومًا، وقام النظام السوري بتطويق مدينة حماة، وقصفها بالمدفعية، ومن ثم اجتياحها عسكريًّا، وارتكاب المجزرة المروعة التي خلفت عشرات الآلاف من الضحايا المدنيين والأرامل واليتامى، وتشير بعض

التقديرات أن الشهداء تجاوزوا 40 ألف قتيل (تقديرات اللجنة السورية لحقوق الإنسان)، وذكر الصحفي الأمريكي اليهودي " توماس فريدمان " أن رفعت الأسد تباهى بأنه قتل 38 ألفًا في حماة، وقضى معظمهم رميًا بالرصاص بشكل جماعي، ثم تم دفن الضحايا في مقابر جماعية.

تدمير كامل:

وتحدثت بعض التقارير عن صعوبة التعرف على جميع الضحايا؛ لأن هناك ما بين 10 آلاف و15 ألف مدني اختفوا منذ وقوع الأحداث، ولا يُعرف أهم أحياء في السجون العسكرية أم أموات. واضطر نحو 100 ألف نسمة إلى الهجرة عن المدينة بعد أن تم تدمير ثلث أحيائها تدميرًا كاملا.

لقد تم هدم أحياء بكاملها على رءوس أصحابها، من ضمنها هدم 88 مسجدًا وثلاث كنائس.

قاد الحملة الدموية العقيد رفعت الأسد شقيق حافظ الأسد، حيث كان على رأس قوات مدربة تدريبًا قاسيًا من الجيش النظامي ووحدات من الأمن السري؛ بهدف القضاء على المعارضة واجتثاثها. وتكونت الحملة من قوات سرايا الدّفاع، واللواء 47 دبابات، واللواء 21 ميكانيك، والفوج 21 إنزال جوّي (قوات خاصّة).

فضلا عن مجموعات القمع من مخابرات وفصائل حزبية مسلّحة.

استئصال وتأديب:

وأفادت التقارير التي نشرتها الصحافة الأجنبية عن تلك المجزرة أن النظام البعثي النصيري منح القوات العسكرية كامل الصلاحيات لضرب المعارضة واستئصالها، وتأديب المتعاطفين معها، وفرض تعتيمًا على الأخبار؛ لتفادي الاحتجاجات الشعبية والإدانة الخارجية.

زعم النظام البعثي النصيري أن جماعة الإخوان المسلمين - التي تمثل المعارضة الأساسية - قامت بتسليح عدد من كوادرها، ونفذت اغتيالات وأعمال عنف، من بينها قتل مجموعة من طلاب مدرسة المدفعية في يونيو (حزيران) 1979م بمدينة حلب شمال سوريا.

نفى الإخوان هذا الزعم، وتبرأ قادتها من أحداث مدرسة المدفعية. ثم وقعت محاولة اغتيال فاشلة لحافظ الأسد في 20 من حزيران عام 1980، قام بعدها بحظر الجماعة، وشن حملة تصفية واسعة في صفوفها، وأصدر القانون 49 عام 1980م، الذي يعاقب بالإعدام كل من ينتمي لها.

الأقلية الطائفية:

وكان حافظ الأسد (1930 - 2000م) الذي سطا على الحكم في سوريا عام 1970م، من أقلية طائفية تسمى العلوية، واسمها الحقيقي النصيرية، وتمثل حوالي 10 ٪ من تعداد الشعب السوري، وهذه الأقلية لها تاريخ غير طيّب منذ الحروب الصليبية حتى اليوم، ودائمًا ترتبط بالغزاة الذين يستبيحون سوريا وما حولها. وقد ولد الأسد في مدينة اسمها القرداحة بمحافظة اللاذقية لأسرة فقيرة تعمل في الفلاحة. وهو أول من نال تعليمًا رسميًّا في عائلته، وفي اللاذقية أتم تعليمه الثانوي في مدرسة الشهيد جول جمال، ونال شهادة الفرع العلمي، ولم يتمكن من دخول كلية الطب في الجامعة اليسوعية في بيروت كما كان يتمنى؛ لتردي أوضاعه المادية والاجتماعية؛ لذا التحق بالأكاديمية العسكرية في حمص عام 1952؛ ومن ثم التحق بالكلية الجوية، ليتخرج منها برتبة ملازم طيار عام 1955 ويشارك بعدها ببطولة الألعاب الجوية ويفوز بها.

تنظيم سري:

كان الأسد قد انضم لحزب البعث عام 1946 عندما شكل رسميًّا أول فرع له في اللاذقية. كما كان رئيس فرع الاتحاد الوطني للطلبة في محافظة اللاذقية، ثم رئيسًا لاتحاد الطلبة في سوريا.

بعد سقوط حكم أديب الشيشكلي واغتيال العقيد عدنان المالكي، انحسم الصراع الدائر بين الحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب البعث العربي الاشتراكي لصالح البعثيين؛ مما سمح بزيادة نشاطهم، وحصولهم على امتيازات استفاد منها حافظ الأسد، حيث اختير للذهاب إلى مصر للتدرب على قيادة الطائرات النفاثة؛ ومن ثم أرسل إلى الاتحاد السوفيتي ليتلقى

تدريبًا إضافيًّا على الطيران الليلي بطائرات ميج 15 وميج 17 التي تزود بها سلاح الجو السوري.

قام مع عدد من رفاقه بتشكيل تنظيم سري عام 1960، عرف باللجنة العسكرية - حكمت سوريا فيما بعد - وشاركت في الانقلابات التي حدثت في سوريا مطلع الستينيات. رفض مع رفاقه قرار قيادة حزب البعث بحل الحزب عام 1958؛ استجابة لشروط الرئيس جمال عبد الناصر لتحقيق الوحدة. اعتقل مع عدد من رفاقه في اللجنة العسكرية في مصر لمدة 44 يومًا؛ بسبب موافقتهم على الانفصال، وأطلق سراحهم بعد ذلك، وأعيدوا إلى سوريا في إطار عملية تبادل مع ضباط مصريين، وأحيل إلى الخدمة المدنية.

انقلابات:

بعد انقلاب حزب البعث على السلطة في 8 مارس (آذار) 1963، أعيد إلى الخدمة بمساعدة رفيقه في اللجنة العسكرية آنذاك المقدم صلاح جديد، ورقي بعدها في عام 1964 من رتبة رائد إلى رتبة لواء دفعة واحدة، (كما حدث مع عبد الحكيم عامر في مصر، وكلاهما كان صانعًا تاريخيًّا لهزيمة 1967م المروعة !). وعين قائدًا للقوات الجوية والدفاع الجوي. وشارك بقيادة صلاح جديد في 23 فبراير (شباط) 1966 بالانقلاب على القيادة القومية لحزب البعث؛ ليتولى صلاح جديد السيطرة على الحزب والحكم في سوريا، بينما تولى الأسد وزارة الدفاع.

بدأت الخلافات بالظهور بينه وبين صلاح جديد بعد الهزيمة في حرب 1967، ووصلت إلى أوجها في أحداث سبتمبر (أيلول) الأسود في الأردن عام 1970، وتمكن في 16 نوفمبر (تشرين الثاني) 1970 من الانقلاب على صلاح جديد ورئيس الجمهورية نور الدين الأتاسي، وسجنهما مع العديد من الرفاق، وذلك فيما يعرف بالحركة التصحيحية. وتولى رئاسة مجلس الوزراء ووزارة الدفاع في 21 نوفمبر (تشرين الثاني) 1970، وصار بعدها

بأسابيع رئيسًا للجمهورية العربية السورية لمدة سبع سنوات، بعد إجراء استفتاء شعبي، ليكون أول رئيس علوي في التاريخ السوري. وبعدها أعيد انتخابه في استفتاءات متتابعة أعوام 1978 و 1985 و 1992 و 1999.

التمكين الطائفي:

التزم الأسد بالأيديولوجيا البعثية، والاتجاه نحو العلمانية، والتمكين لطائفته في الجيش ومؤسسات الدولة. وتحولت الأغلبية السنية في سوريا إلى أقلية مهمشة، لا يتولى منها أحد منصبًا إلا أفراد منافقون من أصحاب المصالح.

كانت مجزرة حماة ترسيخًا للحكم العلوي (النصيري) على مدى يقرب من نصف قرن حتى كتابة هذه السطور، حيث أكمل ابنه بشار - الذي تولى الحكم من بعده - تدمير معظم المدن السورية، وقتل نحو ثلاثمائة ألف سوري، وتهجير ما يقرب من نصف الشعب السوري خارج البلاد حتى كتابة هذه السطور.

وشارك حافظ الأسد في مذبحة أخرى في العام نفسه، ولكن في لبنان، حيث تدخل بسبب الحرب الأهلية التي أشعلها المارون ضد الفلسطينين والمسلمين السنة، وذبح اللاجئين في مخيم تل الزعتر.

صبرا وشاتيلا:

بيد أن المذبحة المروعة للاجئين الفلسطينين كانت في صبرا وشاتيلا، ووقعت في 16 سبتمبر 1982 واستمرت لمدة ثلاثة أيام على يد نصارى لبنان المارون، ممثلين في حزب الكتائب اللبناني وجيش لبنان الجنوبي، الذي كان يقوده الخائن سعد حداد، والجيش الصهيوني.

تم تطويق مخيم صبرا وشاتيلا تطويقًا كاملا بقوات جيش لبنان الجنوبي والجيش الصهيوني بقيادة آرئيل شارون ورفائيل إيتان، وقوات الكتائب المارونية بقيادة المدعو إيلي حبيقة. وقامت القوات المارونية بالدخول إلى المخيم، وبدأت - بدم بارد - تنفيذ المجزرة التي هزت العالم، ودونما رحمة، وبعيدا عن الإعلام، وكانت قد استخدمت الأسلحة البيضاء وغيرها في

عمليات التصفية لسكان المخيم العزل، وكانت مهمة الجيش الصهيوني محاصرة المخيم وإنارته ليلا بالقنابل المضيئة.

وتتحدث بعض الروايات أن ثلاث فرق مسلحة دخلت إلى المخيم - ويتكون كل منها من خمسين مسلحًا - بحجة وجود 1500 مسلح فلسطيني داخل المخيم. وقامت المجموعات المارونية اللبنانية بالإطباق على سكان المخيم، وأخذوا يقتلون المدنيين قتلا بلا هوادة .. أطفالٌ في سن الثالثة والرابعة وُجدوا غرقى في دمائهم، حوامل بقرت بُطونهن، ونساء تم اغتصابهن قبل قتلهن، رجال وشيوخ ذُبحوا وقُتلوا، وكل من حاول الهرب كان القتل مصيره .. 48 ساعة وأكثر من القتل المستمر وسماء المخيم مغطاة بنيران القنابل المضيئة.

مسئولية مباشرة:

أحكمت الآليات الإسرائيلة إغلاقَ كل مداخل النجاة إلى المخيم، ولم يُسمح للصحفيين ولا وكالات الأنباء بالدخول إلا بعد انتهاء المجزرة حين استفاق العالم على مذبحة من أبشع المذابح في تاريخ البشرية، ووصل عدد الشهداء في المذبحة إلى ما يقرب من 4000 شهيد من الرجال والأطفال والنساء والشيوخ المدنيين العزل من السلاح.

وقد حملت لجنة تحقيق صهيونية سميت " لجنة كاهن " في 7 فبراير1983 وزير الدفاع الإسرائيلي أرئيل شارون مسئولية مباشرة عن المذبحة؛ إذ تجاهل إمكانية وقوعها، ولم يسع للحيلولة دونها. كذلك انتقدت اللجنة رئيس الوزراء مناحيم بيغن، ووزير الخارجيةٍ إسحاق شامير، ورئيس أركان الجيش رفائيل إيتان، وقادة المخابرات، قائلةً إنهم لم يقوموا بما يكفي للحيلولة دون المذبحة أو لإيقافها حينما بدأت. رفض أرئيل شارون قرار اللجنة، واستقال من منصبه عندما تكاثرت الضغوط عليه.

إلا أنه بعد ذلك تم انتخابه رئيسًا للحكومة، وقام بمجازر غيرها في الأراضي الفلسطينية، ولم يتم محاكمته مع ثبوت التهم عليه.

مكافأة القتلة:

في سوريا لم يتم أي تحقيق في مذابح حماة أو لبنان، بل كوفئ قادة عمليات الذبح وأتباعهم بالترقيات العسكرية أو المناصب الحكومية، كما حدث مع محمد حربة محافظ حماه، الذي صار وزيرًا في حكومة الأسد.

وفي الوقت نفسه، كانت حكومة العلويين النصيريين تفتح مزيدًا من السجون البشعة في الصحراء، وتضع فيها عشرات الآلاف من الإخوان وغيرهم، لمدد طويلة لا آخر لها، وقد مات كثيرون تحت ضراوة التعذيب ووحشيته وقسوته.

ومن المفارقات أن شخصًا غير مسلم كان مبعوثا في باريس لدراسة الفنون، تلفظ بنكتة ضد الحكومة، فترقبوا وصوله إلى مطار دمشق وهو قادم ليقضي الإجازة الصيفية في وطنه، وأخذوه ليلقوا به في يد من لا يرحم، ويبقى سنوات طويلة تحت التعذيب البشع في سجن صحراوي لا يعرف أين هو ؟ ولحسن الحظ أن هذا الشخص سجل معاناته ومعاناة رفاق السجن الذين بقوا على قيد الحياة، مع تفاصيل مروعة في كتاب اسمه "القوقعة"، يؤكد على وحشية النظام العلوي النصيري وبشاعته. والعجيب أن هذا النظام الدموي يسمي نفسه نظام المقاومة والممانعة، وهو الذي لم يطلق رصاصة واحدة تجاه العدو الصهيوني الذي يحتل الجولان على مدى أربعين عامًا ! في الوقت الذي يقصف فيه مدن سوريا وقراها بالطائرات والصواريخ والمدفعية والدبابات والبراميل المتفجرة ! ويتفوق الابن بشار على أبيه حافظ في سحق المدنيين وتهجيرهم إلى أركان المعمورة الأربعة !

منبر مهم:

كانت " الاعتصام " منبرًا مهمًّا للتعبير عن مأساة الشعب السوري تحت حكم حزب البعث اسما، والحكم العلوي النصيري الطائفي فعلا، فنشرت على صفحاتها ما يجري على أرض الشام الحبيبة من قهر واستبداد واستباحة لآدمية البشر. كما نشرت كتبًا عن الطائفة النصيرية ومواقفها المخزية على مدى التاريخ الإسلامي، حين انضمت للصليبيين في أثناء الحروب الصليبية، وهجومهم الوحشي على بلاد المسلمين، حتى انحيازهم الخياني للاحتلال الفرنسي في العصر الحديث، كما نشرت فتاوى ابن تيمية في عقيدتهم ومذهبهم، وكتبًا أخرى تكشف المذابح التي قام بها

حافظ الأسد، وانسحابه الخياني من الجولان قبل أن تطأها قدم جندي يهودي عام 1967م، وما قيل عن الثمن الذي تقاضاه نظير خيانته، وكان يومها وزيرا للدفاع؛ مما جعل اليهود في وضع إستراتيجي ممتاز على قمة الجولان.

سقوط الجولان:

سألت اللواء الركن محمود شيت خطاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ - وهو من القادة العسكريين العراقيين العظام في العالم العربي - ذات يوم عن سقوط الجولان، وكيف تم بسهولة شديدة، فأخبرني أن كتيبة سورية واحدة من المشاة في الهضبة، كان يمكنها أن تمنع سقوطها أو احتلالها، ولكنهم سحبوا كل القوات السورية قبل أن يصل الجنود اليهود.

عرفت من الكتاب السوريين الذي عاشوا في المنافي صحفيًّا وأديبًا وفنانًا موهوبًا هو " شريف الراس"، الذي تُوفّي في العاصمة الأردنية عمّان عام 2000م عن عمر يقارب السبعين عامًا، وهو من حماه، ويتميز الرجل بحسه الساخر، وقدرته على الفكاهة في قلب الأحزان، ومع أنه لم يكن من المنتمين إلى التيار الإسلامي، فقد حضر إلى " الاعتصام " حين عرف أنها تدافع عن الشعب السوري وحريته وحقه في الحياة الكريمة.

طاحون الشيطان:

قرأت لشريف الراس رواية جميلة اسمها " طاحون الشيطان " – فيما أذكر – وكتبت عنها مقالا ؛ لأنها تفضح الفساد الذي تعيشه الحكومة العلوية النصيرية في دمشق. يحكي عن والديه فيقول:

" توفي والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أواخر عام 1958، وكانت أمنيته أن أسافر إلى مصر للدراسة في الأزهر، لكنني كنت راغبًا بالسفر إلى مصر لدراسة فن الرسم، فكان الحل الوسط أن أنتسب إلى جامعة دمشق عام 1952 - قسم الفلسفة.

وتوفيت والدتي أديبة بنت الشيخ رضا الصباغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد والدي بعشر سنوات، وكم آلمني أن غربتي في بيروت آنذاك (1968) حالت دون سفري إلى

حماه لتشييعها، ذلك أنني منذ 1965 لم أتمكن من العودة إلى سوريا أبدًا.

ماتت رحمها الله بتفتت الكبد، لكثرة ما بذلت من جهد في هذه الحياة الصعبة بعد أن أنجبت اثني عشر ولدًا، ثلاث إناث وتسعة ذكور. وسافَرَتْ إلى الحج ثلاث مرات .. وكان الحلم الأكبر في حياتي أن أرتمي باكيًا على قبرها إذا كتب الله لي أن أعود إلى الوطن، ولكن الطاغية حافظ الأسد نسف قبرها وقبر أبي أثناء المذبحة، فطار الحلم ".

وقد ترك شريف الراس مؤلفات كثيرة، منها ما يرصد الجرح السوري، ومنها روايات ومسرحيات ساخرة، بالإضافة إلى كتب عديدة للأطفال العرب في الجغرافيا والتاريخ والتلوين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الكفن ليس له جيوب:

كان نظام حسني مبارك يغازل المصريين في بدايات حكمه بأن الكفن ليس له جيوب، وأنه يحارب الفساد، وأنه يجمع المصريين على الوحدة من أجل العمل والبناء، وأنه يقتدي بعمر بن الخطاب؛ مما دفعني أن أكتب في جريدة النور مقالا، أدعوه فيه أن يطبق منهج عمر في حياة المصريين، وخاب ظني فيما بعد. فقد كانت أذرعه الأمنية والإعلامية تهيئ لاتجاهات أخرى، ثم إن زوجه التي أطلق عليها سيدة مصر الأولى؛ تيمنًا باللقب الذي أطلق على جيهان صفوت رءوف (زوجة الرئيس الراحل أنو السادات)، بدأت تعيد سيرة سلفتها، وتضع نفسها موضع الرئيسة الموازية التي تأمر وتنهى وتقرر وترفض؛ مما أتاح الفرصة للمتسلقين والوصوليين، وخاصة من أعضاء التنظيم الطليعي الذي شكله عبد الناصر ليصنع منهم بصاصين وكتاب تقارير كي يحتلوا مناصب رفيعة ووسيطة، فوصلوا إلى وظائف مهمة وحساسة في التعليم والإعلام والثقافة والصحافة والاقتصاد والوزارات المختلفة، فضلا عن التنظيم الحزبي الذي ترعاه السلطة وهو الحزب الوطني، وكأن النظام الناصري عاد مرة أخرى !

الخفير والوزير:

بدأت القبضة الأمنية تزداد قوة، وأخذ جهاز أمن الدولة يتدخل في كل صغيرة وكبيرة في شئون البلاد والعباد. لم يتوقف الأمر على التدخل في شئون التعيينات بالوظائف الحساسة، ولكنه تعداها إلى كل شيء تقريبًا،

بدءًا من تعيين الخفير إلى تكليف الوزير. ولكن الأخطر كان متابعة كل ما يتعلق بالإسلام، ولو كان أمرًا هامشيًّا.

بعد تكوين رابطة الأدب الإسلامي العالمية في الرياض عام 1984م، كلفتني أن أكون مندوبًا لها في مصر، وهي مهمة رمزية دون مقابل. نشر الخبر في جريدة " الأحرار " التي كنت أنشر بها بعض مقالاتي. لم أتوقع ما جرى بعد نشر الخبر، فقد جاء إليّ في بيتي بالقرية من يطلب مني أن أذهب إلى الرائد فلان في الجهاز الأمني بدمنهور مع التشديد على عدم التخلف.

ذهبت وانتظرت طويلا حتى سمحوا لي بمقابلة الباشا، وفي المقابلة سألني عن موضوع الرابطة وأبعاده، ثم أخذ يستفسر عن علاقتي بالإخوان وعمن أعرف منهم. عرفت أن الباشا من إحدى القرى التي تبعد عنا نحو عشرين كيلو مترًا، وأنه ينتسب إلى عائلة معروفة، كان أحد أفرادها شيخًا من شيوخ المعهد الديني أيام كنت طالبًا فيه أواخر الخمسينيات، فبادرته بالسؤال عنه وعن أحواله؛ لأوضح له أنني أعرفه وأعرف عائلته، وأن قريبه يعرفني جيدًا، ثم – وهو الأهم – أشعره أنني لست من الذين يهتمون بالاستدعاء والملاحقة والمتابعة كما يسمونها.

عرفت فيما بعد أن هناك من يتابعني على هيئات مختلفة، وهناك من يأتي إلى القرية ليسأل عني ويتحرى عن أحوالي بصورة وأخرى، لدرجة أنني عندما سافرت عام 1989 للعمل في كلية المعلمين بالرياض، وجدت أن تصريح العمل الخاص بي تأخر كثيرًا ولم يصدر. ترددت عدة أيام على الجهة التي تصدر التصاريح فلم أجد جوابًا شافيًا. اتصلت بأحد معارفي ممن يعملون في جهة حكومية وشرحت له الموقف، فأبلغني بعد أيام أن الموضوع عند الباشا الذي زرته قبل سنوات، ولابد من الذهاب إليه.

مصر كويسة:

في لقائي معه قدم لي الليمون، وبابتسامة باهتة قال لي:

- لماذا تريد أن تتركنا ؟ مصر كويسة !

قلت له:

- سأمثل مصر الكويسة هناك !

قال لي:

– اذهب إلى مكتب التصاريح وخذ تصريحك !

في أثناء السفر أعبر من الجوازات عاديًّا مثل بقية المسافرين، وعند العودة يُطلب مني الانتظار، حتى يُقدّم الجواز إلى آخرين في غرفة مجاورة، ويؤخذ رأيهم، وبعد فترة تطول أو تقصر حسب الشخص أو الأشخاص المسئولين، يُنادى عليّ وعلى آخرين، ونتسلم الجوازات ونمضي. حاولت في مرات لاحقة أن أرى ما يخصّني على جهاز الكمبيوتر، فوجدتُ مدوّنا أمامي باللون الأحمر: " مطلوب لاحق " – بالطبع لم يهتموا باللغة ويكتبوا " لاحقا " – ولكن القوم لهم لغتهم وأسلوبهم، وظل الأمر قائمًا حتى اليوم.

مطلوب فورًا:

في إحدى الإجازات أخذوا جواز السفر الخاص بنجلي، وكان طفلا في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، ورأيت على الكمبيوتر أنه مطلوب فورًا ! كان معي الأولاد وأمهم، وجلس الأولاد يخوّفون أخاهم، وهو بحسّ طفولي يفخر أنه مطلوب فورا لأنه بطل ! حاولت أن أهدئهم؛ فالمنتظرون لجوازاتهم مثلنا يراقبون الأطفال ويضحكون، وكان معي زميل ملتح رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا علاقة له بالسياسة أو الكتابة أبدا، وكانت معه والدته المسنّة، وحجزوا جوازه، فثار وغضب، وخاصة بعد أن تأخر تسليم الجواز. هدّأته وحاولت أن أضاحكه وطلبت من أمه أن تدعو لنا، فرفعت يديها – رحمها الله – وراحت تدعو بإخلاص.

بعد انتظار غير قصير، تسلمنا الجوازات ومضينا لاستلام الحقائب، ولكن في القلب غُصّة مما يجري ويحدث بلا مسوّغ. فالأمن أكبر من هذه الأمور، واتجاهه ينبغي أن يكون نحو اللصوص والفاسدين، والذين يتآمرون على الوطن، أما من يسعى إلى الإصلاح والإرشاد، وبناء الوطن على أسس سليمة – ولو اختلف مع النظام – فلا تجوز معه هذه المعاملة. تشكو الحكومات المتتابعة أن المواطنين سلبيون تجاه وطنهم، وعندما ينهض أحدهم بالرأي والتوجيه فإنه يُعامل معاملة الأعداء !

أحزاب الصحف:

على كل كانت هناك في هذه الفترة صحف حزبية تقود المعارضة باسم أحزابها التي لم تكن لها قواعد شعبية ذات وزن كبير، لدرجة أنه كان يقال

إنها أحزاب الصحف، أو أحزاب كرتونية أو ديكورية، ولكن هذه الصحف - على أية حال - غيّرت واقع الصحافة الحكومية التي كانت تقدم الصوت الواحد والفكر الواحد والاتجاه الواحد الذي تعبر عنه السلطة، فأخذت لغتها تحاول التعبير عن بعض القضايا التي لم يكن الاقتراب منها ممكنًا من قبل، وصار الهجوم على رئيس الوزراء ورئيس مجلس الشعب وكبار رجال الحكم أمرًا ممكنًا ومتاحًا بل عاديًّا. الطرف الوحيد الذي لا يقترب منه أحد هو الرئيس وأسرته.

وبصفة عامة، لم يسمح للمعارضة الحصول على مقاعد ذات وزن. الأغلبية الساحقة كانت للحزب الوطني؛ بحكم تقاطع مصالح الناس مع السلطة، أو بالتزوير الذي كان أمرًا مألوفًا. وكانت بعض الأحزاب تلجأ إلى التحالف مع الإخوان المسلمين للحصول على عدد معقول من المقاعد، ولكنه ليس مؤثرًا إلى الدرجة التي تهدد اتخاذ القرارات، وإن كان يزعج السلطات، ويفرض عليها أن تفكر لتفادي المآزق التي يمكن أن تقع فيها - إعلاميًّا على الأقل - بسبب المعارضة.

جائزة الملك فيصل:

من الأحداث التي شغلت الوسط الأدبي عام 1984 حصول العلامة محمود محمد شاكر (1909 - 1997م) على جائزة الملك فيصل في اللغة العربية والأدب، وحصل معه الشيخ مصطفى الزرقا (1904 - 1999م) - من حلب بسوريا - على الجائزة في الدراسات الإسلامية.

في الستينيات من القرن الماضي شغفت بكتابات شاكر المطولة بمجلة الرسالة (الإصدار الثاني). كتاباته لها مذاق خاص، غزير المعارف والثقافة. ردّ على لويس عوض - الكاتب المدلل من قبل نظام البكباشي الأرعن المهزوم دائمًا، الذي أتاح له الهيمنة على وسائط النشر الثقافي، وعيّنه مستشارًا ثقافيًّا للأهرام، فأصبح محصنًا ضد النقد والمراجعة والتصويب، وجاء شاكر ليثبت هشاشته وسطحيته، وادعاءه، وكشف عن قصوره العلمي والفكري في الأدبين العربي والأجنبي. كتب شاكر ثلاثًا وثلاثين مقالة طويلة، جمعت في مجلدين تحت عنوان " أباطيل وأسمار "، وانتهت المقالات

بإغلاق مجلات وزارة الثقافة جميعًا (الرسالة، الثقافة، القصة، الشعر، الفكر المعاصر، الفنون الشعبية)، وغُيِّب شاكر وراء الأسوار في محنة سوداء.

دفاع عن العربية:

دافع أبو فهر " محمود محمد شاكر " عن العربية في مواجهة التغريب. وحقق العديد من كتب التراث، منها: تفسير الطبري (16 جزءًا)، طبقات فحول الشعراء (مجلدان)، تهذيب الآثار للطبري (6 مجلدات) ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني .. وشاكر لا يحب أن يوصف بأنه محقق لنصوص التراث العربي، وإنما يحب أن يوصف بأنه قارئ وضابط وشارح لها، وأقام منهجه الخاص في الشعر وسماه منهج التذوق. خاض الكثير من المعارك الأدبية حول أصالة الثقافة العربية، ومصادر الشعر الجاهلي، وقد كتبت عن هذه المعارك دراسة طويلة نشرتها مجلة الأدب الإسلامي.

حفظ شاكر ديوان المتنبي كاملا في فترة مبكرة، وقد شغله المتنبي لدرجة أنه كتب عنوانًا في هذا الكتاب: " المتنبي .. ليتني ما عرفته ! ".

وأحدث كتابه عن المتنبي الذي نشرته المقتطف في عدد خاص عام 1936م صدى كبيرًا في حينه، ثم نما هذا الكتاب بعد ذلك وتطور ليصدر في مجلدين كبيرين، تحملان كثيرًا من القضايا، لعل أهمها: " رسالة في الطريق إلى ثقافتنا " التي غيّرت كثيرًا من المسلمات المغلوطة المتداولة.

الاعتزال:

شهد شباب شاكر حركة ونشاطًا ورغبة في تحرير الأمة، وكان يكتب في الشئون العامة، إلى جانب اهتمامه بالنشاط الأدبي والعناية بالتراث، ولعله كان من أوائل الذين تنبأوا بما جرى في فلسطين وحذر منه، مثل أستاذه مصطفى صادق الرافعي، وبعد انقلاب 1952 اعتزل الحياة الأدبية، واكتفى بندوته الأسبوعية التي يحضرها أدباء مرموقون وباحثون من مصر والدول العربية.

ولم يعد للكتابة في المجلات إلا عندما نشر لويس عوض في " الأهرام " أباطيله عن أبي العلاء المعري، فامتشق القلم ليرد عليه، ودفع الثمن الغالي، وبعد سنوات طوال جذبه صديقه وعضو ندوته الأسبوعية يحيى حقي؛

ليكتب في مجلة المجلة التي كان يرأس تحريرها مجموعة من المقالات المهمة جُمعت فيما بعد بعنوان: " نمط صعب ونمط مخيف ".

لم يكتب بعد ذلك غير مقالة قصيرة واحدة نشرها في الأهرام، لا أذكر موضوعها الآن، ولكنه كان مسكونًا بحقيقة فساد الحياة الأدبية، ورفض هذه الحياة، فقد تجاهلته لأنه يتبنى التصور الإسلامي، وغمطته حقه، ولأمر ما غير واضح منحوه - قبيل رحيله - جائزة الدولة التقديرية التي حظي بها أشباه الأدباء والكتاب، وبعضهم لا يحسن الإملاء ولا قواعد النحو، ولكنها الحياة الأدبية الفاسدة التي تجعل الجوائز ذات بعد غير أدبي في كل الأحوال.

القوس العذراء:

غفلت الحياة الأدبية عن شاعرية شاكر، وقدرته الفذة على النظم القوي المؤثر؛ مما دفع إحسان عباس إلى القول: « لا ريب عندي في أن الشعر الحديث قد ضل كثيرًا حين لم يهتد إلى " القوس العذراء "، وأن الناقد الحديث كان يعشو إلى أضواء خادعة، حين انقاد وراء التأثر بشعر أجنبي ورموز غريبة، ولم يستطع أن يكتشف أدواته في التراث كما فعلت القوس العذراء ». والقوس العذراء هي القصيدة الطويلة التي كتبها شاكر ووصفها زكي نجيب محمود بأنها: « درة ساطعة هذه بين سائر الدرر، وآية هذه من الفن محكمة بين آيات الفن المحكمات، وقعت عليها وأنا أدور بالبصر العجلان في سوق الكتب الحديثة الصدور، فكنت - حين وقع عليها البصر - كمن كان ينبش في أديم الأرض بين المدر والحصى، ثم لاحت له بغتة - لتخطف منه البصر ببريقها - لؤلؤة، هو كتاب - القوس العذراء - من ست وسبعين صفحة صغيرة، رقمت أسطرها صفحة صفحة، كما ترقم حبات الجوهر الحر يضعها الخازن في صندوق الذخائر؛ لكي لا تفلت منها عن الرائي جوهرة، ولو قد كانت لي الكلمة عند طبع الكتاب، لأمرت بترقيم محتواه لفظة لفظة؛ لأن كل لفظة من كل سطر لؤلؤة ».

لقد نشرت القوس العذراء أول مرة في مجلة الكتاب عام 1371 هـ = 1952م، ثم نشرت بعد ذلك في كتاب أكثر من مرة.

وهناك ديوان شعري لشاكر جمع ونشر بعد رحيله بعنوان " اعصفي يا رياح وقصائد أخرى " ونشرته دار المدني عام 2011.

كلمة ذات دلالة:

بعد وفاته أصدر محبوه وتلامذته كتابًا ضخمًا بمناسبة بلوغه سن السبعين، عنوانه " دراسات عربية وإسلامية "، كما صدرت بعض الكتب الأخرى التي تتناول أدبه وحياته لعدد من الباحثين، منهم: محمود إبراهيم الرضواني، وعمر حسن القيام، وعايدة الشريف، ووائل حافظ خلف.

كما أصدرت مجلة الأدب الإسلامي الفصلية عددًا خاصًّا – العدد 16 - يتناول جوانب مختلفة من حياة الرجل.

وأحسب أن كلمة شاكر في الاحتفال بجائزة الملك فيصل، وأمام الحاضرين ومنهم الملك السعودي فهد بن عبد العزيز، كانت ذات مغزى ودلالة، حين أشار إلى موقفنا الحضاري، وتعرّض الأمة لمؤامرات الغرب وجرائمه على مدى قرون مضت.

نزيف:

رزقني الله بالابن الثاني " عبد الله " عام 1983، والابن الثالث أحمد عام 1984، وبعد نحو سبعة أشهر من مولده جرى لزوجتي حالة إجهاض في الشهور الأولى لحمل جديد .. كانت ليلة رهيبة .. نزيف، وطبيب القرية الذي يعمل في الوحدة المحلية يصف بعض الإبر التي توقف النزيف لكنها غير مجدية. اضطررت إلى استدعائه مرة أخرى في الهزيع الأخير من الليل ليصف نوعًا آخر من الإبر، ونطلب من أصحاب الصيدلية الوحيدة في القرية وتبعد عن البيت مسافة طويلة أن يفتحوها؛ لأن الحالة عاجلة وصعبة. في الصباح الباكر كان النزيف يهدد حياة المريضة، فأخبرتني إحدى السيدات بضرورة نقلها إلى البلدة المجاورة.

قريتنا بلا مواصلات منتظمة، ولا توجد سيارات دائمة للركاب ، هناك سيارة واحدة (ميكروباص) ملك لمجلس المدينة، وتمضي وفق خط سير على الجانب الآخر من القرية ناحية الترعة، في توقيتات رسمية معينة، لا تمكننا نحن المقيمين على شاطئ النهر من استخدامها.

بيجاما وشبشب:

كنت أقف أمام البيت ذاهلا أرتدي بيجاما وشبشب حمام، ولا أدري ماذا أفعل. أرسل الله إليّ بعد دقائق سيارة نقل صغيرة، يقودها أحد الجيران في طريقه إلى مكان ما .. ناديت عليه، وطلبت أن ينقلنا في الحال إلى مستشفى الرحمانية. استجاب الرجل، ووضعوا المريضة ملفوفة في بعض الأغطية بجوار السائق ومعها إحدى النساء من الأقارب، وركبت واقفاً بملابس المنزل مع بقية النساء اللائي حضرن للمعاونة في صندوق السيارة.

في المستشفى وجهونا بالإسعاف إلى دمنهور؛ لأنهم لا يستطيعون التصرف في الحالة، وهناك كادت المريضة أن تلفظ أنفاسها في مستشفى عام يشبه السوق. لا تعرف من المسئول، ولا أحد يجيبك أو يسعفك بوضوح. كان الأمر صعبًا، يسّره الله حين وصلنا القسم المختص، وأجارك الله من الغطرسة والاستعلاء لدى بعض أبناء جلدتنا، بدءا من العمال حتى الأطباء الذين لا يبالون بأحد. اصطدمت بأحدهم وتبادلنا كلامًا عنيفاً، ويبدو أن منظري بالملابس الداخلية شجعه على الاستهانة وسوء الأدب.

وقف النزيف:

في النهاية كانت المريضة قد دخلت إلى إحدى الغرف، واتخذوا اللازم لإمدادها بالمحاليل، والعقاقير التي توقف النزيف، وأنا واقف بالباب ومعي مجموعة النساء اللاتي جئن من القرية، بعد فترة – لا أعرف هل طالت أو قصرت – سرح فيها فكري بعيدا من أجل الأطفال الذين تركتهم في المنزل دون رعاية .. صحيح، تركت خبرًا لأبي وأمي في المنزل الآخر، ولكني أشفق عليهما؛ فهما مسنّان، وظروفهما الصحية تعوق عن الاهتمام والرعاية بالأطفال.

جاءني أحد الأطباء وقال لي:

– تفضل في المكتب يا دكتور .. !

استغربت اللهجة الجديدة، واتجهت إليه ببصري مستفهمًا:

– تفضل في المكتب .. المريضة بخير وتحسنت.

دخلت المكتب الذي يجلس فيه الأطباء، وعرفت منه أنها أفاقت، وسألتهم عني، فعرفوا منها أنني أدرّس في جامعة طنطا. اعتذر الطبيب عما بدر من

زميلـه الـذي اصـطدمت بـه عنـد حـضورنا إلى المسـتـشفى، وفهمـت منــه أن المريـضة سـتبقى الليلـة في المستـشفى؛ لإجـراء عمليـة خاصـة بإزالـة أثـر الإجهاض في المساء، ويمكنني في الصباح أن أحضر لاستلامها.

المريضة حية:

غادرنا المستشفى مع المساء، وكان منظري غريبًا وأنا أمضي في الشارع مع النساء. ركبنا القطار حتى الرحمانية، وانتظرنا سيارة تمرّ لتوصلنا إلى القرية.

رحت أسأل عن طفلي الرضيع " أحمد " .. عرفت أنه لدى إحدى الجارات التي أرضعته، وظل عندها هذه الليلة التي غابت فيها أمه في المستشفى. تعب أبي وأمي بسبب الأطفال وخاصة أحمد. محمد وعبد الله يأكلان ويلعبان، أما المشكلة فكانت في أحمد، الذي هيأ الله له الجارة التي استضافته وأرضعته واعتنت به، وصار أخا لأولادها.

في الليل اتفقت مع سيارة مجلس المدينة لتذهب بي إلى دمنهور .. وجدت المريضة حية .. استعادت ماء الوجه. رجعنا وقد قررت أمرًا ولم أعرف كيف أنفذه. بعد أيام شاهدت في مدخل الكلية إعلانًا عن بيع سيارات جديدة من طراز شعبي مطور مصريًّا عن ماركة الفيات. والمطلوب دفع مبلغ الحجز وقدره خمسمائة جنيه والباقي عند الاستلام. حجزت أقلها ثمنا بعد أن شاورت زميلا في الأمر، ووضعت بين يديه قصة ما جرى للمريضة حتى عادت سالمة بفضل الله.

حيص بيص:

تصورت أن استلام السيارة سيكون بعد شهور طويلة أكون فيها رتبت نفسي، ووفرت ثمنها. ولكن فوجئت بعد أسابيع قليلة أنهم يريدون بقية الثمن، والتوجه إلى شركة النصر للسيارات لتسلمها !

وقعت في حيص بيص - كما يقولون؛ فالثمن كله ليس موجودًا، ثم إنني لا أعرف كيف أقود السيارة. وضحكت فيما بيني وبين نفسي: لا أعرف ركوب الدراجة فكيف أقود سيارة ؟!

بفضل الله تم تدبير الأمور، واصطحبت صديقًا وذهبنا إلى القاهرة، وأحضرنا السيارة التي اخترناها بيضاء اللون.

تولى صديقي مشكورًا تدريبي على القيادة، وساعد على استجابتي هدوء الطرق أيامها .. كانت ترابية، يندر أن يمر عليها أحد، فضلا عن السيارات، وبعد أن كان الرعب يشملني حين أجلس خلف المقود، والعرق الغزير يسيل مني، وأتصور أنني سأطيح بمن يقابلني من البشر، صرت أهدأ رويدا رويدا، وكان الصديق يطمئنني بأن يده على فرملة اليد، يستخدمها عند الخطر.

بعد أسابيع استطعت أن أمضي وحدي بالسيارة إلى المدينة المجاورة، وبعد فترة صحبني الصديق على الطريق السريع ونحن في طريقنا إلى طنطا، وشيئًا فشيئًا أخذت الأمور تتحسن وتتحول القيادة إلى حركة آلية، وصارت معي رخصة قيادة.

طلبات المنزل:

وساعدتني السيارة في تحقيق غايات كثيرة بالنسبة للسفر والأسرة، وخاصة ما يتعلق بطلبات المنزل؛ من أغذية وخضروات وفاكهة ومستلزمات مختلفة، فضلا عن الذهاب إلى الأطباء عند اللزوم في أي وقت من الليل والنهار.

كانت معظم الطرق - وخاصة في القرية - غير مسفلتة أو غير مرصوفة، وكان هذا يسبب مشكلة في فصل الشتاء؛ حيث تحوّل الأمطارُ الشوارع إلى طرق مغلقة بسبب الأوحال، ولا تستطيع السيارة أن تعبرها؛ مما يدفع إلى ترك السيارة خارج القرية أو على مشارفها .. ولكن هذه الفترة كانت تمر بشكل ما.

تعرضت لأكثر من حادث بسبب السيارة، ولكن الله سلّم، وعندما أتذكر ما جرى ليلة النزيف الذي كاد يودي بالزوجة، أحمد الله أن هيأ لي السيارة، لأتجاوز مشكلات الحياة في الريف، الذي جذبني لأبقى فيه طول العمر، مع أن لي سكنًا في المدينة لم أستسغ العيش فيه إلا بعض ليال، أضطر فيها إلى متابعة بعض الأعمال الضرورية العاجلة.

لا أستطيع الآن قيادة السيارة .. يقوم أحد أبنائي بقيادتها ومرافقتي عندما تفرض الضرورة سفري. معظم الطرق صارت مرصوفة أو مسفلتة، خارج القرية أو داخلها، وتغيرت السيارة المتواضعة أكثر من مرة، بحيث صارت من النوع الآلي المريح .. أسأل الله السلامة في كل خطوة، والحمد لله على كل حال.

***

5 - مناقشات ومفاجآت

نصف مبنى:

مضت الأمور في الجامعة بصورة معقولة .. الكلية تشترك مع كلية الآداب في نصف مبنى، كان في الأصل مدرسة إعدادية للبنات، تحمل اسم السيدة عائشة. كان عدد الطلاب في الكليتين كبيرًا للغاية، وكانت المدرجات تضيق بهم في أثناء المحاضرت .. هناك أعداد كبيرة تقف طوال المحاضرة أو تتبادل المقاعد فيما بينها .. كان الوضع مزعجًا لدرجة أن المرور في الطرقات بالكلية كان صعبًا، وسط الكتل الآدمية التي تخرج أو تدخل أحد المدرجات.

ومع أن فكرة تقسيم أيام الأسبوع بين الطلاب؛ بحيث يحضر جزء من الطلاب في أيام معينة وجزء آخر في الأيام التالية، لم تكن قد ظهرت بعد - فإن الطلاب لم يكونوا يحضرون بانتظام؛ لأنهم لو حضروا جميعا لانهار المبنى بهم. وقد بدأ التفكير جديًّا في نقل إحدى الكليّتين إلى مبنى آخر، وهو ما تم بالفعل بعد سنتين أو ثلاث.

خلافات في الأقسام:

لاحظت أن العلاقة بين أعضاء هيئة التدريس متوترة في أقسام بعينها. هناك خلافات في الأقسام جميعًا، ولكنها محتملة إلا في بعضها، وخاصة في الأقسام التي تضم أعضاء ينتمون إلى الفكر اليساري أو الشيوعي أو التنظيم الطليعي الناصري. كانوا لا يكفّون عن نشر الخلافات على صفحات الصحف، والتشهير ببعضهم، دون مراعاة لحقوق الزمالة، أو الخجل من الطلاب الذين ينظرون إلى الأستاذ بعين الاحترام والتقدير، ويرونه مثالا يُحتذى في الأخلاق الطيّبة والسلوك الجميل.

كان الصراع في جوهره يدور حول الوصول إلى كرسي الإدارة في رئاسة القسم أو الوكالة أو العمادة. وكان المتصارعون يستخدمون كل الأسلحة المشروعة وغير المشروعة، وينتقل الأمر إلى التحقيقات ومجالس التأديب

التي تدين بعضهم أو تدينهم جميعًا، وتكون النتيجة إزاحة الخصوم من مناصبهم لتخلو لغيرهم.

نزاعات عقيمة:

وتتعجب من قضائهم جُلّ الوقت في هذه النزاعات العقيمة التي لا تنتج علمًا ولا فكرًا ولا معرفة، وهي نتيجة - فيما أتصور - للقصور الذي بنيت عليه الجامعات الإقليمية، فقد كانت الرغبة في إقامة الهياكل التعليمية الجامعية لاستيعاب الطلاب الذين يتكاثرون كل عام عاملا ضاغطًا في قبول أعضاء هيئات تدريس غير ناضجين علميًّا أو سلوكيًّا، ثم إنهم - في الأغلب - لا علاقة لهم بالتقاليد الجامعية، وهي نظم عرفية راسخة ومتوارثة منذ إقامة ما كان يسمى بالمدارس العليا في عهد محمد علي، فضلا عن تقاليد الدراسة العريقة في الأزهر الشريف، التي تؤكد علاقة الاحترام المتبادل فيما بين الأساتذة، وفيما بينهم وبين الطلاب من ناحية أخرى.

لقد تعايشت مع هيئات تدريس في مراحل التعليم المختلفة داخل مصر وخارجها، فلم أجد للخلافات مثل هذا الوضع الغريب الذي يطيح بكل شيء: العلم، الأخلاق، التقاليد؛ لدرجة أن تكون هناك غرف عمليات لإدارة الصراع، والاستعانة بمحامين ومستشارين قانونيين لمواجهة الأطراف الأخرى.

كان الخلاف بين مدرسي الابتدائي والإعدادي والثانوي أو المعلمين، ينتهي بمجرد توسط الزملاء الآخرين، وكأن لم يحدث شيء. مهما بلغ الخلاف من حدة، يصل إلى لحظة التسامح والتصافي، أما هنا فالأمر جد خطير، ومؤشر على انهيار التقاليد الجامعية، وتحطمها، خاصة بعد أن صار جهاز الأمن شريكًا مفروضًا على الجامعة وحركتها، فهناك من يتمسك بأهداب المسئولين الأمنيين؛ اعتقادا أن بيدهم مفتاح المناصب والمغانم والترقي، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وقد عالجت كثيرًا من هذه الظواهر في مقالات قصيرة وطويلة على مدى عقدين من الزمان مضيا.

طرف آخر:

الأدهى من ذلك دخول طرف آخر إلى حلبة الصراع في الجامعة، وهو طرف الإداريين. وهؤلاء أفضل حظًا من زملائهم الموظفين في إدارات الدولة الأخرى من حيث الدخل ومستوى العمل والبيئة التي يعملون فيها. ولأنهم في الجامعات الإقليمية جاءوا من إدارات مختلفة غير جامعية، فقد حمل بعضهم معه سلبياتها، وبعض أخلاقها المتدنّية، وهو ما جعلهم أبعد ما يكونون عن تقاليد الجامعة وقيمها، وللأسف فقد تناغموا مع عناصر من أعضاء هيئة التدريس، يماثلونهم سلوكًا وخلقًا؛ مما جعل البيروقراطية في الجامعة أحيانًا أشد وطأة من بيروقراطية الإدارات الحكومية المشهورة بالتخلف والفساد.

كان القسم العلمي الذي أنتمي إليه من أقل الأقسام العلمية في الخلافات، ربما لطبيعة مكوناته وأغلبهم من الأزهريين، أو الذين درسوا في الأزهر حتى المرحلة الثانوية ثم واصلوا دراستهم في دار العلوم، فكانت تربيتهم الإسلامية من وراء تساميهم عن الهبوط في خلافاتهم، ولكن هذا الوضع سيتغير بعد حين، عندما ينتقل معظمهم إلى كليات أخرى في الأزهر أو غيره أو إلى رحاب الله، ثم ينتقل من تبقى إلى القسم الأكاديمي بكلية الآداب؛ فتتبدل الأحوال وتنقلب الأوضاع، ويكون هناك صراع لا يتوقف لعلي أشير إليه فيما بعد.

نسخ الرسالة:

كنت مشغولا بالدكتوراه، وانتظار قرار المشرف الذي لا يهتم بأمري، وترددت على دار العلوم كثيرًا حتى جاء قراره بطبع الرسالة أخيرًا دون أن ينظر فيها نظرة تفصيلية أو يرشد إلى خلل أو قصور.

توكلت على الله، وسلمت الرسالة إلى ناسخ على الآلة الكاتبة، وكان ينسخها على ورق الحرير، كانوا يسمونه " استنسل "، وهو عبارة عن ورقة تضغط عليها الحروف (تخرمها) فتظهر على ورقة أسفل ورقة كربون تحت ورقة الحرير، ويتم التصحيح أولا على الورقة السفلى، ثم يتم التصحيح على الحرير من خلال حبر خاص يملأ التجويفات (الخروم) التي صنعتها حروف الآلة الكاتبة، بكتابة الكلمة الصحيحة أو مسحها. كان الأمر شاقًا في طبع رسالة ضخمة تقرب من خمسمائة صفحة من القطع الكبير، ثم

ترتيبها وجمعها، وإنتاج أكثر من عشر نسخ من الرسالة لتذهب كلها مرتبة إلى التجليد، ثم إلى الخطاط الذي يكتب العناوين بماء الذهب، وتنقل إلى القاهرة لتوزع على الجهات الرسمية ولجنة المناقشة.

استغرقت عملية إنجاز كتابة الرسالة حتى توزيعها عدة شهور، وشاركني بعض الزملاء في التصحيح والتصويب، وانتظرت تحديد موعد المناقشة.

جورباتشوف:

في تلك المرحلة كانت هناك أحداث محلية وعالمية شغلت الناس، ولكني انشغلت عنها بالرسالة، ولكن ما فرض نفسه بقوة، كان وصول الزعيم الروسي جورباتشوف إلى سدة الحكم في موسكو، وسقوط الترويكا أي الثلاثة الذين كانوا يحكمون الاتحاد السوفييتي.

ولم يكن المهم شخص جورباتشيف، ولكن المهم كان الفكر الذي جاء به وعبر عنه بفكرة البرويسترويكا، التي هزت أركان الدولة العظمى الثانية في العالم، ونسفت النظرية الشيوعية من جذورها، وأتاحت لدول أوربا الشرقية مع الاتحاد السوفييتي التمتع بالحرية بعد سبعين عامًا من حكم الاستبداد والديكتاتورية والمخابرات.

في 22 مايو 1985عُيّن ميخائيل جورباتشوف أمينًا عامًّا للجنة المركزية بالحزب الشيوعي السوفيتي. وهو من مواليد 2 مارس 1931، وأسندت إليه رئاسة الدولة في الاتحاد السوفييتي بين عامي 1988 و1991، ورئاسة الحزب الشيوعي السوفيتي بين أعوام 1985 و1991. وقد شارك رونالد ريجان في إنهاء الحرب الباردة، وحصل على جائزة نوبل للسلام عام 1990.

إعادة البناء:

وآتت فكرة البريسترويكا ثمارها في 26 ديسمبر 1991 عندما انهار الاتحاد السوفيتي بعد توقيع " بوريس يلتسن " على اتفاقية حل اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية، وتحول معظم الجمهوريات إلى دول مستقلة عن موسكو وسياستها.

وتعني فكرة البيريسترويكا « إعادة البناء » أو الإصلاحات الاقتصادية في الاتحاد السوفييتي وفقًا لسياسة تسمى " الجلاسنوست "، وتعني الشفافية أو المصارحة. وأدى ذلك إلى انهيار الاتحاد السوفييتي وتفكّكه سنة 1991.

كيف؟:

في الجلسة العامة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي – يونيه 1987 – قدم جورباتشوف فكرته الأساسية، التي وضعت القاعدة السياسية للإصلاح الاقتصادي للفترة المتبقية لوجود الاتحاد السوفييتي.

وفي يوليو 1987، وافق مجلس " السوفييت الأعلى " – وهو أعلى هيئة تشريعية سوفييتية – على مشروع " التزام الدولة " أو " مقاولات الدولة ". ولها حرية تحديد مستويات الإنتاج، بناء على طلب المستهلكين من الأفراد ومن الالتزامات الأخرى. ولم تعد الحكومة تتدخل لإنقاذ الالتزامات من خطر الإفلاس. لقد نقل القانون الجديد السيطرة على المقاولات من الوزارات إلى تجمعات عمّالية منتخبة. وتنحصر مسئوليات لجنة التخطيط الحكومي في تحديد الخطوط العريضة والتوجيهات العامّة، وأولويات الاستثمار القومي، وليس صياغة خطط الإنتاج التفصيلي.

عمليات تجارية:

سمح النظام الجديد لوزارات الفروع الاقتصادية والزراعية المتنوعة بأداء عمليات تجارية خارجية في القطاعات التابعة لها، بدل ما كانت عليه الحال من تواصل غير مباشر، عبر بيروقراطية مؤسسات وزارة التجارة. بالإضافة إلى ذلك، أصبح بإمكان ملتزمي الدولة من الجهات المناطقية والمحلية – وحتى الأفراد – القيام بعمليات تجارية خارجية.

التعديل الأكثر تأثيرًا الذي أدخله جورباتشوف على قطاع الاقتصاد الخارجي، سمح للأجانب بالاستثمار في الاتحاد السوفييتي على شكل مشاريع مشتركة مع الوزارات السوفييتية ومع ملتزمي الدولة والتعاونيات.

لم تفعل التغييرات الاقتصادية التي أدخلها جورباتشوف شيئًا ملموسًا لإعادة تنشيط اقتصاد الدولة المتبلّد في نهاية الثمانينيات. قلّلت الإصلاحات

من المركزية إلى حد ما، لكن بقي التحكم بالأسعار قائمًا، وكذلك عدم إمكانية تحويل الروبل، وبقيت معظم سيطرة الحكومة على وسائل الإنتاج.

زيادة النفقات:

بحلول 1990 كانت الحكومة قد خسرت السيطرة على الظروف الاقتصادية. ازدادت نفقات الدولة؛ بسبب ازدياد عدد المقاولات الخاسرة التي احتاجت لمعونة الدولة، واستمر دعم البضائع للمستهلكين. انخفضت عائدات الضرائب بسبب امتناع سلطات الجمهوريات والسلطات المحلية عن تقديمها للحكومة المركزية؛ بسبب روح الحكم الذاتي المناطقي المتنامية. وبسبب إنهاء السيطرة المركزية على قرارات الإنتاج، وخاصة في قطاع البضائع الاستهلاكية، كسرت علاقة العرض والطلب التقليدية، دون الإسهام في بناء علاقة عرض وطلب جديدة! وبالتالي، بدل أن تؤدي سياسات عدم المركزية التي قدمها جورباتشوف إلى سلاسة النظام الاقتصادي، خلقت هذه السياسات معوقات إنتاجية جديدة.

تقويض سلطة الحزب:

وبسبب سياسة الشفافية أو المصارحة، التي سهلت وصول الجمهور إلى المعلومات بعد عقود من القمع الحكومي والمشكلات الاجتماعية، بدأ تقويض سلطة الحزب الشيوعي.

في ثورات عام 1989 فقدت الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية الاتحاد، وسمحت الجلاسنوست (المصارحة) بظهور الإثنيات والقوميات، وجمهوريات عديدة، وخاصة في جمهوريات البلطيق، وجورجيا ومولدافيا، التي سعت لقدر أكبر من الحكم الذاتي.

محاولات جورباتشوف للإصلاح الاقتصادي لم تكن كافية، والحكومة السوفييتية تعاني من انخفاض أسعار النفط والغاز الطبيعي وآثار الغزو السوفييتي لأفغانستان، والصناعة عفا عليها الزمن وتفشي الفساد، وبحلول عام 1990 كانت الحكومة السوفييتية قد فقدت السيطرة على الأوضاع الاقتصادية. وفي نهاية عام 1991، كانت الذورة للأزمة الاقتصادية، ووقف الناس في طوابير طويلة؛ من أجل شراء حاجاتهم الأساسية، والمحظوظ هو من يحصل عليها.

بوريس يلتسن:

بدأ التوتر بين الاتحاد السوفييتي والسلطات الروسية، وحدث صراع مرير على السلطة بين جورباتشوف وبوريس يلتسن عمدة موسكو، الذي انتخب رئيسًا للجمهورية الروسية العليا الجديدة في مايو 1990.

حدث انقلاب لم ينجح ضد جورباتشوف، من كبار المسئولين السوفييت في 19 أغسطس 1991، ولكن تفكك الاتحاد أصبح حتميًّا. واستولت الحكومة الروسية على معظم مؤسسات الاتحاد السوفييتي فوق أراضيها. وانتهى الاتحاد السوفييتي رسميًّا في 25 ديسمبر 1991، وحل مكانه سياسيًّا الاتحاد الروسي.

استدعاء الدبابات:

عانت روسيا في التسعينيات من الركود الاقتصادي، وتكاثرت فيها الأحزاب الصغيرة ودخلت المجلس التشريعي (الدوما)، وفي 3 أكتوبر 1993 استدعى يلتسين الدبابات لقصف البيت الأبيض الروسي وإخراج معارضيه، واقتربت روسيا من حرب أهلية خطيرة. وحاولت جمهورية الشيشان الاستقلال في حربين دمويتين، ومع منتصف التسعينيات ازداد الفساد الاقتصادي، وفقدت الحكومة المركزية سيطرتها على المحليات، والبيروقراطية، والإقطاعيات الاقتصادية، وانهارت عائدات الضرائب. وقبل انتهاء اليوم الأول من عام 2000، قام يلتسين بإعلان مفاجئ عن استقالته، وترك الحكومة في أيدي رئيس الوزراء فلاديمير بوتين، الذي تكرر انتخابه رئيسا أكثر من مرة بعد أن أعاد الاستقرار إلى روسيا مع صديقه ديميديف، ودفع بالاقتصاد الروسي إلى الأمام.

الهيمنة على العرب:

لا ريب أن تفكك الاتحاد السوفييتي كان له تأثيره الكبير على العالم كله وفي مقدمته العالم العربي، فقد كانت دول عديدة مرتبطة بالاتحاد السوفييتي، وتعتمد عليه في سياستها الخارجية والاقتصادية، ولكن انهياره فتح المجال أمام الولايات المتحدة والغرب؛ للهيمنة على العالم العربي بصورة شبه تامة، وترتب على ذلك نتائج خطيرة ومدمرة، منها تدمير العراق

وأفغانستان وشرذمة الصومال، وبدء القلاقل في أنحاء عديدة من البلاد العربية.

أما الدول الشيوعية التي كانت مرتبطة بموسكو، فقد أفادت من انهيار الاتحاد السوفييتي؛ حيث سعت نحو الحرية والديمقراطية، وشعر مواطنوها بالكرامة، وقد توحدت ألمانيا الشرقية مع ألمانيا الغربية، واستطاعت هذه الدول أن تحقق تقدمًا اقتصاديًّا واستقرارًا سياسيًّا ملحوظًا. وللأسف، فإن الجمهوريات الإسلامية التي كانت منضوية تحت لواء الاتحاد السوفييتي لم تفد من تفككه شيئًا ذا بال؛ فقد ظلت تعاني من القهر والديكتاتورية، والحرمان من ثرواتها التي استمرت موسكو في نهبها، وقام الروس بمذابح وحشية في الشيشان، وفرضوا ديكتاتورًا تابعًا لهم، يأتمر بأمرهم، وينفذ أوامرهم، ويحقق مطالبهم.

التطبيع مع العدو:

وفي مصر اتجهت الأمور إلى التماهي مع الولايات المتحدة، واتجهت السلطة – بعد مصرع السادات – إلى توثيق علاقتها بالعدو في فلسطين المحتلة، ورأينا وزراء مصريين يتعاملون معه بصورة طبيعية، ويفتحون الباب على مصراعيه لوجود صهاينة بين ظهرانينا، وخاصة في المجالات الزراعية والتعليمية والثقافية والسياحية والطيران، وكان اليساريون من أكثر الناس قبولا بما سمي التطبيع مع العدو، وتناثرت أنباء عن زيارات صحفيين وإعلاميين منهم ومن غيرهم إلى الكيان الصهيوني، خرقًا لقرارات نقابية بتحريم الاتصال مع الصهاينة ومؤسساتهم.

صحيح أن بعض فصائلهم اليسارية تظاهرت عام 1981 عندما سمحت السلطة للعدو أن يشارك بجناح في معرض الكتاب الدولي، واعتقل بعضهم في أثناء المظاهرات ثم أفرج عنه .. ولكن أغلب الظن أن هذه المظاهرات كانت موجهة إلى السادات الذي كانوا يكرهونه كراهية شديدة؛ لأنه نحّى بعض زعمائهم عن وظائفهم العليا التي كانوا يشغلونها منذ عهد جمال عبد الناصر، أو البكباشي الأرعن المهزوم دائمًا، الذي مكّن لهم في السياسة والإعلام والثقافة والصحافة والتنظيمات السرية والعلنية.

وفاة شاعر:

وقد أدت مظاهرات معرض الكتاب إلى جدل أدى إلى وفاة الشاعر صلاح عبد الصبور (1931 - 1981)؛ إثر تعرضه إلى نوبة قلبية حادة أودت بحياته، فقد حدثت مشاجرة كلامية ساخنة بينه وبين رسام يساري مثله، اسمه بهجت عثمان ويساريين آخرين، في منزل أحد الأشخاص؛ بسبب مشاركة العدو في معرض الكتاب، الذي كان تابعًا آنئذ لصلاح عبد الصبور؛ بحكم رئاسته لهيئة الكتاب المصرية. تقول أرملة صلاح عبد الصبور: " سبب وفاة زوجي أنه تعرض إلى نقد واتهامات من قبل أحمد عبد المعطي حجازي، وبعض المتواجدين في السهرة، وأنه لولا هذا النقد الظالم لما كان زوجي قد مات. اتهموه بأنه قبل منصب رئيس مجلس إدارة هيئة الكتاب، طمعًا في الحصول على المكاسب المالية، متناسيًا واجبه الوطني والقومي في التصدي للخطر الإسرائيلي، الذي يسعى للتطبيع الثقافي، وأنه يتحايل بنشر كتب عديمة الفائدة؛ لئلا يعرض نفسه للمساءلة السياسية ... ".

ربة الشعر:

وصلاح عبد الصبور واحد من الشعراء الذين تأثروا بالشعر الغربي، ونظموا وفقا لشعر التفعيلة، وأسهم بعدد من المسرحيات الشعرية، من أشهرها مسرحية الحلاج، بالإضافة إلى عدد من الدووابن، وقد تبناه لويس عوض أيام كان مستشارًا ثقافيًّا للأهرام، ووجهه نحو قراءة التوراة والإنجيل، فظهرت آثار هذه القراءه في أشعاره المسرحية والغنائية، وكتب عنه مقالات مطولة في الملحق الأدبي، وجعله أميرًا للشعراء بعد أحمد شوقي؛ زاعمًا أن ربة الشعر نصبته أميرًا له؛ مما أثار كثيرًا من الانتقادات، كان أبرزها ما كتبه الدكتور عبد القادر القط - صديق لويس وصلاح معًا. وقد كتب صلاح عددًا من المقالات الأدبية في الملحق الأدبي للأهرام، بعد أن اختاره لويس ليكون مساعدًا له في تحريره.

وقد قابلته مرة واحدة - على غير اتفاق - في مقر مجلة " الكاتب "، التي كان رئيسًا لتحريرها في أواسط السبعينيات بعد إزاحة طاقمها الشيوعي الصريح، الذي لم يكن يسمح لغير الشيوعيين وأشباههم بالكتابة فيها. كنت ذاهبًا لزيارة صديقي الأديب الراحل علي شلش (مدير المجلة)،

فوجدته جالسًا ببساطة على مكتب متواضع، وعرفته من صورته التي كانت تنشر مع مقالاته وقصائده، وتبادلنا كلمات قليلة بعد التحية والتعارف، وأظن أنه في تلك الفترة أو بعدها بقليل تولى رئاسة هيئة الكتاب، التي كان رئيسًا لها في عهد عبد الناصر تحت مسمى آخر، وتركها بعد تعيينه في السلك الدبلوماسي بالسفارة المصرية في الهند.

اتفاقيات أوسلو:

ولم تكن مصادفة أن يكون كبار المطبعين والمتعاملين مع العدو ممن يطلق عليهم مثقفون من اليسار المصري، وللأسف كان بعضهم عرّابًا لتوقيع اتفاق الاستسلام الفلسطيني، والاعتراف بدولة العدو الصهيوني على معظم أرض فلسطين، والتفريط عمليًّا في حق العودة، من خلال ما سمي باتفاقيات أوسلو 1994من جانب القيادة اليسارية الفلسطينية.

كان هناك كاتب مسرحي يساري اسمه " علي سالم " (وُلد 1936م)، الذي مصّر فيلمًا أجنبيًّا اسمه " فصل المشاغبين "، وحوله إلى مسرحية باسم " مدرسة المشاغبين "، مثّلها عادل إمام وسعيد صالح ويونس شلبي وغيرهم، وحققت نجاحًا جماهيريًّا كبيرًا، لدرجة أن السلطة استعانت بإذاعتها في أثناء مظاهرات يناير 1977م؛ لتخفّف من كثافة المظاهرات وعدم المشاركة فيها عن طريق إبقاء الناس في بيوتهم.

ومع أنه فقَد أخا له في حرب 1948، وكتب قبل 1973 مسرحية تدعو إلى تحرير سيناء، وتشيد بكفاح المصريين اسمها " أغنية على الممر "؛ فقد أيّد المبادرة التي أعلنها الرئيس السادات عام 1977 بشأن السلام بين العرب والعدو، وفاجأ المصريين بعد التوقيع على اتفاقية أوسلو 1994، بقيادة سيارته وزيارة الكيان الغاصب، وسرد أحداث الرحلة ولقاءاته مع الصهاينة الغزاة في كتاب بعنوان: " رحلة إلى إسرائيل "، احتفى به العدو وترجمه إلى العبرية والإنجليزية.

جائزة الشجاعة:

صار علي سالم بعد الزيارة من أشد المؤيدين للتطبيع مع العدو، وتلقى العديد من الإدانات في الصحف والمجلات المصرية، انتهت بمحاولة لطرده من

اتحاد الكتاب، ولكنها أخفقت لأسباب قضائية، ولكن الأجواء العدائية ضده ما زالت قائمة لدى معظم الكتاب.

بيد أن جامعة بن جوريون الصهيونية - التي تقع في النقب - منحت علي سالم، درجة الدكتوراه الفخرية. ولكن السلطات المصرية منعته من حضور حفل تسلمها في مدينة بئر السبع المحتلة؛ حيث لم تسمح له بالسفر إلى هناك دون أن توضح السبب.

كما منحته مؤسسة تراين الأمريكية، جائزة تسمى " الشجاعة المدنية " وقيمتها 50 ألف دولار أمريكي، تسلمها يوم الأربعاء 19 نوفمبر 2008 بمقر إقامة السفير الأمريكي في لندن، وواضح أن الصهاينة كانوا من وراء هذه الجائزة.

تغلغلوا في الأعماق:

كانت الحياة الثقافية آنئذ قد أخذت تذوي وتذبل، وراح اليساريون القادمون من أوربا والخليج، يحتلون المرافق الثقافية في الوزارة والصحافة والتلفزيون وأماكن أخرى، وينحّون غيرهم من أصحاب الرأي المخالف، وبدءوا يعملون لحساب السلطة باستثناءات قليلة، ومع أن وزارة الثقافة تولاها في الثمانينيات بعض الوزراء غير اليساريين، مثل منصور حسن ومحمد عبد الحميد رضوان وأحمد هيكل، إلا إن اليساريين وأشباههم تغلغلوا في أعماقها، حتى جاءت الطامة الكبرى، بتعيين وزير عمّر ما يقرب من ربع قرن، فصارت الوزارة في عهده حربة في قلب الإسلام والمسلمين. ولعلي أتناول شيئًا من ممارساتها في مكان آخر.

تشكيل اللجنة:

في أوائل أكتوبر 1985 تقريبًا كنت قد انتهيت من طبع رسالة الدكتوراه، وقمت بالإجراءات الإدارية وإيداع بعض النسخ منها في الجامعة والكلية، وتم تشكيل اللجنة العلمية للحكم على الرسالة.

تشكلت اللجنة من رئيس القسم بدار العلوم، وعضو من كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، بالإضافة إلى المشرف. بعد شهر تقريبًا التقيت برئيس القسم في لقاء اعتيادي، ففوجئت به يقول:

- يا فلان أنا لا أحب أحدًا يضغط عليَّ أو يستعجلني .. أنا أحب أن أقرأ على مهل .. عندما أنتهي من القراءة سأحدد موعد المناقشة !

كان كلامه مباغتًا وغريبًا، فلم أطلب منه شيئًا، ولم أضغط عليه. سكت، وأخبرته أنني جئت أسلم عليه كالعادة بوصفه أستاذي، ولم أطلب منه شيئًا .. ويبدو أنه شعر أن كلامه كشف عن بعض الأعماق المخبوءة، فحاول أن يخفف من وقع كلامه بصورة ما، وبعد انصرافي عرفت من بعض المقربين منه أنه ينوي أن يجعل التقدير أقل من الآخرين، ولعلي كنت أمثّل إزعاجًا شديدًا لبعض من أعرف دون أن أدري !

ليلة ليلاء:

تقررت المناقشة في مساء 1985/12/12، وكانت ليلة ليلاء !

اصطحبت شقيقي، وحضر بعض الأصدقاء، وفوجئت بالقاعة مكتظة بالطلاب والباحثين والجمهور. ولم يقتصر الحضور على الرجال، بل كان هناك عدد كبير من الطالبات، بدأت الجلسة في السادسة مساء تقريبًا، ورفعت في نحو الثانية عشرة والنصف للمداولة وإعلان الحكم.

في ست ساعات ونصف ساعة بدون توقف، جرت أطول مناقشة في الجامعة المصرية، وبعدها بحوالي ثلاثة أرباع الساعة أعلن القرار.

بدأت الجلسة بتقديم ملخص للرسالة من جانبي، وتحدث المحكم الخارجي، واستغرق حديثه حوالي ساعة ونصف الساعة، وتضمن في البداية إشادة بموضوع الرسالة (محمد ﷺ في الشعر العربي الحديث، دراسة نقدية)، وأثنى على الطالب الذي اطلع على نصوص غزيرة في الموضوع، وعلى أسلوب الباحث ولغته، وقدرته على التناول الأدبي والفني، ثم طرح مجموعة من الملاحظات، ناقشني فيها من خلال الأخذ والعطاء، وكانت له - بالتأكيد - آراء جيدة وفي صميم البحث، وأخذت ببعضها عند طبع الرسالة في كتاب، وأنهى الرجل حديثه مكررًا شكره للباحث على الموضوع والتناول.

وجه عدائي:

وجاء دور المحكّم الداخلي، وهو رئيس القسم، ورئيس اللجنة أيضًا، فوجدته يسفر منذ أول كلمة عن وجه عدائي غريب .. كنت قبل بدء

المناقشة قد جلستُ معه في مكتبه، وشربنا شايا من " ترموس " كان لديه في المكتب، وتناولنا القضايا العامة في حديث ودّي، ينبئ عن مشاعر مشتركة، حتى حان موعد بدء المناقشة، فانتقلنا إلى القاعة، وحين جاء دوره للمناقشة اختلفت المشاعر، وتحدث الرجل بلغة توحي أنه سيذبح الطالب الذي أمامه وليس مناقشته في موضوع علمي، يخضع تناوله لوجهات نظر تحكمها أدلة وبراهين.

لم يذكر كلمة إيجابية واحدة، على عكس المحكم الخارجي تمامًا .. أعاد الملاحظات التي ذكرها المحكم الخارجي ملاحظة ملاحظة. وأثار من عنده بعض النقاط، أذكر منها نقطة تتعلق باستخدام مصطلح الشعراء النصارى، وأعلن عن استنكاره لذكر كلمة النصارى، وتساءل بانفعال: لماذا أستخدمها ؟

قلت له:

- إنها مصطلح قرآني مرتبط بالعقيدة، ولا غضاضة فيه.

فطلب مني أن ألزم الصمت وألا أجيب إلا إذا سمح لي بالكلام.

قلت له:

- لن أتكلم !

قال:

- لا، أنت طالب، ولابد أن تتكلم !

تكهرب الجو، وسمعت نداءات من القاعة تطلب مني أن أسكت وألّا أرد.

الخروج:

ومن النقاط التي أثارها وتوقف عندها طويلا، ما تناولته في قصيدة لصلاح عبد الصبور بعنوان: " الخروج " .. كان الشاعر قد جعل الهجرة النبويّة معادلا لتجربة شخصية سلبية مرّت به؛ مما جعل القصيدة تبدو تجاوزا غير مقبول في حق النبي ﷺ؛ خاصة أن الشاعر كتبها في مرحلته اليسارية غير المتعاطفة – على الأقل – مع الدين عمومًا، والنبي ﷺ خصوصًا.

اشتعل النقاش، وكانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة، وبدأت الطالبات الحاضرات في القاعة يتحركن للخروج؛ فهن غالبًا مرتبطات بمواعيد

المدينة الجامعية، التي لا تسمح بالتأخير عن مواعيد معينة إلا بإذن لا يتجاوز الحادية عشرة بحال .. لعلهن كن يتوقعن العودة في التاسعة أو نحوها، ولكن المناقشة أخرتهن، ولولا أنهن مجموعات ربما كان موقفهن أكثر صعوبة.

المهم أن رئيس اللجنة ازداد انفعالا بسبب حركة الطالبات، وظن أنهن يتعاطفن معي، وينسحبن احتجاجًا على سير المناقشة، قال غاضبا:

- لن أسمح لأحد أن يضغط عليّ، وسأناقش الطالب حتى أنتهي !

وران على القاعة صمت عميق، وإن كانت الطالبات قد انسحبن، وتبعهن بعض الحاضرين..

خاب ظني:

قبيل رفع الجلسة أعطيت الكلمة للمشرف، وظننت أنه سيفعل كما يفعل المشرفون عادة، وسيقف إلى جانبي، ويدافع عني .. ولكن خاب ظني !

صحيح أن المشرف لا يتحمل مسئولية البحث، ولكن العادة جرت أن يتكلم المشرف عندما يرى أن المناقشة احتدمت ليلطف الأجواء، ويذكر بعض إيجابيات البحث، وقد وقف كثير من أساتذتي إلى جانب طلابهم الذين يشرفون عليهم، وأذكر أن أحدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حضر جلسة مماثلة، وكان رئيس اللجنة هو نفسه من يناقش الطالب الذي قدم رسالة في الأدب المقارن - وكان رجلا كبير السن، يعمل في التربية والتعليم - وآذاه المناقش إيذاء ملحوظا بالكلام، ويحمد للطالب أنه دافع عن نفسه بقدر ما استطاع، وفي كلمته وجه المشرف حديثه للطالب بعد مقدمة المجاملة، وأعلن أنه لن يخذله، ثم بدأ في نقض ملاحظات زميله المناقش واحدة واحدة بمنطق علمي هادئ وقوي؛ مما رفع معنويات الطالب وحسّن موقفه أمام الحاضرين.

حديث غريب:

للأسف كان حديث المشرف على رسالتي غريبًا وعجيبًا، وبدلا من أن ينصفني انحاز إلى رئيس اللجنة الذي هو رئيسه في القسم أيضًا، وبينهما فارق في الدرجة العلمية. ركز المشرف على شخصي، وأذكر من حديثه قوله: " إن الطالب ينظر إليك فلا تعرف أيسخر منك أم يزدريك أم يقصد شيئًا آخر !!"، وقال كلامًا آخر لم أعد أذكر منه شيئًا، ولكنه سلبي على

العموم، ولم يتضمن كلمة إنصاف واحدة، وأحمد الله أن التسجيل الذي كان مخصصًا للمناقشة لم يكن جيدا، فلم يبق عليه في حينه إلا القليل من وقائعها، ثم فقد تمامًا.

منح الدرجة:

في نحو الثانية عشرة والنصف أعلن رئيس اللجنة رفع الجلسة، وخلوّها للمداولة. مضى الوقت بطيئًا، وجاء من يهمس في أذني أن هناك حوارًا عاصفًا يتسرب من غرفة المداولة. لم أعلق، وجاءت اللجنة بعد ثلاثة أرباع الساعة تقريبا، لتعلن منحي الدرجة بمرتبة الشرف الثانية.

لم أفرح ولم أحزن، وإن كان الحاضرون قد تقاطروا لتهنئتي، وهمس بعضهم في أذني: لا تحزن .. كل التقديرات تتساوى .. المهم أن تظل على معتقداتك.

عدنا إلى البيت في نحو الساعة الثانية، ورأسي تدور حول السرّ في انقلاب الرجل الذي كان يشعرني بالمودة ونحن نحتسي الشاي قبيل المناقشة، وفاجأني بحدته وعنفه في أثناء المناقشة.

تعسف واضح:

عرفت فيما بعد أن الحوار العاصف في لجنة المداولة كان بين المحكم الخارجي ورئيس اللجنة من أجل التقدير. الأول يريده مرتبة الشرف الأولى، والآخر يريده بدون، والمشرف صامت لا يتكلم، وانتهى الحوار العاصف إلى التقدير السابق، بعد أن أعلن المحكم الخارجي احتجاجه ورفضه لما يريده رئيس اللجنة، ووصفه بأنه تعسف واضح.

لم يشغلني الأمر كثيرًا، وانصرفت - بعد ذلك - إلى شئوني الخاصة وكتاباتي، بل إنني قابلت رئيس اللجنة في أحد شوارع وسط القاهرة، لعله طلعت حرب، وكان يسير مع صديق له يعمل في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، فاقتربت منهما وسلمت عليهما بتلقائية، وبينما كان أستاذ الجامعة الأمريكية مرحًا ودودًا في اللقاء؛ بحكم معرفة سابقة به، فإن صاحبنا كان في حال أخرى!

جهد كبير:

وبمناسبة ما أثاره رئيس اللجنة عن الشعراء النصارى، أذكر أنني بذلت جهدًا كبيرًا في الحصول على نصوص هؤلاء الشعراء، وساعدني في الحصول على كثير منها صديقي الأديب الكبير وديع فلسطين (مواليد 1924)، بحكم علاقته بشعراء المهجر الأمريكي؛ حيث كان حريصًا على التواصل معهم بالبريد، وكان يتلقى مطبوعاتهم ومجلاتهم وكتبهم، وكانوا يزورونه عند قدومهم إلى القاهرة، وقد نسخ لي الرجل العديد من القصائد من بعض المجلدات التي لديه، حيث لم يكن التصوير الضوئي متاحًا بسهولة كما في أيامنا، وكان يرسل ما ينسخه في رسائل بريدية متتابعة، ويحرص على تدوين بيانات النشر في كل نص من النصوص.

والمفارقة أن عديدًا من الصحفيين والكتاب سطوا على الفصل الخاص بالشعراء النصارى منذ أن نشرت الرسالة في كتاب عام 1987م، فضلا عن السطو العام لبعض طلاب الدكتوراه، دون أن يشيروا إلى كتابي، وهناك من كان يصوغ منه مقالات ينشرها باسمه في إحدى المجلات الإسلامية، ويتقاضى عنها مكافآت، ولا يذكر من أين استقى مادته !!

علاقة قديمة:

وترجع علاقتي بالأستاذ وديع إلى عقد الستينيات من القرن الماضي، والرجل يفخر بأنه قبطي صعيدي من إخميم؛ وهو ودود وحريص على الصداقة، ويمتاز بالمروءة والشهامة والعفة والترفع، وهو يتمتع بصداقة كبار الأدباء وشبابهم مذ تخرج في قسم الصحافة بالجامعة الأمريكية عام 1942 حتى كتابة هذه السطور، وهو يعد الآن أقدم الصحفيين المصريين، وقد كتب في الأهرام والمقتطف والمقطم ومعظم الصحف والمجلات العربية، وعمل بالترجمة، وألف أكثر من أربعين مؤلفًا فى قضايا الفكر والأدب والترجمة، منها كتاب مهم في التراجم عنوانه « وديع فلسطين يتحدّث عن أعلام عصره »، ويقع في مجلدين، ضمّنه تجاربه الشخصية مع من ترجم لهم، إضافة إلى بعض الكتب فى فنون الصحافة، فضلا عن إسهامه في بعض الموسوعات والمعاجم.

عضوية مجمعين:

ووديع فلسطين معروف باهتمامه باللغة العربية، وحرصه على الدقة في التعامل معها؛ ولذا حظي بعضوية مجمعي اللغة العربية فى دمشق والأردن، ويعد أقدم الأعضاء في كل منهما.

وللأسف الشديد لم يمنح جائزة الدولة التقديرية حتى اليوم، مع أن هناك أشباه أدباء فازوا بها، وبالجائزة الأكبر التي تسمى جائزة مبارك. وقد كتبت أكثر من مرة أنبه إلى هذا الأمر، ولكن المسئولين عن الجوائز لهم منهج آخر، كتبت عنه كثيرًا، مع أن الرجل فاز بعدد من الجوائز والتكريمات من جهات عديدة وخاصة في العالم العربي، منها فوزه بجائزة فاروق الأول للصحافة الشرقية عام 1949، ونيشان الاستحقاق المدني الإسباني من طبقة كوما ندر، وتكريمه فى الندوة الاثنينية فى جدة عام 2000.

الكتابة من منازلهم:

والرجل يعيش منذ ستين عاما دون وظيفة أو عمل رسمي، مكتفيًا بعمله في الترجمة والكتابة من منازلهم، متعففا عن سؤال وزارة أو هيئة رسمية.

عانى وديع فلسطين من الاعتقال عقب انقلاب 1952 والمتابعة الأمنية والاستدعاء من المباحث العامة، لسبب تافه وهو معرفته ببعض الشخصيات الشيوعية (محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس)، مع أنه لم يكن له نشاط سياسي، أو ينضم إلى تنظيمات سياسية.

ويذكر أنه كان من أوائل الذين كتبوا عن نجيب محفوظ بعد أن قدمه سيد قطب من خلال ثلاثيته الفرعونية (كفاح طيبة – رادوبيس – عبث الأقدار)، كما كتب عن يحيى حقي وعلي أحمد باكثير وعادل كامل في بداياتهم، وإن كان نجيب محفوظ تجاهل من كتبوا عنه في بداياته وقدموه إلى الحياة الأدبية، ولم يذكرهم بكلمة شكر!

ظلّ تواصلي مع الأستاذ وديع إلى ما قبل عامين عبر البريد، وبسبب تردي أحوال هيئة البريد وكثرة ضياع الرسائل، توقفت عن الكتابة إليه، فضلا عن إرهاق عملية الكتابة له بسبب تقدمه في السن (أكثر من تسعين عامًا) عند كتابة هذه السطور.

تلكؤ الموظفين:

تأخر التصديق على منح الدكتوراه نحو ثلاثة شهور؛ بسبب تلكؤ الموظفين، كما تأخر تعييني في وظيفة مدرس ثلاثة شهور أخرى؛ للسبب نفسه؛ مما جعل الذين ناقشوا بعدي وتم التصديق على درجاتهم أقدم مني، وأكثر عائدًا ماديًّا.

ويبدو أن هذا يرجع لعيب فيّ، حيث لا أجيد لغة التعامل مع الموظفين، وهو ما يعطل كثيرًا من أوراقي، ويسبب لي مشكلات عديدة .. حيث إني أعتقد بمثالية ساذجة أن الموظف الذي يعمل في ظل جو مريح وغير مثقل بأعباء كثيرة، ويتقاضى مرتبًا جيدًا بالنسبة لنظرائه في المصالح والإدارات الأخرى خارج الجامعة، يفترض فيه أنه يقوم بعمله تلقائيًّا ولا يبقي ورقة في مكتبه، ولكن يبدو أن غياب مبدأ الثواب والعقاب، يجعل أغلبهم لا يبالون بمصالح غيرهم، ويركزون جهودهم على تقديم الحجج والمسوغات لتأخر الأوراق وإنجاز الأختام !

هل المفروض أن أجلس بجوار الموظف، وأرافقه في المكاتب الأخرى، وأترك محاضرة أو اجتماعًا حتى ينجز ورقة ما ؟!

لقد عانيت من هذه المعضلة وما زلت حتى يوم الناس هذا، ولا أدري لها حلا!

نشر الرسالة:

على كل حال، صرت مدرسًا في كلية التربية، وتابعت مسيرتي التعليمية والعلمية، وامتد نشاطي فيما بعد لأدرس في كلية أنشئت حديثًا بمدينة كفر الشيخ، وكنت أخصص لها يومًا بالإضافة إلى أيام طنطا.

وفي عام 1986 – فيما أذكر – تعاقدت مع دار الوفاء بالمنصورة، وكانت قد استوردت مطابع حديثة واستقدمتْ من صمّم أو تلقتْ تصميم مبناها على النمط الألماني، وكان مدير النشر آنئذ المذيع أحمد منصور مقدم البرامج في قناة الجزيرة حاليا، وقد استقبلني استقبالا طيبًا وتناولنا الغداء معا في أحد فنادق المنصورة بعد توقيع العقد.

وعند صدور الكتاب كان له صدى طيب عند القراء، ولقي إقبالا كبيرًا في معرض الكتاب، وظلت دار النشر تطبع منه كميات ضخمة ملأت مكتبات العالم العربي، وقد شكا لي ناشر الطبعة الثانية في الرياض قبل سنوات أن

طبعتـه الفخمـة لا تـوزع بـسبب وجـود كميـات كـبيرة لـدى الموزعين مـن الطبعة الأولى التي يسترخصها القارئ، مع أنني لم أتقاض من هذه الطبعة الأولى غير أربعمائة جنيه حصلت عليها عام 1988 !

ندوات أدبية:

أشرفت على النشاط الثقافي في الكلية، واستضفنا عددًا من المحاضرين المرموقين في تخصصات مختلفة، وأقمنا عددًا من الندوات الأدبية والفكرية، وأذكر من بين من استضفناهم الدكتور عبد القادر القط، الذي قرأ كتابات الطلاب الشعرية والقصصية، وتحدث عنها بمودة، وشجع بعضهم على الاستمرار والقراءة.

كما استضفنا – آنئذ – سفير أفغانستان الشرعي هارون المجددي، فحضر ومعه مجموعة من أعضاء السفارة، وكان يتكلم العربية بطلاقة، وعرفت في أثناء لقاء خاص به على الغداء عقب الندوة، أنه تعلم في القاهرة ويتكلم باللهجة المصرية، وفهمت منه أبعادًا أخرى لاحتلال أفغانستان من جانب السوفييت لم يصرح بها في أثناء الندوة.

واستضفنا بعض المتخصصين من الوعاظ وعلماء النفس ورجال الشرطة؛ لمناقشة قضية المخدرات وعلاجها..

تمرد الأمن المركزي:

وفي هذا العام شغلت المصريين قضية غريبة ومفاجئة، تتعلق بتمرد قوات الأمن المركزي، وسمّاها البعض بانتفاضة الأمن المركزي.

وقوات الأمن المركزي تشكيلات شبه عسكرية، وتعد من أهم أجهزة الشرطة المصرية، ومهمتها مواجهة الانتفاضات الشعبية والتحركات الجماهيرية، وقيل إن عددها 300 ألف جندي أو أكثر، ولها معسكرات خاصة في أنحاء مصر، وهي مدربة على حروب العصابات. ويعتمد عليها جهاز الشرطة في المواجهات والمعارك بشكل أساسي، حيث تتولى تفريق التظاهرات، وفض الاعتصامات والإضرابات.

ولعل أول من اهتم بوجودها وتنميتها بأعداد كبيرة كان " النبوي إسماعيل " وزير الداخلية في عهد السادات وأوائل عهد مبارك، وقد سمعته في أحد برامج التلفزيون يسوغ ذلك الاهتمام، بأنه كان يسير من مكتبه في

لاظوغلي حتى مسكنه في الدقي فلا يجد فرد أمن واحدا، ولذا فكر في تخصيص عدد من المجندين (الذين يؤدون الخدمة العسكرية الإلزامية من المستوى الثقافي المنخفض) ليكونوا قوة أساسية في جهاز الشرطة، والانتشار في الشوارع والميادين.

ولعله بذلك كان يريد أن تكون تحت يده قوة موازية لقوة الجيش لحاجة في نفسه.

مظاهرة غير متوقعة:

في 25 فبراير 1986م، خرج نحو ثلاثة آلاف جندي أمن مركزي من معسكراتهم في الجيزة بطريق إسكندرية الصحراوي؛ احتجاجًا على سوء أوضاعهم، وتسرب شائعات عن وجود قرار سري بمد سنوات الخدمة من ثلاث إلى خمس سنوات. كانت مظاهرة الجنود غير متوقعة، حيث يمثل الجنود المجندون عمومًا نموذجًا للانضباط والالتزام يختلف عن حياة عموم الشعب.

حمل جنود الأمن المركزي - وهم يهرولون في شارع الهرم - العصي والخوذات، وكانوا يضربون الناس ويحطمون سيارت المارة، وتجمعوا أمام فندق قصر الأهرام للقوات المسلحة؛ حيث كان يخاطبهم مأمور قسم الهرم، ويطالبهم بالرجوع الى معسكراتهم، ولكنهم لم يستجيبوا له، مهددين بأنهم لن يعودوا حتى يأتي الرئيس مبارك بشخصه ليتفاهم معهم ويحل مشكلاتهم التي يعانون منها.

انفلات أمني:

حضر اللواء أحمد رشدي وزير الداخلية آنئذ ومعه محافظ الجيزة وبعض القيادات الأمنية. قال للجنود:

- إحنا اللي مفروض نحافظ على البلد مش نخربها .. لما الناس تشوفنا بنعمل كده هما يعملوا إيه ؟! .. مشاكلنا نحلها في بيتنا .. تعالوا نروح المعسكر ونتكلم.

ذهب معظم الجنود معه عدا بعض العناصر .. ظن بعض الناس أن المشكلة انتهت، ولكن جاءت تشكيلات من وزارة الداخلية، وحدث تصادم مع الجنود، الذين شعروا أنهم خدعوا فتركوا الوزير، وهرب أغلبهم.

استمرت حالة الانفلات الأمني لمدة اسبوع، وأحرقت الملاهي الليلية من خلال - ما سمي - عناصر تخريبية، كما أحرق فندق هوليداي إن بميدان الرماية. وأعلن حظر التجوال، وانتشرت قوات الجيش في شوارع القاهرة، واعتقل العديد من قوات الأمن المركزي. وبعد انتهاء الأحداث واستتباب الأمن، تم رفع حظر التجوال، وأعلن عن إقالة اللواء أحمد رشدي وزير الداخلية آنذاك، وعزل العديد من القيادات الأمنية، واتخذت العديد من القرارات لتحسين أحوال الجنود، ونقل معسكراتهم خارج الكتلة السكنية، كما اتخذت قرارات بتحديد نوعية الجنود الذين يلتحقون بالأمن المركزي مستقبلا.

الوضع خارج القاهرة:

انحصرت انتفاضة الجنود في القليوبية والإسماعيلية وسوهاج داخل المعسكرات، واستطاعت قوات الجيش أن تحاصرهم وتنزع أسلحتهم بسهولة. حيث كان الوضع خارج القاهرة - بصفة عامة - أقل حدة بكثير، عدا أسيوط؛ فقد كانت الاستثناء الوحيد الذي شهد أحداثًا أشد عنفًا. ويقال إن محافظ أسيوط آنذاك زكي بدر (الذي أصبح وزيرًا للداخلية بعد ذلك) قد فتح الهويس (القناطر) في أسيوط - على غرار حادثة كوبري عباس الشهيرة - للحيلولة دون وصول جنود الأمن المركزي من معسكرهم في البر الشرقي، وكانوا قد أحرقوه وخرجوا منه، وقيل إنه تم استخدام طائرات الجيش لضرب هؤلاء الجنود، ويبدو أن السلطة خافت من تكرار ما حدث عام 1981 عندما استطاعت الجماعات الإسلامية المسلحة الاستيلاء على مديرية الأمن والسيطرة على المدينة، فالجماعات الإسلامية كانت لا تزال موجودة بكثافة في أسيوط آنذاك.

ذريعة لعزل الوزير:

وضح فيما بعد أن الأحداث كانت ذريعة لعزل أحمد رشدي وزير الداخلية من منصبه.

وأحمد رشدي (1924 - 2013) من مواليد مدينة بركة السبع بمحافظة المنوفية، وتولى وزارة الداخلية في الفترة من 1984 حتى 1986،

ولقب بـ " قاهر المخدرات "، حيث حارب تجار المخدرات، وقاد حملة ناجحة ضدهم، وقضى على عدد كبير من تجار منطقة الباطنية، حيث قام بحملات مكثفة بعدد كبير من ضباط شرطة بدلا من المخبرين والمرشدين على هؤلاء التجار، وشن حملات تفتيش مفاجئة عليهم في أوقات متقاربة، حتى استطاع بعد فترة أن يشطب تجارة المخدرات من الباطنية، ونقل عنه بعد خروجه من الوزارة قول كان يرويه مبتسمًا: " بعد خروجي من الوزارة انتشرت شائعة بوجود نوع جديد من المخدرات، أطلق عليه التجار " باي باي رشدي ".

وفي ذلك إشارة إلى أن الأحداث التي دبرت في الأمن المركزي كانت بسبب نجاحه في القضاء على تجار المخدرات الذين تآمروا على إقالته !

ولعله الوزير الوحيد في تاريخ الوزارة، الذي نال احترام الشعب المصري، وقد أسف الناس لخروجه؛ بوصف ذلك خسارة كبيرة للقيم والمبادئ.

انضباط الشارع:

ويعد أحمد رشدي أول من قام بعملية انضباط للشارع، وأجبر قيادات الداخلية على النزول إلى الشارع؛ من أجل خدمة المواطنين، وحل مشكلاتهم. وقد رأيته بنفسي وهو ينزل من سيارته دون ضجيج بالقرب من مكتبة مدبولي، ونادى على ضباط المرور في الميدان، وراح يوجههم ويتحدث معهم ببساطة شديدة.

لقد كافأه الناس بانتخابه عضوًا بمجلس الشعب في موطنه – دائرة بركة السبع، محافظة المنوفية.

وقيل إن الرجل هو من اكتشف رأفت الهجان، الشخصية التي صنع منها التلفزيون مسلسلا طويلا، ورشحه لضباط المخابرات العامة لتجنيده جاسوسًا على العدو، عندما كان جهاز المخابرات يبحث عن شخص له جذور إجرامية؛ ليتمكن من التعامل مع الصهاينة.

أعنف وزير:

والمفاجأة الأغرب كانت تعيين اللواء زكي بدر (1926 - 1997) خلفا لأحمد رشدي، وقد وصف بأنه أعنف وزير داخلية وأكثرهم بذاءة عرفته مصر، ولكن الأحداث كشفت أن هناك من هو أشد منه عنفاً وأقل بذاءة.

وقد اشتهر - إلى جانب العنف - بلغة متردية، وقاموس كثير منه بذاءة وسب وشتم، ويكفي أن تسمع من فيه أوصافاً يوجهها إلى خصوم النظام المستبد الذي يحميه مثل: « دلاديل، الشواذ جنسيًّا، الحرامية، الهبل، الشيوعيون، النصابون، المهربون، الذين يقبضون العمولات » .. فضلا عن كلمات وأوصاف أخرى لا أستطيع ذكرها. وكانت هذه الشتائم من وراء الإطاحة به في عام 1990، وكانت إطاحة مزلزلة، استقبلها العالم العربي بالبهجة والسرور، وكنت أيامها خارج مصر، ورأيت فرحة المصريين والعرب بهذه الإطاحة التاريخية.

معركة شهيرة:

وقد دخل بسبب طول لسانه في اشتباكات مع معظم القوى المعارضة والمحايدة، منها معركة شهيرة بالأيدي والأحذية تحت قبة البرلمان مع النائب الوفدي طلعت رسلان عام 1987، وذلك بعد وصلة شتائم وجهها بدر ضد فؤاد سراج الدين، حيث أذاع تسجيلا بين سراج الدين وإحدى قريباته، موحيا أن هذا التسجيل خارج الآداب العامة، فاستفز النائب طلعت رسلان، الذي حاول الاعتداء عليه، وجذب الأوراق التي كان يقرأ منها بيانه، فاستخدم بدر يده، وعاجل النائب بصفعة على وجهه، وخلع حذاءه وضرب به " رسلان "؛ مما جعل الرئيس يطلب من الدكتور عاطف صدقي رئيس الوزراء آنئذ سرعة التدخل لوقف تجاوزات الوزير وربط لسانه.

لكن زكي بدر لم يلتفت كثيرًا لنصائح رئيس الوزراء، وظل يوجه الشتائم لكل معارض لسياسته الأمنية، قاصرًا هجومه في البداية على قادة المعارضة، حتى وقع في المحظور وتجاوز الخطوط الحمراء في لقائه الشهير بضباط المعهد الدبلوماسي بمدينة بنها؛ حيث كان هذا اللقاء سببًا مباشرًا في الإطاحة به. وفي هذا اللقاء تطاول زكي بدر بالسب والقذف، مستخدمًا ألفاظًا خادشة للحياء ضد رموز المعارضة ورموز الدولة على السواء.

تسجيل صحفي:

ولسوء حظ الوزير أن صحفيًّا شابًّا في جريدة الشعب المعارضة، اسمه صلاح بديوي سجل ما قاله من بذاءات وشتائم وسباب على شرائط، وفرغها ونشرها على صفحات الجريدة؛ ليقرأ الناس شتائم مقذعة ضد جماعة الإخوان المسلمين ومرشدهم حسن البنا، وابنه سيف الإسلام، والمستشار مأمون الهضيبي، وزعماء المعارضة، وفي مقدمتهم إبراهيم شكري ومحمد حلمي مراد – رحمهما الله – وخالد محيي الدين، والصحفيين أحمد بهاء الدين ومحمد السيد سعيد، ويوسف إدريس، وبعض قيادات المنظمة المصرية لحقوق الإنسان، وفتحي رضوان، وغيرهم ..

ثم تناول الوزير بالسباب البذيء كبار الوزراء وقيادات الدولة، وفي مقدمتهم عاطف صدقي رئيس الوزراء، ويوسف والي أمين عام الحزب الوطني، وصفوت الشريف وزير الإعلام، وحسب الله الكفراوي، ومحمد عبد الوهاب، ويسري مصطفى، ومحمد الرزاز، وفاروق حسني وزير الثقافة، ثم سبّ كمال حسن علي رئيس الوزراء الأسبق، والدكتور عبدالرازق عبد المجيد، والدكتور مصطفى السعيد وزيري الاقتصاد السابقين، وأشار الوزير بألفاظ نابية للدكتور محمد علي محجوب وزير الأوقاف وغالبية المحافظين، وكشف عن خطته قي قتل 530 ألف مصري، وأنه أصدر أوامره للعمد والمشايخ والخفراء بقتل ودفن كل من له لحية أو يرتدي جلبابًا أبيض.

قرار الإقالة:

سمع الرئيس مبارك نص الشتائم والبذاءات عقب زيارة وفد من المعارضة مكون من فؤاد سراج الدين وإبراهيم شكري للقصر الجمهوري، يحملان شرائط الكاسيت المسجل عليها بذاءات الوزير وشتائمه، فكان قرار الإقالة المدوي.

كان زكي بدر نموذجًا للوزير الذي لا يعرف شيئًا غير التفكير بلسانه، ويده، وقد استمعت إلى طرف من شتائمه في مسجد قريتنا الذي كان يزوره مع أسرته بعد زيارة إبراهيم الدسوقي؛ حيث لم يراع حرمة لبيت الله، وكان يتناول خصومه السياسيين بأحط الألفاظ وأكثرها سوقية، وقد امتدت

شتائمه وإهاناته إلى بعض أبناء البلد الذين كانوا يعرضون عليه بعض المشكلات أو الموضوعات الخاصة بهم.

والمفارقة أنه كان يحضر أسرته لتوزيع الصدقات، فيشيع جوًّا من الرعب والرهبة بما كان يصاحبه من أجهزة أمنية وأفراد شرطة. لقد أفضى إلى ما قدم، بعد أن لقي ربه .. ولعل الأحياء يتعظون به.

6- أحزان وأشواك

القسم الوحيد:

يصعب أن أمضي في الكتابة دون أن أذكر بعض الذين عرفتهم في الجامعة وكانوا ممن استرحت إليهم، وتعمقت علاقتي ببعضهم حتى يومي الذي أكتب فيه هذه السطور.

كانت كلية التربية التي أعمل بها يومئذ، تغص بصراعات بين أعضاء هيئة التدريس، وصل صداها إلى الصحف والمجلات، وكان قسمنا المسمى باللغات (العربية والفرنسية والإنجليزية) يكاد يكون هو القسم الوحيد الذي يخلو من أية صراعات. ولعل ذلك يعود إلى رئيسه يومئذ، وكان رجلا طيبًا ومهذبًا (ابن ناس كما يقولون)، وهو الدكتور سعد شلبي.

الرجل ممن درسوا في الأزهر الشريف مرحلة الابتدائي والثانوي، وأكمل في دار العلوم، واتسم سلوكه بالبساطة والاحترام والجدية، وكان حريصًا على أن يكون القسم بدون مشكلات، ولعل المشكلة التي كانت تثير متاعب بين الأعضاء هي الجدول الدراسي؛ لما يترتب عليه من توزيع للكتب والمذكرات يعود ثمنها إلى العضو القائم بالتدريس. فكان يوزع ساعات الجدول بالعدل بين الأعضاء وفقًا للتخصصات الدقيقة، ثم يترك الأمر لمدرس مساعد؛ كي يستطلع رأي الزملاء في المواد والأيام التي سيحضرها العضو، وهكذا كان توزيع الساعات يمضي سلسًا وفي هدوء، على العكس مما رأيته في كلية الآداب التي انضممت إليها لاحقًا؛ فقد كان توزيع

الجدول يمثل حفلة تعذيب على أبواب جهنم. ولعلي أعود إلى ذلك فيما بعد.

الحلول الودية:

كان واضحًا أن الدكتور سعد يتمتع بذكاء ملحوظ في تعامله مع الزملاء، وكان يميل إلى الحلول الودية التي تقضي على المشكلات في مهدها، وأذكر أن أحد الزملاء كان يقف موقفا غير جيد ويطالب بأكثر من حقه، فوجدت الرجل يطلب مني أن أصل مع هذا الزميل إلى حل يرضيني ويرضيه، وهو سينفذه، وقد فعلت!

ولأن الرجل كان يحظى بالاحترام من جميع هيئة التدريس في كل الأقسام، فقد كان هناك شبه إجماع على ترشيحه لعمادة الكلية بعد أن اشتدت الصراعات وتكاثرت، وتم إيقاف العميد المعيّن بسببها، وأذكر أنني ذهبت ضمن وفد كبير من الزملاء لمقابلة رئيس الجامعة؛ طلبًا لاختيار الدكتور سعد عميدًا للكلية، وهو ما تحقق بالفعل.

نعي الرجل الطيب:

كانت الصراعات في الكلية تمضي بصورة غير مقبولة، لدرجة أنني سمعت الرجل ذات مرة وهو يجلس في مكتبه عميدًا للكلية، يخبرني أنه يطلب من سكرتيره أن يجلس معه إذا طلبت مقابلته أستاذة أو طالبة، وأن يفتح الباب على مصراعيه حتى تنتهي المقابلة حتى لا يستغلها أحد من هواة الصراع.

وللأسف، فلم يطل عهد الرجل بالعمادة؛ إذ فوجئت ذات صباح بإعلان ينعي الرجل الطيب إلى رحاب الله، ويحدد موعد العزاء ومكانه .. ذهلت فقد كان معنا قبلها بيوم واحد، وسهر معنا في الكنترول، وانصرفنا في وقت متأخر، وعندما وصل إلى البيت شعر بشيء من التعب، فارق على إثره الحياة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

في تأبينه بالكلية حضر بعض أبنائه، وتحدث الخطباء عن مآثر الرجل العلمية والخلقية والسلوكية، والمفارقة أن المتصارعين جميعًا كانوا في مقدمة الحاضرين، ولم يتفقوا على شيء إلا على الإشادة بالرجل، ودعم الاقتراح بتسمية أحد المدرجات الرئيسة بالكلية باسمه.

مجموعة طيبة:

وكان من أعضاء القسم المؤسسين الدكاترة: السيد عمارة ومحمد أبو المكارم، ومحمود السمان، وهي مجموعة درست في الأزهر وحصلت على الدرجات العلمية منه، وكانوا طيّبين، يؤدون واجباتهم بجدية وإخلاص، ولكن اللجان العلمية الخاصة بالترقيات عطلتهم، وكان أغلب أعضاء هذه اللجان من آداب القاهرة، ويحكمون بمنهج التعصب المعهدي، أي أن كل من ليس منتميًا إلى كليتهم يصعب أن يرقى من درجة إلى أخرى أعلى، وعندما تقدمت المجموعة الأزهرية الطيبة للترقية أكثر من مرةٍ، لم يحالفهم الحظ؛ بسببٍ هذا التعصب، وكان واضحًا أن هناك تعسفًا غير مسوغ، وهو ما سبب قلقًا وآلامًا نفسية، دفعتهم إلى الخروج من هذه الشرنقة الظالمة بالانتقال إلى الأزهر، خاصة بعد أن توسع في إنشاء الكليات النظرية على امتداد الوطن.

الخروج من الشرنقة:

كان الدكتور السمان أول من فتح الباب للخروج من الشرنقة. وبحكم علاقاته العامة مع أطراف عديدة داخل الجامعة وخارجها، والاعتماد على مادة معينة في قانون تنظيم الجامعات - استطاع الرجل بعد تجارب العسف في الترقية أن يصل إلى قرار صدر عن رئيس الجامعة بتشكيل لجنة علمية (يسمونها إدارية)، يتكون أعضاؤها من عدة جامعات تنظر في أمر ترقيته .. وتمت هذه الترقية بالفعل؛ مما شكل ضربة قاسية للجنة الدائمة بالقاهرة، وسمعت أن اللجنة لم تدخر وسعًا في الاحتجاج لدى رئيس الجامعة على قرار الترقية، ولكنه واجهها بقانون تنظيم الجامعات.

ولم يمض وقت طويل حتى فوجئنا بالدكتور السمان يودعنا إلى إحدى الكليات الجديدة التابعة للأزهر في عاصمة محافظة من محافظات الوجه البحري، وهناك ترقى أستاذًا، وعين عميدًا للكلية، وظل بها حتى لقي وجه ربه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

زميل سرق:

كنت قد قابلته بعد مغادرتنا بسنوات، فحكى لي قصة زميل سرق كتابًا له في العروض والقافية؛ مما اضطره إلى رفع الأمر للقضاء، ولما أخذت الدائرة تضيق على الزميل السارق، اضطر أن يخضع لحل عرفي بعيدا عن

القضاء الرسمي، ويعوضه بمبلغ حدده الوسطاء .. ولكن الرجل كان متأثرا لسقوط زميل في مثل هذه السقطة الشنيعة التي جعلته يقبل أن يسرق كتابًا ويوزعه على الطلاب لعدة سنوات، ويحصّل من ورائه مبالغ كبيرة، ولو أنه استأذن صاحب الكتاب في تدريسه لسمح له.

كان السمّان متأثرًا للغاية، ولكنه بدا راضيًا بعد أن وصل إلى حقه بالحل العرفي. وتبقى مشكلة السرقات العلمية بغير حل في مجتمع يفترض أن يكون المنتسبون إليه قدوة لغيرهم، وقد رأيت نماذج عديدة من السُّرّاق - كما يسميهم إخواننا التوانسة، يستحقون الرجم؛ لأنهم يمثلون أنماطا قبيحة من البشر في السلوك والأخلاق والحياة.

الطريق نفسه:

وقد اتخذ الدكتور عمارة والدكتور أبو المكارم الطريق نفسه الذي سلكه الدكتور السمان في الانتقال إلى الأزهر، فقد انتقلا إلى إحدى كليات المنصورة، وهناك ترقّيا في وقت قصير، وشغلا مناصب إدارية بالكلية، ووصلا إلى منصب وكيل الكلية ورئيس القسم.

وكان أحد أساتذة الأزهر المرموقين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعلق على مشكلة الترقيات التي تصنعها اللجنة العلمية في الجامعات بقوله لي:

- تعلم يا بني أن الترقية هي طريق لأكل العيش، ونحن في الأزهر لا نقف في طريق أحد طالما قرأ وبحث وكتب. أما من يريد التميّز وإثبات وجوده في الحقل الثقافي العام، فعليه بالتأليف وإقناع القراء بأهميته وتميّزه.

وقد ارتبطت بعلاقة وثيقة مع الرجلين - عمارة وأبي المكارم - ظلت مستمرة حتى الآن.

وقد قدمني الدكتور عمارة بعد سنوات إلى لجنة التعاقد لكلية المعلمين في الرياض، فصرت زميلا له هناك، ولحقنا الدكتور أبو المكارم للعمل في كلية أخرى، فقضينا معًا فترة من الإعارة، وتلاقينا بعدها في تعاون علمي مشترك.

تجربة قاسية:

وتبقى مشكلة الترقيات الجامعية قائمة حتى اليوم، مع كل ما جرى من تعديل في قواعدها، أو تغيير في لجانها، خضع لضغوط سياسية أو اتجاهات أيديولوجية من القائمين على شئون التعليم العالي في بلادنا، وإن كانت هناك دول ناشئة قد حلت هذه المشكلة ببساطة شديدة، حين جعلت التحكيم يخضع لمحكمين غير معروفين لطالب الترقية، ويحكمون بدون معرفة أسماء المتقدمين للترقية، ثم يكتب المحكم تقريرًا مفصلا عن حكمه وأسبابه يرسله إلى الكلية أو الجامعة التي طلبت التحكيم.

وأذكر أن رجلا فاضلا كان معنا في القسم، تعرض لتجربة قاسية من اللجان العلمية القائمة، فقرر عدم التقدم لها مرة أخرى، وظل على درجته حتى ترك الجامعة وانتقل إلى جامعة خاصة قريبة من مقر إقامته بالقاهرة؛ كانت أفضل حالا بالنسبة إليه.

ولعلي أعود إلى هذا الموضوع بشيء من التفصيل فيما بعد، حيث كانت ترقيتي سببًا في عاصفة شهيرة من الصراع الفكري كانت لها آثار عديدة.

وصول ومغادرة:

في شهر أكتوبر 1986، رزقني الله بطفلي محمود، وسعدت به، ولكن السعادة لم تكتمل؛ فقد لحق والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أسبوع من ولادته بالرفيق الأعلى.

قبل ولادة محمود بشهور قليلة أصيب والدي ببحة في صوته .. ظننّا أنها مجرد نزلة برد .. وصف له الطبيب علاجًا لنزلة البرد، ولكن الوضع لم يتحسن بعد مضي أسابيع عديدة. بل ازداد الأمر سوءًا حين فقد القدرة على الكلام تمامًا. لم يكن هناك بد من أن أرافقه إلى طبيب متخصص، وذهبت إلى عيادة طبيب معروف في المدينة، كان في الوقت نفسه نائبًا لرئيس الجامعة التي أعمل بها .. بعد الكشف أخبرني أنه لابد من عمل منظار لأخذ عينة من الحنجرة وتحليلها؛ لأنه يشك في وجود مرض عضال.

حجزت لدى مستشفى الهلال بطنطا، وذهبنا لعمل المنظار وأخذ العينة، وتوجهت إلى معمل التحليل الذي أشار به الطبيب. وبعد يومين قدمت إليه

نتيجة التحليل، فأفهمني أنه لابد من استئصال الحنجرة؛ لأن بها ورمًا وإن كان حميدا .. تفاوضت معه على أجر العملية، وكان ضخمًا بأسعار تلك الفترة عدا تكاليف الإقامة في المستشفى والأدوية .. أخبرني أن هذا الأجر فيه تخفيض؛ مراعاة لي؛ حيث إنني أعد زميلا له بالجامعة.

حزن عميق:

رجعت من طنطا إلى القرية وأنا لا أكاد أرى الطريق؛ فقد غصت في حزن عميق، وركبني الغمّ لدرجة لم أستطع معها أن أفكر أو أتكلم، وسلمت الأمر لله.

رحت أفكر في كيفية تدبير مبلغ العملية وتكاليف المستشفى .. وصمّمت على أن تُجرى العملية مهما كلفني الأمر، ولو بعت هدومي - كما يقال. استشرت كثيرين .. قال لي أحد أصدقاء أبي - ولديه وعي طبي وعلاقة ببعض الأطباء: إن التكاليف التي ستنفقها كأنك ألقيتها في البحر!

أي لا فائدة من العملية.

وقالت لي أمي:

- لا تذبح أباك! فقد ذبحوا الشيخ عبد (رب) النبي وذهب إلى لقاء ربه!

وكانت تقصد بالذبح إجراء العملية في الرقبة.

ولكنني كنت مصمّمًا على إجراء العملية، وذهبت إلى الطبيب وحددت موعدها، بعد أن سألته وكررت سؤالي:

- هل هناك أمل؟

وكان الرجل يجيب:

- الأمل في الله.

ساءت الحالة:

مضت فترة غير قصيرة على إجراء التحليل، وساءت حالة أبي، حيث بدأ جسده الهزيل يضمر أو يتآكل، وأخذت الكحة طريقها لتؤلم صدره، وكان هناك ما يشبه الفواق أو " الزغطة "، وترددت به على أطباء الصدر والباطنة، ولكن دون جدوى، وهو ما جعلني أصمّم على إجراء العملية، وافتدائه بعمري لو لزم الأمر.

قبل موعد العملية بيوم أصرّ أبي على العودة إلى البيت القديم، وكان يقيم في بيتي أيامه الأخيرة. توكأ على العصا بيد، وصحب أحد صغاري باليد الأخرى، ومضى في الضحى، وسار الهوينى وطفلي معه، حتى وصل إلى البيت (على بعد 300 – 400 متر)، ونام على كنبة في غرفة الضيوف .. ذهبت إليه بعد عودتي من مشوار خارج القرية، لم يكن في البيت أحد غيره، وسمع دقاتي على الباب، فزحف على أربع، ورفع المسكّ الأرضي، فانفتح مصراعا الباب معًا في لحظة واحدة .. صعقت حين وجدته هكذا .. رفعته من الأرض وحملته إلى الكنبة حيث تمدد عليها، وجلست أحكي له وهو يسمع ولا يستطيع أن يتكلم .. سألته إن كان يريد شيئا ؟ فأشار بيده علامة على النفي.

بعد صلاة المغرب:

خرجت من البيت، وكان هذا لقائي الأخير به وهو حي، فقد عدت إلى بيتي لأجهز للسفر في اليوم التالي إلى طنطا من أجل العملية، وبعد صلاة المغرب جاء من يخبرني – وفي عينيه آثار دمع يحاول مغالبته – أنهم يطلبونني هناك عند أبي. عرفت أن الروح صعدت، وقضي الأمر، فاسترجعت، ورأيت وجهه يضيء بالسكينة والصبر الجميل والرضا بقضاء الله.

لم أبك ولم أبد جزعًا في الظاهر، ولكن داخلي كان شيئا آخر. لعلي أردت أن أتجلد كما فعل أبو ذؤيب الهذلي:

وتجلدي للشامتين أريهمو   أني لريب الدهر لا أتضعضعُ

ولم يكن هناك شامتون ولا غيرهم ! ولكنها الرغبة في التجلد أمام مصيبة الموت، كما وصفها القرآن الكريم.

العزاء قاصر:

في لقاء الترتيب للجنازة كان هناك من يريد أن يقيم سرادق عزاء، ويستدعي قرّاء من هنا وهناك، ويصنع مهرجانًا تقليديًّا يليق بشخصي – كما يريدون – لاستقبال المعزين !

تماسكت في غمرة الألم بفقد أبي .. وبعد أن هدأ الكلام قلت لهم:

– لن أقيم سرادقات ولا عزاءات .. العزاء قاصر على الجنازة.

سمعت نهنهة ونشيجًا وبكاء، وانطلقت صيحة عمي الذي كان باقيًا على قيد الحياة:

- آه ! أخي سيموت فطيسًا !

تمالكت نفسي، وحاولت أن أستوعب حالة الغضب والتعليقات الرافضة، وقلت لعمي بوصفه بؤرة الحوار والغضب:

- أتدري أنني أستطيع أن أقيم سرادقًا يمتد كيلو مترات ؟

قال:

- نعم.

قلت له:

- هل سيعيد السرادق أخاك إلى الحياة ؟

قال:

- لا.

قلت له:

- إنه أبي، وأنا المعني بالأمر، فلا تهتم.

في الظهيرة صلينا عليه الجنازة، وفي أثناء الجنازة انهمرت دموعي.

أخرجت مبلغًا :

حمدت الله أن أحدًا من الناس لا يراني. مع انتهاء الصلاة مسحت وجهي، وكأن عينيّ لم يهطلا في صمت .. تم دفن أبي، وفي أثناء العودة من المقابر أخرجت مبلغا من المال، وسلمته لشيخ البلد، الذي كان يتولى جمع التبرعات لبناء مسجد جديد بالقرية، وقلت له أمام جمع من المعزين:

- هذا المبلغ من تكاليف العزاء إسهامًا في بناء المسجد الجديد.

شكرني الرجل، وأبدى بعضهم استحسانه للموضوع، وتشجع الناس بالقرية فيما بعد للاكتفاء بالعزاء في الجنازة، والإسهام بتكاليف السرادق في المشروعات الخيرية، كما كان هذا التقليد الجديد وسيلة لإعفاء الفقراء من تكاليف فوق طاقتهم، وصار هذا التقليد الآن هو الأصل، وما عداه استثناء !

جدار ينقض:

وعندما جاء الليل، وانفردت بنفسي، انهمر الدمع مدرارًا، فقد أحسست أن جدارًا كنت أحتمي خلفه قد انقض فجأة، مع أن العلامات والنذر كانت تشي بانقضاضه !

لم يعد هناك من يسهر ولا ينام حتى يطمئن على وصولي من طنطا أو غيرها، مهما أوغل الليل في الصمت والسكينة، بل كان لا ينام وأنا في داخل البيت حتى يرى الأبواب مغلقة بإحكام، والنوافذ غير مشرعة، وأن صنابير المطبخ والحمامات لا تسرب الماء، وأن الأطفال مستغرقون، لاأحد منهم يبكي أو يصيح طالبًا شيئًا .. كان يرى أن أسرتي الصغيرة مملكة يرعاها عن طيب خاطر، مهما كلفه الأمر، ويجد في ذلك لذة لا تخفى، وكانت تفارقه هذه اللذة حين يمرض أحدهم أو ترتفع حرارته، أو يبدو معتل المزاج، ولا يعود إليه انبساطه واعتدال مزاجه إلا إذا زال المرض أو انخفضت الحرارة، أو رأى الطفل يضحك ويمرح.

رحم الله أبي !

ظلت تحتمل:

فقدت برحيله صديقًا لا يدّخر من أجلي شيئا .. يفهم ما بي .. يدرك أحزاني ويفرح لأفراحي، وإن كان متحفظًا في إبداء مشاعره وعواطفه.

وكان عليّ أن أواجه الحياة من جديد في وضع جديد !

رفضت أمي أن تنتقل إلى بيتي، وفضلت أن تبقى وحيدة في بيتها .. كنت أشفق عليها ؛ فالسن متقدم، والصحة متداعية، ثم إنها تحتاج من يخدمها ويوفر لها احتياجاتها .. ولكنها أصرت على البقاء وحدها. حاولت أن أونسها بطفلي الكبير (ست سنوات تقريبًا) ولكنه مثل كل الأطفال يريد أن يكون بجوار أمه وإخوته .. مرة يستسلم للبقاء مع جدته حين يغلبه النوم، وأخرى يرفض، ويتسلل من جوارها عائدا إلى البيت، وظلت تحتمل الأمر حتى جاء موعد رحيلها بعد نحو عامين، عانت فيهما متاعب المرض والشيخوخة.

لغة القمع:

كان العنف والعنف المضاد قد أخذا يستشريان في البلاد ؛ نتيجة القبضة الأمنية الحديدية التي لا تعرف غير لغة القمع ؛ حيث بلغ ذروته في عهد وزير

الداخلية زكي بدر الذي سبقت الإشارة إليه. ومع أنه تمت إقالته عام 1990، فلم يتوقف العنف، وحاول الوزير الذي خلفه أن يصل إلى حل يقوم على التفاوض مع الجماعات الإسلامية التي تتهم بالعنف - مع أنه رفع شعار تثقيب الأجساد، على غرار الشعار الذي أعلنه زكي بدر من قبل، وهو: الضرب في سويداء القلب ! - إلا إن القيادة قطعت عليه الطريق !

وقد اشتهر هذا الوزير - واسمه محمد عبد الحليم موسى - بلقب " شيخ العرب "؛ لاعتماده على الحلول التفاوضية للمشكلات عن طريق المجالس العرفية؛ حيث تمكن عندما كان محافظا لأسيوط قبل تولي وزارة الداخلية أن يحل كثيرًا من المشكلات بين العائلات المتصارعة بالطرق السلمية وليس بالحلول الأمنية العنيفة؛ مما قلّل من الثارات، وحقق نوعًا من الهدوء.

في وضح النهار:

في عهده تصاعدت المعركة الدموية بين الأجهزة الأمنية وبعض الجماعات عقب مقتل المتحدث الرسمي باسم الجماعة الإسلامية علاء محيي الدين، واغتياله في وضح النهار بأحد شوارع الهرم في القاهرة الكبرى، وقيل إن الجماعة خططت بعدها لاغتيال وزير الداخلية المذكور ردًّا على اغتيال المتحدث باسمها، كما قيل إن رئيس البرلمان السابق الدكتور رفعت المحجوب اغتيل بدلا منه، حيث تصادف مروره من الطريق نفسه الذي كانت الجماعة تعتقد أن موكب محمد عبد الحليم موسى سيمرّ منه. وإن كان القضاء برأ المتهمين بقتل المحجوب من جريمة الاغتيال.

وقد رأيت علاء محيي الدين في دار الاعتصام، وكان شابًّا نحيفًا تبدو عليه علائم الطيبة والبساطة، عرفت أنه جاء إلى الدار بشأن بعض الكتب. وعلمت أنه كان طبيبًا بيطريًّا من محافظة سوهاج، ومقربًا من الدكتور عمر عبد الرحمن، الزعيم الروحي للجماعة الإسلامية، والمحبوس الآن في الولايات المتحدة الأمريكية.

بداية الانفلات:

والشيخ عمر عبد الرحمن – فرج الله كربه – كان معروفًا بأنه في أثناء وجوده بمصر عاملا مهمًّا في الحد من اندفاعات الشباب غير المحسوبة، وجاء سفره إلى السودان ومنها إلى الولايات المتحدة بداية الانفلات نحو العنف، مع تزايد التحرش الأمني بأعضاء الجماعة الإسلامية..

في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الأحد الثاني من (أغسطس) عام 1990، كان اغتيال علاء وفق خطة مدروسة لها أهداف أكبر من شخصه. فقد كان يسير على قدميه، متوجهًا إلى منزله في شارع ترسا بمنطقة الطالبية بالهرم .. اعترضته سيارة بدون لوحة أرقام، وأطلق من فيها النار عليه فسقط قتيلا، واستولى الجناة على ما كان في حوزته من أوراق هوية؛ حيث كان الهدف قتله وعدم التعرف عليه، ودفنه سرًّا؛ بوصفه جثة مجهولة؛ لولا وجود عدد من المحامين تعرفوا على الجثة.

وتردد فيما بعد أنه التقى قبل مصرعه بأيام مع عادل حسين رئيس تحرير جريدة الشعب في لقاء اقتصر عليهما، وقيل إن الهدف من هذا الاجتماع كان لبحث التحالف بين حزب العمل الذي تنطق جريدة الشعب باسمه والجماعة الإسلامية؛ لتحويل الجماعة إلى العمل السياسي عن طريق المشاركة في الانتخابات، وفتح أبواب الحزب أمام الجماعة لترشيح عدد من قيادييها ضمن قوائمه في انتخابات مجلس الشعب نهاية عام 1990.

العمل العنيف:

ويبدو أن هناك من كان يريد إشعال النار في البلد، فوقف باغتيال علاء محيي الدين حائلا دون انتقال الجماعة الإسلامية إلى العمل السياسي، ونقلها إلى العمل العنيف الذي راح ضحيته عدد كبير من المواطنين وأعضاء الجماعة والسائحين وعدد غير قليل من رجال الشرطة.

وحتى اليوم لم يعرف من قتل علاء محيي الدين ..

أعلن في ذلك الوقت عما سمي بقضية تخص الجماعة الإسلامية، وهي: " العائدون من أفغانستان "، واتهم فيها عدد كبير، وحكم بالإعدام على ثمانية منهم، مع براءة ثلاثة آخرين، وبالسجن على الباقين.

وقبل ترك محمد عبد الحليم موسى الوزارة بفترة استعان بعدد من علماء الدين المستقلين عن السلطة لمحاورة شباب الجماعة الإسلامية وراء الأسوار، ونقل بعض هذه المحاورات على شاشة التلفزيون، وقد امتدت لقاءات العلماء بالشباب إلى خارج الأسوار فيما بعد، وكان لها صدى ما على كل حال في تصحيح بعض الأفكار والمعتقدات.

وقيل إن هذه المحاولة كانت سببًا مباشرًا لإقالة الوزير في أبريل عام 1993، وقد توفي بعد إقالته بنحو عشر سنوات في 19 يوليو 2003م.

جريدة الوفد:

في هذه الفترة كتبت مقالات عديدة في جريدة الوفد، وكان حزب الوفد الجديد أواسط الثمانينيات من القرن الماضي يحاول استعادة صورة الوفد قبل انقلاب 1952، من خلال تجميع بقايا الوفديين القدامى والعائلات التي لما تزل تحمل تعاطفًا مع الوفد القديم وذكريات وفدية ذات خصوصية. وكان المتوقع أن يكون الحزب الجديد هو المعارضة الرئيسة للحزب الحاكم، ولكن النظام القائم لم يسمح بحياة سياسية حقيقية. أرادها مجرد ديكور يخاطب به العالم الخارجي، ويقنعه أن لديه ديمقراطية وأحزابا تتنافس على السلطة، ويضحك على الناس في الداخل، ويصور لهم أنهم أحرار، بيد أن الوفد الجديد صنع وجوده الحقيقي من خلال جريدته التي سارت على نهج جريدة المصري، وتوقفت مع إعلان الانقلاب العسكري عام 1952م.

تأسست جريدة " الوفد " الأسبوعية عام 1984، بمعرفة مصطفى شردي وجمال بدوي، وكانا يعملان في الخليج لسنوات طويلة، وأسّسا هناك بعض الصحف اليومية، مثل العروبة في قطر، والاتحاد في أبي ظبي.

معارك الفدائيين:

تولى مصطفى شردي رئاسة التحرير وجمال بدوي إدارته، وصنعا من الوفد جريدة أسبوعية قوية؛ بما فيها من أخبار وتحقيقات وآراء.

مصطفى شردي من مواليد بورسعيد (1935 - 1989م)، وتخرج في قسم الصحافة بكلية الآداب - جامعة القاهرة .. وكان والده محمد شردي محررًا بجريدة المصري.

بدأ مصطفى شردي كتابته الصحفية بتغطية معارك الفدائيين في القناة لجريدة المصري، ثم انتقل إلى أخبار اليوم، وحقق أول نصر صحفي في حياته عام 1956 عندما التقط عشرات الصور التي تفضح العدوان الثلاثي على مصر، بينما كان يحمل البندقية للدفاع عن مدينته الصامدة .. كما غطى أحداث الحرب الأهلية في لبنان عام 1958.

سويداء القلب:

وفي جريدة الوفد شن شردي معارك ضارية ضد الفساد والنظام ووزيره البذيء زكي بدر، وسياسته الشهيرة " الضرب في سويداء القلب "؛ مما عرضه لبعض المتاعب.

كما تصدى للدكتور رفعت المحجوب، رئيس مجلس الشعب، الذي رسخ مبدأ الديكتاتورية في إدارته للبرلمان، وحوّله إلى أداة للانتقام من المعارضين، ومسرح لعرض مؤامرات الحزب الحاكم في ذلك الوقت للمعارضين، ومكان تنطلق منه أحط الألفاظ والسباب، ونهش المعارضين والزعماء السياسيين .. وكان شردي عضوا منتخبا بالمجلس عن دائرة بورسعيد - وقد أصر المحجوب على رفع الحصانة عن شردي ليمثل أمام القضاء بسبب دعوى رفعها محافظ الإسكندرية فوزي معاذ؛ لأنه كشف فسادا في محافظته، ورفض النواب رفع الحصانة عن شردي .. وعقد الحزب الوطني اجتماعًا طارئًا تم فيه تهديد النواب؛ مما جعلهم يوافقون في جلسة أخرى على رفع الحصانة؛ خوفًا ورعبًا .. فوقف مصطفى شردي قائلا: إنني أرحب بالذهاب إلى ساحة القضاء؛ فإن محاربة الفساد مسألة تقترب من الجهاد في سبيل الله.

الوالد والولد:

كان شردي نبيلا في خصومته .. عفًّا في كلماته وعباراته .. لا ينحني إلا لله، وللأسف لم يكن ابنه الصحفي " محمد شردي " على مستواه، فقد وقف عام 2013 مع الانقلاب العسكري الدموي الفاشي، وشهّر برافضي الانقلاب، وانضم إلى الجوقة الإعلامية التي وقفت ضد إرادة الشعب وحريته والديمقراطية الحقيقية التي وأدها العسكر ..

بعد أن توفي مصطفى شردي في 30 / 6 / 1989، خلفه جمال بدوي (1934 – 2007 م)، في رئاسة تحرير الوفد، وذات يوم كتب مقالا عن سعد زغلول يهاجم فيه زميلا جامعيًّا – لا أعرفه – من جامعة الزقازيق، لأنه تناول الزعيم الوفدي بما لم يعجبه. فكتبت إليه رسالة من ثلاث صفحات، أدافع فيها عن حرية الرأي، وحق هذا الزميل في التعبير عن رأيه، وبينت له أنني لست ضد الوفد أو سعد زغلول من الناحية الإنسانية، وذكرت أن جدّي لأمّي كان مجاورًا وزميلا لسعد زغلول في الجامع الإبراهيمي بدسوق، والأزهر بالقاهرة، وأحد أخوالي كان وفديًّا، وسمعت أن وفاته كانت نتيجة مؤامرة بسبب انتمائه للوفد حيث أُغرق عند رشيد.

اتصال هاتفي:

وبعد أيام، تلقيت في وقت متأخر من الليل اتصالا هاتفيًّا منه، وتحدثنا معًا حديثًا مطولا، وأخبرني أنه سينشر الرسالة ضمن مقاله الطويل الذي يستغرق الصفحة الأخيرة من الجريدة.

فوجئت في الأسبوع التالي بالدكتور عبد العظيم رمضان (1925 – 2007)، يتدخل في الموضوع بمقال عنيف على صفحات الوفد، ويكتب بلاغًا أمنيًّا سافرًا ضدي، ويتهمني مع زميل الزقازيق الذي لا أعرفه اتهامات صارخة بتحريض الطلاب على التطرف والعنف، وإفساد عقول الشباب والأجيال الجديدة، ويطالب بتطهير الجامعة من أمثالي ودكتور الزقازيق،

وظن أنه بذلك يخيفني، ويقدم خدمة كبيرة للسلطة التي يخدمها ويدافع عنها بالباطل دائمًا !

رددت عليه بمقال مباشر، أوضحت فيه أنني لا أخافه ولا أخاف السلطة ولا الجهات التي يحرض من أجلها، وذكرت أن القضاء سيفصل بيننا إن شاء الله.

حكم بالتعويض:

وبالفعل تولى القضية الأستاذ إبراهيم الطراوي المحامي رَحِمَهُ اللَّهُ الذي كسب القضية بحكم نهائي بات، وحكم فيها بتعويضي بمبلغ (خمسين ألف جنيه) .. ولكنه للأسف لم يستطع تنفيذ الحكم؛ لأن عبد العظيم رمضان كان متزوجًا من ثلاث، وكلما ذهبت هيئة تنفيذ الأحكام إلى أحد العناوين لم يجدوه، وفشل صديقي المحامي في الوصول إليه.

قال لي بعدئذ: إن هناك محاميًا في القاهرة سيقوم بهذه المهمة، والمطلوب توكيل له ولهيئة مكتبه، ولكن محامي القاهرة لم ينجز شيئًا، ثم مات إبراهيم الطراوي، وبعده مات عبد العظيم رمضان، ولم يكن أمامي مفر من التسليم لله، ثم للأمر الواقع.

عبد العظيم والوفد:

لم أفهم في حينه العلاقة بين عبد العظيم رمضان والوفد؛ فهو يساري شيوعي ضد رؤية رأسمالية الوفد وإقطاعييه، مع أنه كان يحمل شهادة الابتدائية الأزهرية وحافظا للقرآن، ولكني فهمت بعدئذ أنه أشاد بفؤاد سراج الدين والوفد في كتاب له عن تطور الحركة الوطنية المصرية بين 1919 - 1954 وكتب أخرى. ومن هنا كان تعاطف سراج الدين رئيس حزب الوفد معه، فقد جعله يكتب مقالا أسبوعيا في الجريدة نظير مكافأة كبيرة بأسعار تلك الفترة. بالنسبة لي لم أتقاض مليمًا عما كتبته في الوفد أو أكتبه في غيرها حول الشأن العام حتى يومنا هذا، وأحتسب ذلك عند الله، ولعل من يتابعون كتاباتي يعرفون الآن لماذا أقول ما أريد دون مراعاة لحسابات هنا أو هناك.

شديد الذكاء:

بعد حصوله على الابتدائية الأزهرية خرج عبد العظيم رمضان إلى العمل في بعض المهن المتواضعة، ويقول رفاقه في الحركة الشيوعية إنه كان كمساريا في هيئة النقل العام، ولكنه كان مجتهداً وذكيًّا؛ بل شديد الذكاء، فحصل على الثانوية العامة من منازلهم، والتحق بقسم التاريخ في آداب القاهرة، وتبناه الدكتور محمد أنيس – وهو من قيادات الحركة الشيوعية المصرية – وساعده في الحصول على الدكتوراه، وعين بعدها مدرسًا للتاريخ بكلية التربية - جامعة المنوفية، التي وصل فيها إلى درجة أستاذ ومنصب العميد.

انضم عند تكوين الأحزاب في عهد السادات إلى حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي (توتو)، وخالف الحزب حين أيد مبادرة السادات بزيارة القدس وما تلاها من اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة الصلح 1979، وكافأه السادات ومبارك – من بعده - مكافآت عديدة، منهاعضوية المجلس الأعلى للثقافة، ورئاسة لجنة التاريخ فيه، وعضوية مجلس إدارة هيئة الكتاب المصرية، والإشراف على سلسلة تاريخ المصريين، إضافة إلى عضويته في كثير من اللجان التي تهم السلطة في الإعلام والتربية والتعليم والثقافة والصحافة. بيد أن الأهم كان فتح المجال أمامه لتكون له مساحات صحفية ثابتة في مجلة أكتوبر الأسبوعية، وجريدة الأهرام، ثم الجمهورية فيما بعد. بالإضافة إلى عضوية مجلس الشورى (الغرفة الأولى للمجلس التشريعي).

التطبيع مع العدو:

صار عبد العظيم مقربًا من فؤاد سراج الدين وحقق مذكرات سعد زغلول، وإن كانت هيئة التحرير في جريدة الوفد تتقبل وجوده كاتبًا فيها على مضض، خاصة وأنه كان من أبرز عناصر التطبيع مع العدو الصهيوني، وأجرى حوارات مع شخصيات يهودية في الكيان الغاصب. وهذا السلوك جعله مستهدفا للانتقاد، فكثرت معاركه الصحفية مع رفاقه اليساريين القدامى والناصريين وغيرهم.

وكان في معاركه لا يتورع عن التحريض العلني ضد مخالفيه، وقد دعا إلى إغلاق جريدة الأحرار وسحب ترخيصها، بعد أن نشرت الجريدة خبر حكم المحكمة لصالحي ضده بالتعويض والإدانة، كما شن حملة ضارية على جريدة الشعب، وهاجمها هجومًا حادًّا لصالح السلطة.

الطبع الميسّر:

ترك عبد العظيم مجموعة من المؤلفات، بعضها ضم مقالاته في الوفد وأكتوبر والأهرام والجمهورية، وقد أتاح له النظام الحاكم طبع كل ما كتبه بسهولة ويسر ومكافأته على ذلك بكرم بالغ. ومن هذه الكتب:

- الصراع الاجتماعي والسياسي في مصر من ثورة يوليو إلى أزمة مارس 1954، القاهرة، عام 1975.
- عبد الناصر وأزمة مارس، القاهرة، عام 1976.
- الجيش المصري في السياسة، القاهرة، عام 1977.
- صراع الطبقات في مصر، بيروت، عام 1978.
- الصراع بين الوفد والعرش، بيروت، عام 1979.
- الفكر الثوري في مصر قبل ثورة 23 يوليو، القاهرة، عام 1981.
- مصر في عصر السادات، القاهرة، عام 1986.
- تطور الحركة الوطنية في مصر، القاهرة عام 1986.
- حرب الخليج في محكمة التاريخ، القاهرة، عام 1990.
- الاجتياح العراقي للكويت في الميزان التاريخي، القاهرة، عام 1990. تاريخ مصر والمزورون، القاهرة، عام 1993.
- الصراع الاجتماعي والسياسي في عصر مبارك، القاهرة، عام 1994. مذكرات سعد زغلول (تحقيق)، عام 1996.

كما ترجم كتاب: تاريخ النهب الاستعماري لمصر (1798 ـ 1882)، تأليف: جون مارلو، القاهرة، عام 1986. بالإضافة إلى مشاركته أو مراجعته لبعض الكتب التاريخية العامة والمدرسية.

ابتسامة غامضة:

سألت جمال بدوي عن عبد العظيم رمضان ورأيه فيه، فابتسم ابتسامة غامضة، وقال لي: أنت تعرف كل شيء ! ومعناها اسكت، فسكت !

وجمال بدوي (1934 - 2007م) ولد في بلدة بسيون غربية، وهي قريبة من قريتنا نسبيًّا (حوالي 30 كم) على الضفة الأخرى من النيل، وقد تخرج في قسم الصحافة بكلية الآداب – جامعة القاهرة، وأحب التاريخ وقلّب كثيرًا من صفحاته، ونقل كثيرًا منها ومن مضمونها إلى القراء في الصحف التي عمل بها، أو على صفحات الكتب التي ألفها، أو عبر شاشة التلفزيون أو ميكروفون الإذاعة في البرامج التي قدمها.

فوجئت به يترك جريدة الوفد التي أسّسها مع مصطفى شردي، وفهمت منه أن الأمر كان احتجاجًا على تدخلات من جانب الحزب في سياسة الجريدة التحريرية بما يخرجها عن المهنية.

وقد تلقى (شدة أذن) !! بسبب تجاوزه الخطوط الحمراء مع نظام مبارك، حيث اعتدى عليه بعضهم، فكسروا عظامه مع تكسير سيارته. المفارقة أن رئيس الدولة اتصل به بعد الحادثة وهو في المستشفى؛ ليطمئن عليه !

صوت الأزهر:

عمل جمال بدوي في صحف أخبار اليوم، وذهب مع مصطفى شردي إلى الخليج؛ ليؤسسا بعض الصحف هناك - كما سبقت الإشارة - وعادا إلى مصر لإنشاء جريدة الوفد، وبعد أن توفي شردي تولى بدوي رئاسة التحرير حتى استقال منها - كما أوضحت من قبل - ليؤسس جريدة أسبوعية تنطق باسم شيخ الأزهر، اسمها " صوت الأزهر "، ولم تحقق نجاحًا يذكر، فتركها وتفرغ للتأليف والكتابة في الصحف الحكومية، وكان آنئذ في حالة تصالح مع النظام.

وقد رزئ في بعض أبنائه؛ حيث توفي أحدهم متأثرًا بمرضٍ مزمن، وهو ما انعكس عليه سلبًا، فمرض ومات بعد فترة قصيرة، مخلفًا مجموعة من المؤلفات، منها:

" الطغاة والبغاة " دار الشروق 1996؛ و" مسرور والسياف .. وإخوانه "، دار الشروق 1996؛ و " في محراب الفكر "، الهيئة المصية العامة للكتاب 1998؛ و" محمد علي وأولاده "، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999؛ و" مسلمون وأقباط من المهد إلى المجد "، دار الشروق 2000؛ و" في دهاليز الصحافة "، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2002؛ و" مسافرون إلى الله بلا متاع "؛ و" الوحدة الوطنية بديلا عن الفتنة الطائفية "؛ و" معارك صحفية "؛ و" المماليك على عرش فرعون "؛ و" حكايات مصرية "؛ و" أنا المصري "؛ و" من عيون التراث " رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الصراع على الزعامة:

ومع رحيله كان حزب الوفد قد تعرض لانتكاسة بسبب الصراع على زعامته في عهد نعمان جمعة، وهو صراع غذته بعض الجهات؛ لتعوق الحزب عن التطور والنمو والمشاركة الحقيقية في الحياة السياسية، وبناء الوطن بالفكر والرأي والتخطيط، كما يفترض في الأحزاب بالبلاد الديمقراطية، وهو ما تكرر من قبل ومن بعد مع أحزاب أخرى مثل الأحرار والعمل ومصر الفتاة والأمة والغد، حيث تدفع الجهات إياها شخصًا ما مع بعض أتباعه لعقد جلسة لما يسمى الهيئة العليا، وفي هذا الاجتماع يتم انتخابه رئيسا للحزب، وهنا يجري الصدام بين الرئيس القديم والرئيس الجديد وأتباع كل منهما، ويتصاعد الصراع ليصل إلى استخدام السلاح كما حصل في حزب الوفد، فضلا عن وصوله إلى المحاكم ولجنة الأحزاب، وتستغرق عملية الفصل بين المتصارعين سنوات، قد تنتهي بتجميد الحزب أو بقاء الوضع على ما هو عليه، أو الحكم لطرف لا يوافق عليه الطرف الآخر، وبصفة عامة يحدث شلل للحزب، وتتوقف حركته عن المشاركة الطبيعية في مجريات الأمور.

هكذا يتم وأد الحياة السياسية لصالح الاستبداد والديكتاتورية، وتفريخ نوعية من أعوان النظام لا خلاق لهم ولا ضمير، يخربون مسيرة المجاهدين من أجل الحرية والديمقراطية، وإن كان هناك من يرى أن الحياة السياسية في ظل الاستبداد الحاكم لا خير فيها بحال.

الأديب الأروع:

في أواخر عام 1986 أو أوائل 1987، فكرنا في الكلية في عقد مؤتمر حول الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي (1298 – 1356 هـ = 1880 – 1937 م)، الذي ظلمته الحياة الأدبية ولم تنصفه بسبب توجهه الإسلامي. مع أنه يمثل حالة من الإعجاز الإنساني – إن صح التعبير – فهو كما وصفه محمد رشيد رضا، صاحب المنار: « الأديب الأروع، والشاعر الناثر المبدع، صاحب الذوقِ الرقيق، والفهمِ الدقيق، الغواص على جواهر المعاني، الضارب على أوتار مثالثها والمثاني ».

وتحدث عنه عباس محمود العقاد، فقال بعد وفاته بثلاثة أعوام: « إن للرافعي أسلوبًا جزلا، وإن له من بلاغة الإنشاء ما يسلكه في الطبقة الأولى من كُتّاب العربية المنشئين ».

ونعته المُحَدِّث أحمد محمد شاكر بـ: « إمام الكُتّاب في هذا العصرِ، وحجة العربِ ».

وقال عنه الزعيم مصطفى كامل: «سيأتي يوم إذا ذُكر فيه الرافعيُّ قال الناس: هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان ».

الشهادة الابتدائية:

هذه المكانة الرفيعة التي وصل إليها الرافعي – كما وصفها الأعلام والزعماء – صنعها كاتب لم يحصل إلا على الشهادة الابتدائية بتفوق من مدرسة ابتدائية بمدينة دمنهور التي كان والده يعمل قاضيا بها، ثم أصابه مرض التيفود، فأقعده عدة شهور في السرير، وخرج من المحنة مصابا في أذنيه ، واستفحل المرض حتى فقد سمعه نهائيًّا في الثلاثين من عمره. شابه الرافعي روّاد الأدب والفكر في زمانه من بعض الوجوه؛ فالعقاد لم يحصل إلا على الابتدائية، وطه حسين فقد البصر، ولكنهم جميعًا كانوا من أصحاب الإرادة الحازمة القوية، فلم يعبأوا بالصعاب والعقبات، وأخذوا أنفسهم بالجد والاجتهاد، والتمسوا العلم في مظانه بكل السبل، وكان والد الرافعي خير عون له؛ حيث تعلم على يديه، وأفسح له المجال لينهل من ينابيع الثقافة المتعددة.

الرافعي رائد عظيم، حين بيّن أن الشاعرية ليست قاصرة على الشعر المنظوم المقفي، وحقق مقولته من خلال النثر الشعري الحر في التعبير عن عواطفه ومشاعره، ملتزمًا بآداب الدين والأخلاق والأعراف الاجتماعية، وحين اقتحم ميدان الدراسات الأدبية بمنهج رأسي – لعله الأول في الدراسات الأدبية العربية قاطبة، وكان كتابه " تاريخ آداب العرب " نموذجًا لهذا المنهج، وظهر في عام 1911. وكتابه المشهور " تحت راية القرآن "، ليتناول إعجاز القرآن بتحليل متميز ورؤية فريدة، وينسف مزاعم طه حسين " في الشعر الجاهلي ". وكتابه الذي تواصل فيه مع قضايا مصر والأمة الإسلامية والعالم من خلال المقالة والدراسة والقصة، أعني " وحي القلم "، الذي لم تزل مادته مقروءة وتعالج قضايا قديمة حديثة في إطار من الهندسة اللغوية والتعبيرية، يتفرد بها أديب البيان مصطفى صادق الرافعي.

رائد عظيم مثل الرافعي يحتاج - بلا شك - إلى دراسة عميقة في بحوث أكاديمية ومؤتمرات علمية وسياقات مختلفة.

المشكلة الرئيسة:

ها نحن نفكر في إقامة مؤتمر له على مستوى العالم ! ولم لا ؟

تمثلت المشكلة الرئيسة في تمويل المؤتمر، فالميزانية المخصصة للنشاط الثقافي كله لا تكفي لتغطية 10 ٪ من تكاليف المؤتمر.

كان لنا أصدقاء في مديرية الشباب والرياضة بالمحافظة التي تصدر مجلة شهرية بالماستر تحمل اسم " الرافعي "؛ بوصفه أبرز الأدباء الرواد في مصر، المنتمين إلى طنطا حيث عاش وتوفي، وإن كان من مواليد بهتيم بمحافظة القليوبية.

من يصدرون المجلة لهم اهتمامات أدبية واضحة، يكتبون القصة والقصيدة والمقالة النقدية والمسرحية، وبعضهم له نشاط في الفنون التشكيلية والعمل الصحفي، وكانوا يتواصلون مع الكلية باستمرار في نشاطها الثقافي والأدبي، ويشارك بعض الأساتذة بالكتابة في مجلة الرافعي. وعندما طرحت الفكرة تجاوب معها القائمون على المجلة، وعبّروا عن

إمكانية المشاركة في تمويل المؤتمر على أساس أن ميزانيتهم جيدة، ويمكن تقليص الصرف في المجال الرياضي بصورة ما لحساب الإسهام في المؤتمر، واشترطوا أن يذكر اسم مديرية الشباب أو مجلة الرافعي في بيانات المؤتمر بوصفها شريكا في إقامته.

تكاليف متواضعة:

وكي يكتمل التمويل فكرت الكلية في طلب دعم من الجامعة والمحافظة. الجامعة تدفع مبلغًا وتخصص قسمًا من المدينة الجامعية لإقامة الضيوف، على أن يقدم لهم مطعمها بعض الوجبات المميزة، أما المحافظة فتشارك بالنقل الداخلي واستضافة المشاركين في المؤتمر على غداء أو عشاء في بعض أيام المؤتمر.

صار ممكنا الآن إقامة المؤتمر بتكاليف متواضعة، وقبلنا مشاركة باحثين من خارج مصر، على أن يتحملوا نفقات السفر من بلادهم إلى القاهرة والعودة، ويتولى المؤتمر مسئولية الإعاشة، والإقامة، والتنقلات بالنسبة لهم.

بعد الإعلان عن المؤتمر جاءت البحوث، ووضع البرنامج لثلاثة أيام، تشمل الافتتاح والندوات ومواعيد الطعام وزيارات المشاركين لمعالم المحافظة والتوصيات والانتهاء.

افتتاح ناجح:

بدأ المؤتمر أولى الجلسات بالافتتاح في قاعة المحافظة، وحضر وزير الثقافة آنئذ الدكتور أحمد هيكل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وألقى كلمة، وبالطبع حضر رئيس الجامعة والمحافظ ورجاله ورؤساء الإدارات الحكومية، بالإضافة إلى أساتذة الكليات والأدباء والطلاب، كما حضر بعض أقارب الرافعي، ولعل ابنة له - فيما أذكر - كانت من بين الحاضرين .. كان مشهد الافتتاح ناجحًا؛ فقد كان هذا أول مؤتمر ثقافي دولي في المحافظة يحضره مشاركون من دول شتى.

بعد الافتتاح التقيت بالدكتور هيكل وزير الثقافة في مكتب المحافظ، وعرفته بنفسي .. فقال لي بمودة:

- طبعا أعرفك يا حلمي.

تكلمت معه بشأن طبع أعمال الرافعي وخاصة ديوانه، فرحب الرجل ووعد بنشر كل ما يتعلق به، لولا أن الظروف لم تساعد على متابعة الأمر .. وكان الدكتور هيكل قد ترك الوزارة، وجاء بعده آخر له حديث قادم إن شاء الله في إفساد الثقافة والأدب والحياة الأدبية عمومًا.

جمع المؤلفات:

كنا قد جمعنا معظم مؤلفات الرافعي العديدة والمهمة، ومنها:

- صورة ضوئية لديوان الرافعي (ثلاثة أجزاء): صدرت طبعته الأولى بين سنتي 1903 - 1906. وقدم الرافعي لكل جزء منها بمقدمة في معاني الشعر، يشرح فيها رؤيته وتصوره للشعر، وأعقبها بشرح يُنسب إلى أخيه المرحوم محمد كامل الرافعي، ويرجح أنه كُتب بمعرفة الرافعي نفسه.
- تاريخ آداب العرب: وهو أشهر كتب الرافعي لدى الأدباء. ويعرف الجزء الثاني منه باسم إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.
- حديث القمر.
- المساكين.
- رسائل الأحزان.
- السحاب الأحمر.
- أوراق الورد.

والكتب الخمسة السابقة تأملات عاطفية، وتعبير عن مشاعر ذاتية فياضة، وهي أقرب إلى الشعر المنثور، ولها حظ كبير من الشهرة بين القراء.

- تحت راية القرآن: وهو مقالات الأدب العربي في الجامعة، ردًّا على كتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين .. صدر في سنة 1926.
- على السفّود: وهو رد عنيف على عباس محمود العقاد، نشرته مجلة العصور في عهد إسماعيل مظهر، ولم يصرح باسم الكاتب، واكتفي بتوقيع " إمام من أئمة الأدب العربي ".
- وحي القلم، في ثلاثة أجزاء، تضم معظم ما كتبه في مجلة الرسالة من مقالات وقصص بين عامي 1934 - 1937 م عام وفاته.

- رسائل الرافعي، وهي مجموعة رسائل خاصة، كان يبعث بها إلى محمود أبي رية، وقد اشتملت على كثير من آرائه في الأدب والسياسة ورجالهما.
- السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية: وهو بحث نفيس، أنشأه الرافعي استجابة لدعوة جمعية الهداية الإسلامية بالعراق؛ لتنشره في ذكرى المولد النبوي سنة 1352 هـ. وأظن هذا البحث قد أدرج ضمن كتابه تاريخ الأدب العربي في الطبعات التي ظهرت بعد وفاته.

أعمال مجهولة:

في المؤتمر تحدث بعض الباحثين عن أعمال مجهولة للرافعي لم يتح لنا الحصول عليها، مثل الأناشيد الوطنية التي صاغها لسعد زغلول ومصر وبعض الدول العربية، ومسرحية نسبت إليه، وكتاب في الإنشاء، وآخر في شعائر الحج ..

لاحظت أن عددًا كبيرًا ممن لم توجه إليهم الكلية الدعوة حضروا إلى المؤتمر .. معظمهم من الفريق الذي تخصص في حضور مؤتمرات وزارة الثقافة والندوات العامة، وكلهم ينتمون إلى فكر يساري أو شبيه باليساري، وشكلوا لنا بعض المتاعب في المؤتمر، واستطعنا - بفضل الله - تجاوزها، عرفت فيما بعد أن هؤلاء تمت دعوتهم من جانب مجلة الرافعي شريكنا في المؤتمر لأسباب تخصهم.

نجم المؤتمر:

كان المؤتمر يسير سيرًا حسنًا، وكان نجم المؤتمر - بحق - الأستاذ أنور الجندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد جلى كثيرا من جوانب الرافعي المجهولة، وأفحم بعض المتحذلقين الذين حاولوا التقليل من قيمته أو ريادته.

ثم كانت عاصفة من عواصف المؤتمر، أحدثها بعضهم؛ متصورا أن ما يقوله لن يمر، فإذا بعدد كبير من الحاضرين يتصدون له ويفحمونه، وتنفض الجلسة بعد شحن النفوس والقلوب بما لا يسر!

لاحظت أن الفئة التي لم تدعها الكلية، وفيها للأسف بعض من ينتسبون إلى السلك الجامعي، جاءوا وكأنهم يريدون إفشال المؤتمر، عن طريق

الهيمنة عليه، والتحكم في مساره. أتاح لهم ذلك الزميل الذي كان أمينا للمؤتمر، وكان قريبًا من أفكارهم. هيأ لهم فرصة التقليب في أبحاث المؤتمر وتعديل جلساته بما يجعل الأبحاث الجيدة تلقى في وقت غير مناسب، وتسمح لهم باستهدافها والتقليل من شأنها، وأبحاث بعينها تلقى في وقت يتيح لهم دعمها بالمداخلات والإطراء.

جرأة غريبة:

ثم لاحظت أن هؤلاء الضيوف الذين لم تدعهم الكلية يمتلكون جرأة غريبة، تصل ببعضهم إلى حد الوقاحة أحيانًا، وكانوا يلتقون بعد انتهاء النشاط اليومي في إحدى الغرف، ويسهرون حتى قرب مطلع الشمس، ويتداولون في أمور وقضايا لا نعلمها نحن المضيفين أو الباحثين الزملاء - كما يفترض، مما جعلني أرجح أن هؤلاء يشبهون لجنة مركزية لحزب سري !

حفاظًا على المؤتمر وحرصًا على إنجاحه، كان لابد من التغاضي عما يحدث منهم، والصمت في بعض المواقف حتى ينتهي المؤتمر على خير.

الدرس المهم الذي خرجت به من المؤتمر، وأعلنته في أكثر من مناسبة داخل القسم والكلية، أن أي مؤتمر لابد أن يكون مستقلا تحت أي ظرف من الظروف ولو لم تتم إقامته، أي لا يشارك مع الكلية أحد من خارجها.

قصة الحب:

بعد إعلان التوصيات وفض المؤتمر، تولى الضيوف الذين لم ندعهم تغطية المؤتمر في الصحف والمجلات على طريقتهم، وركزوا على أن الأبحاث لم تتجاوز قصة حب الرافعي لمي، و كتاب على السفود المنسوب إليه. وقد استفزني ذلك لأكتب في الأهرام أكثر من مقال، أوضح فيه أن المؤتمر شهد أبحاثًا مهمة، تتناول أدب الرافعي في جوانب مختلفة، وهي أبحاث علمية جديدة لم يتطرق إليها أحد من قبل. كما أذكر أني كتبت في مجلة الرافعي بعض التعليقات، وحرصت أن أنشر فيها بعض ملخصات الأبحاث، كما دفعت ببعض الأبحاث للنشر في أماكن متعددة؛ لإثبات أن المؤتمر لم يكن قاصرا على قصة الحب وكتاب السفود.

كشف لي المؤتمر عن تصرفات وسلوكيات غريبة بين بعض الزملاء، ولأن تكويني ينتمي إلى الفلاحين السذج، فقد كنت أتعامل بمثالية في

وسط يفترض أنه مثالي، ولكني كنت شديد السذاجة للأسف، والساذج لا محل له في مجتمع مليء بالعجائب والغرائب.

لا شك أن هناك زملاء محترمين، يتميزون بالمروءة والشهامة، ويتحركون بأخلاق رفيعة - ولا أزكيهم على الله - ولكنهم للأسف قلة في محيط لا يشبههم ولا ينتمي إليهم.

***

7 - الحظيرة وأبو حصيرة !

الباحث عن الحرية:

فكرت بعد نجاح مؤتمر الرافعي، وإعادة اسم الأديب الرائد العبقري إلى الذاكرة الجمعية، بعد طول تغييب، أن يكون المؤتمر القادم عن الروائي القصصي الشاعر الباحث الدكتور نجيب الكيلاني، وهو من الكتاب المظاليم الذين عتّم عليهم الفريق المهيمن على الحياة الثقافية؛ بسبب توجهه الإسلامي الباحث عن الحرية، فضلا عن تأثير الغربة الطويلة عن الوطن على معرفة الأجيال الجديدة بكتبه، وإنتاجه الأدبي والفكري الذي نشر معظمه في بيروت وعمّان ودولة الإمارات.

بيد أن توجه نجيب الكيلاني الإسلامي في زمن الهيمنة الشيوعية والفكر المعادي للإسلام، غيّب الرجل من ذاكرة مصر كلها، ونجح الشيوعيون في ذلك نجاحًا منقطع النظير؛ لأن نجيب الكيلاني كان موهوبًا بحق، ولو أنه أتيح له حق الظهور والانتشار في بلده لأطفأ كثيرًا من المواهب الضحلة والأصوات المزيفة، ولساعد كثيرًا من الموهوبين الأصلاء على الظهور واحتذاء طريقه، وإغناء أدبنا الحديث بألوان متعددة من الإنتاج الرفيع والعطاء الناضج، ولكن مشكلة الرجل أنه مسلم، يتبنى الإسلام عمليًّا لا شكليًّا، فكان حصاره وكان التعتيم عليه، وشطبه من الذاكرة الوطنية، مع أنه منذ بواكير حياته الأدبية حظي بالجوائز والاهتمام؛ فقد حصل على جائزة الرواية 1958، وميدالية طه حسين الذهبية من نادي القصة 1959، وجائزة المجلس الأعلى للفنون والآداب 1960، عن روايته " اليوم الموعود "، وفي العام التالي 1961م حصل على جائزة المجلس أيضا عن روايته " في الظلام "، وجائزة مجمع اللغة العربية 1972، والميدالية الذهبية من الرئيس الباكستاني 1978، وكانت إحدى رواياته " ليل العبيد " سببًا في حصول مصر على أول جائزة سينمائية عالمية في

مهرجان طشقند لعام 1972 – 1973 م، بالفيلم المأخوذ عنها والمعروف باسم " ليل وقضبان ".

دفع الجزية:

بل إن نجيب محفوظ – أشهر كتّاب الرواية المصرية – اعترف بموهبة نجيب الكيلاني الساطعة، وقدرته على التعبير عن التصور الإسلامي، ولكننا في بلد يجب أن تدفع فيها " الجزية " لأنك مسلم، يريد أن يعيش بمنهج الإسلام وتصوره ! أليست الاعتقالات والسجون والمحاكم الاستثنائية والمنع من السفر، وحرمان الأبناء والأقارب من دخول الكليات العسكرية والشرطية، والمنع من العمل بالقضاء والجيش والشرطة والصحافة والإعلام والثقافة والخارجية، وغيرها من الوظائف المهمة " جزية " عصرية، بل جزية جائرة وظالمة وقاتلة ؟

الإسلام تهمة لصاحبها الذي يتمسك بجوهره وتصوره. يقولون لك: ألسنا مسلمين ؟ قل لهم: نعم. أنتم مسلمون. ولكن على الطريقة الأمريكية، والبدوية. طريقة مسيلمة الكذاب، طريقة الإسلام الشكلي اللحية والجلباب والتحالف مع الأشرار وخيانة الإسلام. طريقة ساعة لربك وساعة لقلبك. طريقة " ربنا رب قلوب وسيبك من فرائض الدين "، فلا صلاة ولا زكاة ولا صيام، ولكن ظلم وبغي وعدوان، وسرقة ونهب ونصب..

عش مطيعًا:

إذا أردت أن تكون مسلمًا كما ينبغي فلا تفكر أن يكون لك نصيب في الوجود الفاعل داخل وطنك .. المجرم الجنائي الذي يبيع المخدرات ويمارس القتل أو يتاجر بالدعارة أو يختلس الأموال العامة، له فرصة الحياة والحركة، حتى في داخل السجن يعيش بشيء من كرامته وإنسانيته، أما المسلم كما ينبغي، فالويل له من السلطة ومن جلاديها ومن إعلامها ومن مجتمعها.

ينبغي إذا أردت الحياة (بالمعنى البيولوجي) أن تعيش مطيعًا، تهتف حين يراد منك الهتاف، أو تبكي حين يراد منك البكاء، ولا بأس أن تكون مسلمًا في شهادة الميلاد، شريطة ألا تمارس الإسلام بمعناه الذي أراده رب العالمين، وسوف تجد من المفتين وشهود الزور من يطلبون منك أن تكون مسلمًا

وسطيًّا على غرار " الإسلام الوسطي " الذي يقوم على الرقص والطبل والزمر، كما سمته عالمة من العوالم أو غازية من الغوازي !

إيثار الغربة:

كان نجيب يستطيع أن يحقق وجودًا فاعلا لو تخلى عن إسلامه، أو تصوره الإسلامي بمعنى أدق، ولكنه آثر الغربة هربًا من سجون عبد الناصر التي ذاق فيها الويل والثبور وعظائم الأمور. لم يستسلم، هرب بجلده إلى بلاد بعيدة مجهولة يومئذ؛ ليعمل، ويعول أسرته، وفي الوقت ذاته يكتب، ويبدع بحق وليس بالدعاية، ويقبل على كتاباته آلاف القراء في بلاد غير مصر.

لأسباب شتى لم تتبلور فكرة المؤتمر عن نجيب .. شغلتني أمور خاصة عديدة، بالإضافة إلى انتقالي وزملائي إلى كلية الآداب، وهي بيئة جديدة مختلفة عن كلية التربية نوعًا ما، مع أنهما كانا في مبنى واحد، وكان تفكيري في السفر أو الغربة مرة أخرى - بعيدًا عن كثير من المشكلات والمتاعب في الحقل الجامعي - عاملا من عوامل تلاشي فكرة المؤتمر.

الطريق الطويل:

والدكتور نجيب الكيلاني (1931 - 1995م) من أبناء محافظة طنطا (مواليد شرشابة - مركز زفتى)، وقد فتنت بروايته الأولى " الطريق الطويل " في صباي؛ بسبب التشابه بين حياة بطلها ومعاناته الفقر والمتاعب الاجتماعية، وبين حياتنا نحن أبناء الفقراء. أعجبنا الكفاح ومواجهة المشقات، وكنا - نحن الطلاب الفقراء - نتبادل الرواية، ونتناول أحداثها باهتمام كبير وشغف واضح. والمفارقة أن هذه الرواية التي كانت مقررة على طلاب التعليم الثانوي فيما أذكر، حصلت على جائزة وزارة التربية والتعليم، وكان نجيب معتقلا بسبب انتمائه إلى الإخوان المسلمين، وهو ما جعل المسئولين مضطرين إلى إخراجه من السجن؛ ليتلقى جائزته من جمال عبد الناصر في عيد العلم !

في السبعينيات قرأت له رواية أخرى جميلة وإن كانت فاجعة، يرصد فيها وحشية التعذيب في سجون عبد الناصر، وقيادة شمس بدران لعمليات التعذيب الوحشية، وأبرز ما في هذه الرواية وعنوانها " رحلة إلى الله "، أن

نجيب يتغلغل في أعماق الجلادين ونفوسهم الخربة، وشخصياتهم الجوفاء، التي تعجز عن مواجهة حقائق الحياة خارج سلطتهم الإجرامية.

كتبت في حينه دراسة أدبية عن هذه الرواية، نشرتها مجلة " رابطة العالم الإسلامي " في مكة المكرمة، وللأسف افتقدت المجلة وأصل الدراسة، ولا أدري هل سأعثر عليها أو لا !

على سرير المرض:

تواصلت مع الرجل بعدئذ، وقابلته في بيته بطنطا أكثر من مرة، وتعرفت إلى أسرته وأولاده وشقيقه الدكتور محمد، الذي كان زميلا لنا في جامعة طنطا، ووصل إلى منصب عميد كلية التربية الرياضية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

تعددت اللقاءات مع الدكتور نجيب في أكثر من مناسبة، وخاصة في الرياض؛ حيث شهد عديدا من المؤتمرات والمناسبات، كما شهدت الرياض محاولات لإنقاذ حياته قبيل رحيله في مستشفى الملك فيصل التخصصي، وكنت قريبًا منه في مرضه الأخير، وكان يحكي لي ذكرياته التي أشرت إلى بعضها فيما كتبته عنه، وخاصة في كتابي " الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني ".

كان آخر لقاءاتي به قبيل رحيله بأيام في بيته وهو على سرير المرض في بيته بطنطا .. تحدثنا بعض الوقت .. الغريب أنه ذكر لي قصة وفاة جده إبراهيم (البلعوطي)، الذي جعله عنوانًا على إحدى رواياته، حيث دخلت عليه زوجته فوجدته يبكي، فقالت له:

- لماذا تبكي يا نجيب ؟

فقال لها وهو يمسح دموعه:

- لقد دفنت جدي الآن !

قالت له:

- إن جدك دفن منذ سنوات بعيدة.

قال لها:

- لقد دفنته في الرواية التي انتهيت منها.

وكأنه يشير إلى نهايته هو في المكان ذاته الذي بكى فيه على جده، وكانت الآلام قد هدته تمامًا وأنذرت بالرحيل.

خارج العالم العربي:

حقق نجيب الكيلاني سبقًا أدبيًّا وريادة فنية في تناول مشكلات المسلمين خارج العالم العربي، وعرض ظروفهم وأحوالهم وبيئاتهم، حين حكى قصصهم في نيجيريا وإثيوبيا وتركستان وإندونيسيا، وتنبأ بزوال الشيوعية وسقوطها، وكان رائدًا في اهتمامه بفلسطين، ورسم الطريق إلى تحريرها من خلال التصور الإسلامي، الذي عبر عنه في أعماله القصصية والشعرية.

وأظن أن رواياته وكتبه التي تركها وراءه، تجعله حاضرًا بيننا بفنه وتصوراته، فقد ترك مجموعة كبيرة من الروايات، منها:

اليوم الموعود، في الظلام، قاتل حمزة، ليل العبيد، رجال وذئاب، مواكب الأحرار، رحلة إلى الله؛ نور الله، الكابوس؛ عمر يظهر بالقدس، أميرة الجبل، ليالي تركستان، عمالقة الشمال، عذراء جاكرتا، الظل الأسود، حكاية جاد الله، أهل الحميدية، مملكة البلعوطي، اعترافات عبد المتجلي، امرأة عبد المتجلي، ملكة العنب..

كما ترك عددًا من المجموعات القصصية، منها:

عند الرحيل، موعدنا غدًا، العالم الضيق، رجال الله، فارس هوازن، حكايات طبيب..

وله مجموعة كبيرة من الكتب والأبحاث العلمية والأدبية والإسلامية، والاجتماعية، منها:

المجتمع المريض، الإسلام والقوى المضادة، الطريق إلى اتحاد إسلامي، مدخل إلى الأدب الإسلامي، الإسلامية والمذاهب الأدبية، آفاق الأدب الإسلامي، الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية، لمحات من حياتي: سيرة ذاتية، إقبال الشاعر الثائر، شوقي في ركاب الخالدين، في رحاب الطب النبوي.

وقد تُرجم كثير من هذه الأعمال إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والتركية والروسية والأردية والفارسية والصينية والإندونيسية والإيطالية والسويدية.

الأمل الطريد:

ولم يكن الكيلاني في شعره أقل منه في رواياته وقصصه، فهو - كما وصفه بعض النقاد - شاعر " الأمل الطريد "، الذي يمتلك ناصية الإيقاع والإبداع عبر دواوينه الثمانية، التي تنطق بالفن الأصيل، ذي الضوابط والغايات، عبر اللفظة الموحية، والنغمة الربانية، والتلمس الراهف لقواعد الفن الجميل..

حيث يقول:

أنا لست أرضى أن أعيش ... بشاطئ الدنيا غريب
في معقل الصمت الكئيب ... على ثرى واد رهيب
الحزن أغنيتي وأحلامي ... يوشيها الشحوب
أنا لست أرضى أن أكون ... صدى هزيلا في الدروب
إن الحياة على الغريب ... أشق من هول الممات
مفجوعة النجوى معذبة ... الخواطر والسمات
وشروقها مثل الغروب ... وشدوها لحن النعاة
فهي الفراغ المدلهم ... ومدفن للأمنيات

آليات القصة:

استطاع الكيلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يوظف كثيرًا من آليات الفن القصصي في شعره، فاستخدم الرمز والقناع والحوار والسرد والتعبير المتلاحق، والارتداد (الفلاش باك)، والمفارقة، واللقطات المقتطعة من خلال الأشكال والمضامين التعبيرية المتفردة - كما يرى د. جابر قميحة - منذ أول دواوينه " نحو العلا " عام 1950 وهو طالب بالمرحلة الثانوية، حتى آخرها " لؤلؤة الخليج " وهو الديوان الذي لم يكتمل، مرورًا بـ " كيف ألقاك ؟ " و" عصر الشهداء " و" أغنيات الغرباء " و" مدينة الكبائر "، و" مهاجر "، و" أغنيات الليل الطويل ".

قبل رحيله ترك ثلاثين فكرة لثلاثين رواية إسلامية، دوّنها في مفكرة صغيرة عن مشكلات المجتمع المسلم. كما أنجز مسرحية بعنوان " حبيبتي سراييفو ".

وبعد رحيله أشرفتُ على بعض الرسائل العلمية (ماجستير ودكتوراه) حول رواياته وأدبه، وناقشت بعضها الآخر، ولاحظت أن عددًا غير قليل من الرسائل العلمية تم إنجازه في البلاد العربية والإسلامية عن جوانب مختلفة في أدب نجيب الكيلاني؛ مما يدل على أن أدبه أثر في كثير من القراء والباحثين الذين جعلوه مادة خصبة لقراءاتهم ودراساتهم .. رحم الله نجيب الكيلاني.

التفكير في الغربة:

حين بدأت الدائرة الثقافية تضيق أمام المثقفين الأصلاء، وكثرت المشكلات في الجامعة، وارتفعت حدة القمع في البلاد؛ نتيجة العنف والعنف المضاد - فكرت أن أسافر أو أغترب مرة أخرى؛ من أجل فرصة لالتقاط الأنفاس، أو استراحة محارب لأفكر فيما مضى وفيما هو آت.

وكان خروج الدكتور أحمد هيكل من وزارة الثقافة نهاية مرحلة كانت تتيح بعض التنفس في الحياة الثقافية، وبداية مرحلة جديدة لثقافة أخرى، وتصفية المثقفين الذين يفكرون في القيام بدور عملي ورسالي؛ لتكون هناك " حظيرة ثقافية "، تضم المثقفين الذين يتوجه ولاؤهم الكامل والمطلق للنظام البوليسي الفاشي. وتسمية الحظيرة أطلقها الوزير الذي خلف الدكتور أحمد هيكل في الوزارة، بعد أن ضمن تأييد كثير ممن كانوا يعارضونه في البداية، وأغلبهم - للأسف - من أهل اليسار!

غير معروف:

فوجئ الناس بتعيين وزير ثقافة في وزارة الدكتور عاطف صدقي غير معروف في المجال السياسي خلفًا للدكتور أحمد هيكل. كان مديرا لقصر الثقافة في الأنفوشي بالإسكندرية، ثم مديرًا لمكتب وزير الثقافة، وبعد ذلك عمل في الفترة 1982 - 1986 مديرًا للأكاديمية المصرية للفنون بروما، وانتقل إلى الملحقية الثقافية المصرية في باريس؛ حيث عمل هناك مع رئيس الوزراء الذي كان سفيرًا لمصر في فرنسا ورشحه للوزارة تحت رئاسته.

قال أحد الصحفيين الكبار يومئذ – ولعله إبراهيم سعدة إن لم تخني الذاكرة – إن المذكور كان ترتيبه الخامس بين المرشحين لوزارة الثقافة، وتم اختياره بعد استبعاد الأربعة الذين يسبقونه لأمر غير مفهوم !

وجوم !:

عقب حلف الوزراء لليمين الدستورية أمام الرئيس بأيام قليلة، قرأت مقالة بعنوان " وجوم " في الصفحة الأدبية لجريدة الأهرام، بقلم الأديب المعروف ثروت أباظة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكنت يومها في القاهرة، كان المقال حانقًا وغاضبًا بسبب تعيين المذكور وزيرًا للثقافة، وعرض ثروت في مقاله أسبابا عديدة لرفض هذا الوزير. وظننت أن ثروت غاضب لأنه لم يعين وزيرًا .. كنت أستشعر أنه يرى نفسه الأحق بالوزارة بعد خروج أحمد هيكل، ولهذا كتب مقاله ليعلن عن وجوده أو أحقيته في الوزارة بدلا من هذا الذي تم تعيينه.

كنت يومها في الأهرام، وقابلت ثروت، وسألته معتقدًا أن الموضوع يخصه، فاحمر وجهه في غضب طفولي، عهدته منه مذ عرفته قبل سنوات، وقال لي:

– مش عارف يا حلمي ؟

قلت له ببساطة الفلاح البريء الذي لا يعرف الخفايا والأعماق:

– مش عارف (لا أعرف) !

قال من فوره:

– دا كذا.. .. (وقال كلمة لا أستطيع ذكرها !).

قلت في ذهول:

– مش ممكن !

قال بابتسامة ساخرة:

– أنت راجل طيب يا حلمي !

خرجت من مكتب ثروت ورأسي تدور، وتساءلت في داخلي: أيكون ثروت صادقا ؟ وهل ما قاله لا يعرفه إلا هو ؟

مظاهرة في روما:

ردّد كثيرون في المجالس العامة وبعض الصحف ما قاله ثروت في مناسبات عدة، وذكر بعضهم أنه - أي الوزير الجديد - شارك عندما كان في روما في مظاهرة تطالب بحقوق للمثليّين، ونُشرت بعض الصور من هذه المظاهرة التي قيل إنه شارك فيها. بعد خروجه من الوزراة ادعى المذكور أن الأمر شائعة، وأن صفوت الشريف - الذي كان وزيرًا للإعلام حتى ثورة يناير 2011، وكان ضابطا بالمخابرات العامة على عهد صلاح نصر - هو الذي أطلق الشائعة؛ انتقامًا منه بسبب التنافس بينهما.

شمل الرفض لوجود هذا الشخص في الوزارة عددًا من كبار الكتاب، وكان من بينهم الكاتب اليساري المعروف عبد الرحمن الشرقاوي، وثار لغط كبير حول هذا الاختيار في الصحف، وخاصة صحف المعارضة، وتحرك الوزير المرفوض بذكاء يحسد عليه، وأخذ يزور كبار الرافضين له - باستثناء ثروت الذي رفض استقباله فيما يبدو - زيارات خاصة، مصحوبة بوعود وعطايا، وأذكر أن الوزير وعد عبد الرحمن الشرقاوي بتمثيل مسرحيته الحسين ثائرا والحسين شهيدا، اللتين منعتا من التمثيل بسبب البذاءة التي تملأ الحوار، والسياق المسرحي الذي شوه شخصية الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مناصب ووظائف:

التقى الوزير بشخصيات عديدة، كافأها بمناصب ووظائف حتى تلاشت معظم الانتقادات الموجهة إليه، وهنا أعلن معاليه أنه أدخل المثقفين الحظيرة!

لوحظ أن أغلب من دخلوا الحظيرة ينتمون إلى الأحزاب اليسارية (شيوعيين، ناصريين)، ومعهم نفر من الليبراليين والطائفيين، والمتحولين عن انتماءات سابقة، والانتهازيين، والمرتزقة في كل العصور.

أغدق الوزير على جميع من أيدوه، وتمت تصفية الوزارة من كل صوت مغاير، وصارت القيادة الفعلية في الوزارة لليسار، عدو الإسلام والمسلمين، وأضحت قطاعات الوزارة بيد أشخاص موالين تماما للنظام البوليسي الفاشي.

كوادر موالية:

أنشئت مجلات وصحف يقودها يساريون، ولا يسمحون للنشر فيها لغير أتباعهم ومؤيديهم، ولو كان ما يكتبونه كلامًا فارغًا، وتَشكّل المجلس الأعلى للثقافة من كوادر موالية للسلطة، وبات التفرغ منحة لمن يسبّح بحمد الوزير وقياداته، وأعطى المتفرغون انطباعا بأنهم يشكلون حزبا قائما بذاته، يناصر الوزير؛ لأنهم يقبضون مرتبات بلا عمل ولا إنتاج حقيقي، ومُنحت الجوائز الأدبية الرفيعة لأشباه الأدباء والمثقفين وبعضهم لا يحسن الإملاء والنحو والتراكيب، واقتصر نشاط هيئة الكتاب وهيئة قصور الثقافة على نشر الكتب لمن يقدم قرابين الطاعة والولاء، وأذكر أن كتابًا لي ظل قرابة عشر سنوات في هيئة قصور الثقافة؛ لأن المسئول الشيوعي عن النشر يومئذ قال لبعض من حدثوه في أمر الكتاب: " على جثتي " ! أي لن ينشره، وقد بذلتُ جهدًا مضادًا كبيرًا، وصممت على نشر الكتاب، وقد نُشر بالفعل على جثة المذكور الذي طرد من منصبه لسبب لا أعرفه.

عندما طُرح مشروع مكتبة الأسرة ومهرجان القراءة للجميع، كان فرصة ذهبية للأتباع والأشياع أن يغترفوا كثيرًا من الأموال التي ملأت جيوبهم وأفواههم بلا حدود ولا قيود، مقابل احتفاليات فارغة، ونشْر كتب غثّة رديئة في معظمها، كثير منها مقالات صحفية سخيفة في مديح السلطان والقيادات الفاشية.

إهانة الإسلام:

الوزارة بكل فروعها أضحت مغنمًا للانتهازيين والمنافقين تحت القيادات اليسارية الموالية للنظام المعادية للإسلام، وتعددت مظاهر إهانة الإسلام والمسلمين من خلال النشر والنشاطات الأخرى للوزارة..

نشرت الوزارة كتابًا رديئًا لأحد الأشخاص الشيوعيين من سوريا، سمّاه رواية تحمل عنوان: " وليمة لأعشاب البحر "، امتلأت بالسباب والبذاءة في حق الذات الإلهية والأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - بالإضافة إلى ما فيها من قبح وسفالة، صاغها في إطار خارج الفن وجمالياته.

أثارت الرواية ضجة كبيرة، تجاوزت حدود مصر، واستفزت طلاب الأزهر الذين تحركوا في مظاهرات ضخمة كادت تشعل البلاد كلها، وأغلق النظام جريدة " الشعب "، التي قادت الحملة ضد الرواية اللعينة، وازداد

الصخب حين شكلت الوزارة لجنة من الحظيرة؛ لتقدم تقريرًا منحازًا ومتعاطفًا مع الكاتب الشيوعي، الذي ينتمي إلى الطائفة النصيرية في بلاد الشام!

شاركت مع غيري من الكتاب في تناول الرواية، وكشف ضعفها وتهافتها من الناحيتين الفنية والفكرية، وانتهت الأزمة دون أن يتغير شيء في الوزارة، وإن كان الوطن خسر منبرًا حيويًّا، يعبّر عن آلامه وآماله، وهو جريدة الشعب.

بات محصّنًا:

تغلغل الوزير إياه في أعماق النظام، وصار مقربًا من الأسرة الحاكمة، وبات محصّنًا ضد أي تأثير عليه، فراح يركز على المظاهر الاحتفالية التي يُعطيها وجهًا ثقافيًّا، وتُقدّم للقيادة السياسية صورة تلفزيونية عن نشاط الوزير، أو ما يعرف بلغة الإعلام " الشّو الإعلامي "، وهذا الشّو يعتمد على المهرجانات والموتمرات التي تصنع ضجيجًا، ولا تعطي طحنًا، وقد عالجتُ كثيرًا منها في مقالاتي الكثيرة، لتي هاجمت فيها الوزير هجومًا ضاريًا مذ تولى الوزارة حتى رحيله عنها وما بعد رحيله. وجمعت جانبًا منها في بعض كتبي التي صدرت في أواخر عهد الوزير بالوزارة، منها كتاب: " العمامة والثقافة "، و" اخلع إسلامك تعش آمنًا "، وكنت أنوي نشر بعض منها في كتب أخرى، ولكن جاءت الرياح بعكس ما أُحِبّ فتوقف النشر تمامًا.

أراد الوزير أن يحسّن صورته أمام الجمهور بعد أن ضمن رضا النظام التام عنه. فكر في إنشاء مجلة أسبوعية تنطق باسمه وتدافع عنه، وعن قراراته ومسيرته في الوزارة، فعهد إلى الصحفي اليساري الحكومي رجاء النقاش بإصدارها، وبدوره راح يعمل على قدم وساق، ويعد الماكيت (النموذج) الذي ستكون عليه المجلة، وبعث به إلى الوزير مع صهره الشيوعي الحكومي صلاح عيسى؛ ليأخذ الموافقة على البدء في النشر.

جريدة أسبوعية:

المفاجأة التي حدثت أن الصهر الشيوعي خرج من لدن الوزير ومعه موافقة على جريدة أسبوعية اسمها " القاهرة "، ورئيس تحريرها هو هذا الصهر الشيوعي نفسه. أما رجاء النقاش فقد تجاهله الوزير تمامًا. وعندما

أثير الأمر في بعض الصحف تعبيرًا عن الغضب بسبب الغدر برجاء، صالحه الوزير بجائزة الدولة التقديرية!

فوجئت مع بداية إصدار الجريدة برئيس التحرير يهاتفني في بيتي حيث أسكن في أعماق الريف، ولم يكن هناك سابق تعارف شخصي بيننا، وإن كنت أقرأ له في بعض الصحف والمجلات منذ الستينيات. قال لي: أنا فلان. رحبت به. أفهمني أنه يريد أن أشارك بالكتابة في الجريدة التي ستكون مفتوحة للآراء جميعًا، وأنه يقدم تجربة تسمح بحوار بين مختلف التصورات. وهناك مجموعة من الكتاب الإسلاميين ستشارك في الجريدة، منهم محمد عمارة وفهمي هويدي وآخرون. شكرته على دعوته، ووعدته بالمشاركة. ورأيت على صدر الجريدة جملة تتعانق مع اسمها لقاسم أمين تقول: " الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأي، ونشر كل فكر، وترويج أي مذهب! ".

في داخلي تحركت تساؤلات عديدة حول سرّ الدعوة للكتابة في جريدة الوزير. هل اقتنع اليساريون بالتعايش فعلاً مع الآراء الأخرى ؟ هل يتحملون وجهات النظر المغايرة ؟ هل تخلّوْا حقًّا عن نزعتهم الإقصائية ؟ هل سينفذون ما يعلنون ولا يتصرفون عكسه كما هي عادتهم وديدنهم ؟ رأيت – مهما كانت دوافع الرفض – أن من الخير خوض التجربة؛ لأن عدم المشاركة ستحسب على الإسلاميين جميعًا، ويقال عندئذ، دعوناهم فلم يستجيبوا.

مقال مناقض:

أول مقال مرّ دون تغيير، ثاني مقال اتصل بي رئيس التحرير واستأذنني في تغيير عبارة، ثالث مقال تم التغيير والحذف دون الرجوع إليّ. فكرت في التوقف، واستشرت بعض من أطمئن إليهم فكان رأيهم أن هذه نافذة لتوصيل فكرة مغايرة لما هو سائد في الجريدة ومن الأفضل الاستمرار.

فهمت فيما بعد أن عدد الجريدة قبل طبعه كان يعرض على الوزير، ويقلّب موضوعاته، ويتوقف عند موضوعات بعينها لرفعها أو تعديلها، ولاحظت أن ما أكتبه يوجد بجواره مقال مناقض له، لا حظت أن بعض المحسوبين على الفكر الإسلامي قد توقفوا عن الكتابة في الجريدة، ولم يبق غيري والدكتور عمارة الذي يكتب في موضوعات تاريخية أو أقرب إلى التاريخ البعيد، ولا تثير كثيرا من الحساسية مثل مقالاتي.

جاء يوم وجدت مقالا يهاجمني بدون ذكر اسمي، كتبته شيوعية حكومية رداحة، فكتبت أرد عليها دون ذكر اسمها، ولكن رئيس التحرير ماطل في نشره أسبوعًا وراء أسبوع، حتى تراكمت الأسابيع دون أن يرى النور، فنشرته في جريدة اسمها " الميدان "، وأشرت في نهايته أن جريدة القاهرة رفضت نشره !

مجلس التحرير:

بالطبع لم تنشر لي جريدة الوزير مقالا آخر بعد ذلك، وحين هاتفت رئيس التحرير مستفسرًا أخبرني أن مجلس التحرير (!) قرر عدم النشر؛ لأنك شهرت بالجريدة في المقال الذي ظهر بالميدان !

وضعت سماعة الهاتف، وأدركت بعد حين أنني كنت مجرد ألعوبة في يد صحفي شيوعي حكومي، ووزير ليس على مستوى المسئولية ! فلا مجلس تحرير هناك ولا يحزنون. المجلس المزعوم هو الوزير المعني بتلميع صورته دائمًا وتعليماته هي القول الفصل، وهو الذي يقرر دائمًا .. غيره لا يملك صلاحيات الرفض أو القبول.

لاحظت أنه تم استقدام بعض من يكتبون في الإسلام من منظور استشراقي أو معاد، أو غير مؤهلين علميًّا ومعرفيًّا، وبعضهم من هواة الشهرة على حساب أي شيء، ولكن الهدف هو إثارة الرأي العام، وتشكيكه في ثوابت الدين الحنيف.

علمتني التجربة أن التعامل مع الثعالب والذئاب ليس مفيدًا كما يتصور بعض الطيبين أو السذج !

علاقات ثقافية:

بمناسبة مرور قرنين على الحملة الفرنسية الدموية لاحتلال مصر بقيادة المجرم الصليبي نابليون بونابرت، أعلن الوزير عن مهرجانات احتفالية برعاية الوزارة تحت لافتة العلاقات الثقافية بين فرنسا ومصر. روّجت الحظيرة للاحتفالية بوصف الحملة الدموية الفرنسية بداية التنوير للمصريين والعرب، ولم تخبر الجمهور أن نابليون قتل 300 ألف مصري ومصرية (سُبع الشعب الذي كان تعداده يومئذ ثلاثة ملايين نسمة)، غير من قتلهم من أهل فلسطين. ولم تقل للعالم إنه نهب البلاد وأذل العباد،

ورحل ومعه مطبعته، وما سرقه أفراد الحملة الدموية من آثار ومخطوطات، فضلا عن أموال المصريين وممتلكاتهم النفيسة !

بالطبع كان هناك إنفاق سفيه على هذه الاحتفالية التي تنوعت مظاهرها، ومن بينها استقدام موسيقي يهودي شاذ ليغني عند سفح الهرم بالجيزة؛ نظير مبلغ ضخم تحدثت عنه الصحف في حينه.

النساء كالورود:

ولم يخافت الوزير المذكور بعدائه للإسلام، وخاصة في حملته على حجاب النساء الذي عدّه ردة إلى الوراء قائلا «النساء بشعرهن الجميل كالورود، التي لا يجب تغطيتها وحجبها عن الناس»؛ مما أثار الرأي العام ضده. وقد حاول التخفيف من صدمة تصريحاته المعادية للإسلام، فأطلق بعدها تصريحات أقل عدوانية، قال فيها إنه " ليس ضد حجاب المرأة بوجه عام "، ولكنه ضد حجاب الطفلة الصغيرة الذي " يدمر طفولتها البريئة " حسب مزاعمه !

وفي عهد الوزير المحظوظ الذي طالت فترته حتى قاربت ربع قرن من الزمان وهو راسخ في منصبه، جرت حادثة رهيبة عام 2005، حيث احترق مسرح " قصر ثقافة بني سويف "، وغيبت نيران الحريق اثنين وثلاثين شخصًا من المهتمين بالمسرح المصري والعربي، بينهم كتاب ونقاد ومخرجون وأساتذة فنون مسرحية، وقد صنع الإهمال والفوضى في عهد الوزير المذكور هذه المأساة، وبرأت نتائج التحقيقات والمحاكمة المسئولين عن المحرقة !

وفيما يشبه الحركة التمثيلية، تقمص الوزير صورة البطل الشجاع، وتقدم باستقالته بوصفه مسئولا عن الحادث مسئولية أدبية إلى رئيس الدولة، ولكن الأخير رفضها !

المسرح التجريبي:

المفارقة أن الوزير المذكور اخترع من بين مهارجه المسرحية، ما يسمى بمهرجان المسرح التجريبي، يدعو فيه فرقا مسرحية سنويًا من أرجاء الدنيا، تتكلف أموالا باهظة من جيب الشعب المصري، وتقدم أعمالا غير مفهومة، قاسمها المشترك العري والإباحية !!

لقد ضج كثير من الكتاب والنقاد من هذا المهرجان الرديء، ولكن الوزير المحصن لم يتأثر بما يقوله الناس. والغريب أن الشعب المصري لا يُقبل على

المسرح التقليدي إلا بأعداد قليلة، تحت ظروف خاصة، منها أن تكون العروض تجارية خفيفة، فكيف يقبل على المسرح التجريبي غير المفهوم ؟

درع المؤتمر:

في عام 1999 انعقد بمدينة دمنهور مؤتمر أدباء الأقاليم، الذي يسمى الآن مؤتمر أدباء مصر، وحضر الوزير افتتاح المؤتمر، وكنت من بين المكرمين بناء على ترشيح بعض الأصدقاء، الذين فاجأوني بهذا الترشيح، وكان عليّ أن أحضر لأتسلم درع المؤتمر والمحافظة كي لا أخذل من رشحوني أو أسيء إليهم، وسبقني إلى الصعود على المنصة ليتسلم دروع التكريم كل من الدكتور عبد الوهاب المسيري والدكتور أسامة الباز - رحمهما الله -

وعندما تقدمت لتناول الدرع كان لابد أن أصافح الوزير، ووجدته ينظر إلي نظرة غريبة، فقد ظللت أهاجمه أكثر من عشر سنوات قبل هذه اللحظة دون أن أراه أو يراني. بعد تسلم الدرع انصرفت لتوي، وعزمت على الرحيل عن المؤتمر كله بعد انتهاء الجلسة، وكان ما ربحته من وجودي فيه هوتعرفي على الدكتور أسامة، الذي أفهمني أنه يطالع ما أكتبه، وناولني بطاقته لأتصل به هاتفيًّا إذا أردت بعد السابعة مساء كل يوم .. وللأسف لم يتم التواصل بيننا، ولعلي لم أجد ما يستدعي الاتصال، أو لعلي رأيت أن شواغله تجعلني لا أزيد منها، مع أنه - كما أعرف - كان يتابع الحركة الثقافية، ويحضر الندوات الأدبية، ويزور المعارض الفنية أوالتشكيلية.

التطبيع الثقافي:

كان الوزير متهمًا بالتطبيع مع العدو الصهيوني، وكان إقراره لإدراج قبر يهودي اسمه يعقوب أبو حصيرة في مقابر قرية ديميتيوه بمركز دمنهور بحيرة ضمن الآثار المصرية سببًا كافيًا لدعم هذا الاتهام.

كان اليهود يحضرون كل عام في شهر يناير مع عدد من رجال السفارة الصهيونية بالقاهرة والقنصلية الصهيونية بالإسكندرية، فضلا عن عدد من حاخامات الكيان الصهيوني الغاصب وأوروبا، مع سياح يهود من الولايات المتحدة والمغرب وفرنسا يقدرون بالمئات. وتقوم وزارة الداخلية بإجراءات أمنية مشددة في القرية التي تتحول إلى ثكنة عسكرية؛ لحمايتهم وتأمين احتفالهم، حيث يحيون المناسبة بالرقص والمجون، واحتساء الخمور،

والصخب والضجيج، واستباحة تقاليد القرية وقيمها؛ مما أذكى حالة الغضب والسخط؛ رفضًا لهذا المولد وصاحبه واليهود الغزاة.

ظلت متداولة:

وقد رُفعت دعاوى قضائية أمام القضاء الإداري لإلغاء هذا المولد، وشطب القبر من سجلات الآثار، وظلت القضايا متداولة منذ خمسة عشر عامًا أو يزيد، حتى صدر حكم نهائي تاريخي قبل أيام من كتابة هذه السطور، في يوم الاثنين 29 ديسمبر 2014، بمعرفة المستشار " محمد عبد الوهاب خفاجى " نائب رئيس مجلس الدولة بالإسكندرية، بإلغاء الاحتفالات السنوية نهائيًّا لمولد الحاخام اليهودي يعقوب أبو حصيرة بمدينة دمنهور، كما قررت المحكمة إلغاء قرار وزير الثقافة الأسبق الخاص بأثرية القبر، مع إلزام وزير الآثار الحالي بشطبه من سجلات الآثار المصرية، ونشر هذا القرار في جريدة « الوقائع » المصرية الرسمية، وإبلاغ منظمة اليونسكو بالقرار، من خلال إيداع الترجمة المعتمدة من الحكم الوثيقة والسند في الإبلاغ، كما رفضت المحكمة طلبًا صهيونيًّا بنقل رفات الحاخام اليهودي إلى القدس الشرقية؛ لأن الإسلام يحترم الأديان السماوية وينبذ نبش قبور موتاهم.

إطلاق الزغاريد:

قوبل الحكم في ساحة المحكمة بالابتهاج، وقامت النساء بإطلاق الزغاريد فرحًا بالحكم، كما علت الهتافات المنددة بإلكيان الصهيوني الغاصب. وقام أهالي قرية ديميتيوه بتوزيع المشروبات على بعضهم. وعبروا عن رغبتهم في إخفاء معالم الضريح بأسرع ما يمكن.

كان واضحًا أن العدو يستخدم هذا القبر مثل مسمار جحا؛ ليكون نقطة ارتكاز للتطبيع مع الأهالي، وقد تواترت أنباء عن شراء اليهود لأراض وبيوت في القرية، ودفع أثمان عالية جدًّا تغري أصحابها بالبيع، وإخلائها كي يتم تهويدها وإقامة فنادق سياحية ومنتجعات ترفيهية تتناسب مع مقام ومكانة أبو حصيرة !! .. والانطلاق منها إلى أماكن أخرى، علما أن اليهود الباقين في مصر لا يتجاوزون خمسين فردًا، بعد هروب أغلب اليهود إلى الكيان الصهيوني، والانضمام إليه، ومعاداة شعبهم ومحاربته من خلال القتال في الجيش الصهيوني، الذي تكررت اعتداءاته على مصر والبلاد العربية.

شخصية وهمية:

أبو حصيرة شخصية مجهولة، تضاربت حولها الأخبار، ويقال إن اسمه يعقوب بن مسعود، واشتهر باسم أبو حصيرة؛ لأنه كان يعمل إسكافيًّا، ويجلس على حصيرة، وقيل إنه حاخام يهودي من أصل مغربي، عاش في القرن التاسع عشر، ينتمي إلى عائلة يهودية ثرية، لقبها عائلة الباز، تفرق أفرادها في بلاد شتى ما بين مصر ودول أوربية، بينما استمر بعضهم فى المغرب على مر العصور، ويجزم عدد من اليهود أن أبا حصيرة من العباد الذين زهدوا الحياة وانقطعوا للعبادة، وهناك رواية أخرى تجزم أنه شخصية وهمية لا وجود لها، اخترعها اليهود لحاجة في نفوسهم، وقيل إنه قضى نحبه عام 1880.

بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل عام 1979، طالب اليهود بتنظيم رحلات رسمية لهم؛ للاحتفال بالمولد الذي يستمر أسبوعًا، ويتم السماح لليهود المحتفلين بالمولد بزيارة الضريح بشكل سنوي، وبتنسيق مع سلطات الأمن المصرية.

ارتياح شديد:

لقد تنفس أهالي محافظة البحيرة الصعداء بعد أن ظلوا على مدار سنوات حكم مبارك يندّدون بالمولد النشاز.

العجيب أن وزارة الآثار المصرية أعلنت أن المحكمة التي أصدرت الحكم النهائي غير مختصة بنظر الموضوع، وأنها ستطعن على الحكم، وكأنها تنطق باسم العدو الذي أزعجه الحكم، وأعلن أنه سيخاطب اليونسكو باعتبار القبر أثرًا عالميًّا، وأنه سيجري محادثات مع الحكومة المصرية لمراجعة الموضوع!

ولوحظ أن الشعب كله قابل الحكم النهائي بارتياح شديد، ولم تكن قرية ديمتيوه الوحيدة السعيدة به، بل عبرت مقالات الصحف عن فرحتها بصدوره، وإغلاق باب من أبواب الشر، فتحه اليهود في بلادنا التعيسة!

معركة اليونسكو:

ولعل آخر معارك وزير الثقافة المذكور وأكثرها فشلا وغباء، كانت معركة اليونسكو، فقد ترشح في 2009 لمنصب مدير عام منظمة الأمم

المتحدة للتربية والعلوم والثقافة " اليونسكو "، خلفا للياباني كويتشيرو ماتسورا، الذي تولى منصبه في 1999، ضد وزيرة الخارجية البلغارية السابقة إيرينا بوكوفا، وسبعة مرشحين آخرين، وانتهت خمس جولات بخسارته أمام المرشحة البلغارية في 22 سبتمبر 2009 بعد أن حصلت على 31 صوتًا مقابل 27 صوتًا لمعاليه !

وكان اليهود قد قاموا بحملات ضارية ضده، واتهموه بالدعوة إلى حرق الكتب اليهودية في المكتبات المصرية، وساندتهم الولايات المتحدة وألمانيا الغربية حتى تحقق فوز البلغارية بوكوفا، ولم تجد نفعًا محاولات الغزل التي أطلقها لإثناء اليهود عن معارضته عمليًّا حتى عاد إلى البلاد بخفي حنين، وخسرت مصر بضعة ملايين على الوفد الذي كان بصحبة الوزير الهمام في انتخابات اليونسكو .. كان المصريون في أشد الحاجة إليها !

شارع المعزّ:

ومع ذلك فإن هذا الوزير اهتم بترميم بعض الآثار المصرية، وحول بعض البيوت الأثرية القديمة إلى أماكن للاحتفالات والندوات، وأنفق أموالا طائلة ليجعل من شارع المعز بمصر القديمة شارعًا أثريًّا، لا تدخله السيارات ولا تقربه العشوائيات، بالإضافة إلى الاهتمام بالمتاحف، وإن كانت بعض اللوحات التاريخية في عهده السعيد (!) قد سرقت، مثل لوحة زهرة الخشخاش مع كثير من آثار المحروسة !

ظل الوزير في منصبه قرابة ربع قرن من الزمان، حتى انتفض الشعب المصري في يناير 2011، فأطيح به مع رئيسه وحكومته، وتغيرت الأحوال، وسبحان من لا يتغير.

تجليات الشقاق:

لم يكن المشهد في الجامعة أقل سوءًا من المشهد الثقافي، والصراعات بين أعضاء هيئة التدريس في بعض الأقسام مشتعلة، وكان هناك قرار بنقل الأعضاء الأكاديميين (اللغة العربية – اللغة الإنجليزية – اللغة الفرنسية – علم النفس – التاريخ – الجغرافيا ...) إلى كلية الآداب، مع الخدمة في كلية التربية التي اقتصرت على الأعضاء التربويين.

لم يكن هناك توافق في القسم الذي أنتمي إليه .. يتجلى الشقاق دائمًا عند توزيع ساعات التدريس قبل بداية العام، حيث يسعى بعضهم إلى الفوز بأكبر عدد منها، والاستئثار بالفرق ذات الأعداد الكبيرة، والمواد التي تروقه، ويظل الجدل والصراع ساعات طويلة، وقد ترفع الجلسة دون اتفاق ! ويفوز فيه صاحب الصوت الأعلى، والأقدر على مواصلة الزعيق والجدل. أذكر في إحدى السنوات أنهم توافقوا على طريقة توزيع، ثم وزعوا الساعات، ولأنني - عادة - لا أتكلم وسط الصخب العقيم، وألزم الصمت، فقد تناسوا أن يكون لي جدول !

بعد أن قرأ رئيس القسم الصورة النهائية للتوزيع، وبدأ الأعضاء يلملمون أوراقهم وحقائبهم للانصراف؛ رفعت يدي طلبًا للكلمة .. وقلت:

- أين جدولي ؟

فالتفت الرجل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يمينا وشمالا، وأعاد النظر في الأوراق، ثم قال بإحباط شديد:

- لماذا لم تتكلم ؟

قلت له:

- حتى تنتهوا من توزيع الغنائم !

ولم يجد مفرًا من ترحيل المسألة إلى الاجتماع التالي !

مشكلة مزعجة:

نشرت إحدى الصحف إعلانًا، عن وظائف لهيئة التدريس في جامعة عربية، فأخذت أوراقي وركبت سيارتي متوجها إلى القاهرة؛ لأقابل اللجنة المختصة بالتعاقد. في بداية الطريق اكتشفت أن السيارة تحتاج إلى وقود (بنزين)، وكنت قد تركت طنطا ورائي، وتذكرت أن محطات الوقود بعيدة، وقد تتوقف السيارة قبل الوصول إليها. عدت مرة أخرى في اتجاه طنطا لأتزود من إحدى محطاتها .. دخلت المحطة، وبعد امتلاء الخزان ومحاسبة العامل، أخذت أتحرك للخروج واستئناف السير إلى العاصمة مرة أخرى، لم أدر وأنا ما زلت في المحطة إلا والسيارة تعود بي إلى الخلف وتصطدم بعمود إنارة. وكانت مشكلة مزعجة؛ حيث تأثرت مؤخرة السيارة، وانطبق الصاج على الكاوتش، وتكسّر فانوس من فوانيس الإنارة الخلفية. حمدت الله على

لطفه بي؛ فقد كان من الممكن أن يسقط العمود فوق السيارة، وتحدث مضاعفات لا قبل لي بها. جاء العمال، واستخدموا بعض الأدوات التي رفعت الصاج عن الكاوتش حتى تدور العجلة، وأستطيع مواصلة السير والذهاب إلى ورشة تصليح.

نوع من الانقباض:

رأيت أن المسألة غير مبشرة، وخاصة أن بعض المشكلات التي رأيتها في الصباح بالكلية ولا تتعلق بي، أثارت في نفسي نوعًا من الانقباض؛ فقررت العودة مرة أخرى إلى الكلية لأستريح، وأرى هل سأصلح السيارة في طنطا، أو أواصل السير إلى بلدتي لأقوم بالإصلاح هناك. واستقر رأيي على السفر إلى البلدة، وإلغاء فكرة المقابلة مع لجنة التعاقد بالجامعة العربية التي كنت في طريقي إليها، بل طرحت فكرة السفر كلها جانبًا.

انشغلت بحضور بعض المؤتمرات الجامعية، وأذكر مؤتمر كلية التربية بدمياط الذي شاركت فيه مرتين. كان المؤتمر يعقد في أواخر الشتاء أو أوائل الربيع، ويكرم علما من أعلام المحافظة، ويحضره لفيف من الأساتذة الأدباء، ويتم تسكين المشاركين في أحد فنادق رأس البر، حيث تكون المدينة خالية من المصطافين وضجيجهم، وتبدو الشوارع هادئة، والبحر في لون أبهى وأجمل.

ما يشبه العشوائيات:

رأس البر لها ذكريات جميلة أيام كانت تحتفظ بخصوصيتها قبل زحف المهجرين إليها من مدن القناة نتيجة هزيمة 1967 المصمية، وقبل أن تحكمها المباني الخرسانية الكالحة، التي أذهبت طبيعة العشش وجمالها. كانت رأس البر مقصداً لكبار العلماء والأدباء والمثقفين والعائلات المحافظة، إلى أن تحولت في الصيف إلى ما يشبه العشوائيات، وصارت شواطئها تستقطب الشباب المتهور، والنوعيات التي لا تراعي آدابا أو أخلاقا، فانصرف عنها من ينشدون الهدوء والجمال إلى أماكن أخرى.

أذكر أن أحد المؤتمرات كرم العالمٍ الأديب عبد الحليم منتصر، وهو عضو مجمع اللغة العربية، وكان معروفًا بكتاباته العلمية شهريًّا في مجلة

العربي الكويتية، ومجلات أخرى مثل الرسالة والثقافة، وكان رجلا هادئًا وديعًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ألف ليلة:

كما التقيت في مؤتمر أعلام دمياط (وهذا اسم المؤتمر السنوي) بالأديب طاهر أبو فاشا (1908 - 1989) عن قرب، وكان مرتبطًا في أذهاننا بمسلسل إذاعي شهير اسمه " ألف ليلة وليلة "، كانت تبثه الإذاعة المصرية في شهر رمضان من كل عام، وكانت براعته في كتابة المسلسل أنه يسقط الأحداث الجارية، وخاصة الصراع بيننا وبين العدو الصهيوني على قصص ألف ليلة التي يستلهمها من الحكايات المعروفة بهذا الاسم، ويستخدم أسلوب السجع في سلاسة ويسر على ألسنة الممثلين، الذين كانوا أفضل من يشخص الأحداث ويصورها، كأن المستمع يراها مجسمة ماثلة أمامه، وكانت فترة الحلقة حوالي ربع ساعة، تشد المستمع شدا إلى كل ثانية؛ بسبب التشويق والأداء الممتع.

وقد ساعد طاهر أبو فاشا على التميز في الشعر والزجل والكتابة للإذاعة - بالإضافة إلى موهبته - تعليمه الأزهري (من زملاء محمد عبد المنعم خفاجى، ومحمد متولي الشعراوي في معهد الزقازيق الديني)، ثم التحاقه بدار العلوم وعمله بالتدريس، وصحبته لأعلام الشعراء والكتاب في ندوات القاهرة ومجالسها، وعمله رئيسًا لقسم التأليف والنشر بإدارة الشئون العامة للقوات المسلحة.

ومع أنه شاعر كبير وزجال مهم، إلا أن شهرته تركزت في مسلسل ألف ليلة الذي أذيع منه أكثر من 800 حلقة على مدى 26 سنة، إلى جانب مسلسلات وأوبريتات أخرى، بثتها الإذاعة المصرية، واشتهرت بين المصريين، منها: " أفراح النيل "، وأوبريت " رابعة العدوية " الذي تحول إلى فيلم، وغنت فيه أم كلثوم، و" الأسرة السعيدة "، و" ركن الريف "، و" ألف يوم ويوم ".

ومن دواوينه: صورة الشباب (1932)، القيثارة السارية (1934)، الأشواك (1937) وكتب مقدمته خليل مطران، راهب الليل (1983)، الليالي (1987)، دموع لا تجف (1987). وله العديد من القصائد تضمها

الصحف والمجلات، وقيل إن باحثا في الأزهر جمعها ضمن رسالته للماجستير.

ولم يتوقف نشاط طاهر أبو فاشا عند الشعر والزجل والكتابة للإذاعة، بل ألف عددًا من الكتب في موضوعات تجمع بين الطرافة والتفرد والرحلات والتحقيق، منها:

هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف، الذين أدركتهم حرفة الأدب، العشق الإلهي، وراء تمثال الحرية، تحقيق مقامات بيرم التونسي.

الضحك الخالص:

كان حضوره في مؤتمر دمياط فرصة طيبة للتعرف على جوانب عديدة في شخصيته، وخاصة الجانب الفكاهي، وقد كانت الرحلة في الحافلة من رأس البر إلى دمياط والعودة، فرصة ذهبية للضحك الخالص، وسرد الحكايات الأدبية التي لم أسجلها للأسف الشديد، ومحيت من ذاكرتي التي تهرأت بفعل السن، وتراجع الصحة، ولكن كانت هناك فرصة للاستفسار عن بعض الأمور. منها أني سألته عن إحدى القصائد التي كتبها، واكتشفتْ بعد رحيل أم كلثوم، وكان مقررا أن تكون بين أغانيها في فيلم رابعة العدوية المشهور، وهي قصيدة " غريب على باب الرجاء طريح "، فعرفت منه أنه بعد إعدادها لم تكن ملائمة للمشهد التمثيلي المقرر لها، فتم استبعادها، ونسيها القوم إلى أن توفيت أم كلثوم، وراح البعض يبحث في تراثها، فظهرت بعد الوفاة على شرائط ليسمعها الناس قصيدة مستقلة بذاتها.

كان طاهر أبو فاشا صورة لأدباء عصر النهضة الحديث، الذين يملكون اللغة والرؤية والقدرة على التعبير المباشر وغير المباشر، ولكنه فيما أتصور لم ينل حقه من التعريف والتكريم مثل آخرين، همّشتهم حياتنا الأدبية الفاسدة، التي ترفع أشباه الأدباء إلى حيث لا يستحقون. ويكفيه أن الإذاعة اضطرت في السنوات الأخيرة إلى إعادة إذاعة ألف ليلة وليلة لجذب المستمعين الشباب من أمام التلفزيون ، ودليلا على تعلق الأجيال الجديدة بالأعمال المحترمة التي يتكامل فيها الفن مع الفكر والتصور – رحم الله طاهر أبو فاشا.

أسباب لا أعلمها:

لم أستطع بعد دورة هذا المؤتمر أن أذهب إليه مرة أخرى، فقد شغلتني أمور خاصة وعامة، كان منها أن جهاز الأمن راح يستدعيني لأسباب لا أعلمها، وأظن أن سببها الرئيس هو ما أكتبه في الصحف والمجلات، ولعل صدور مجلة لواء الإسلام بمعرفة الإخوان المسلمين، ومشاركتي في تحرير أحد أبوابها وهو الصفحات الأدبية، كان من وراء ذلك.

ومع أني لم أكتب في السياسة في هذه الصفحات الأدبية ولا غيرها، إلا أن الملاحقة منهج لا يتغير. والنظام - فيما أعلم - لم تكن تعنيه جماعات العنف بقدر ما تعنيه جماعة الإخوان المسلمين ومنهجها السلمي. فجماعات العنف يواجهها بالسلاح ويصفيها تحت مسمى مواجهة الإرهاب. أما الجماعات السلمية - وفي مقدمتها الإخوان - فتمثل له معضلة صعبة؛ لأنها أولا تضم عناصر مثقفة ومتعلمة في مجملها، وتعليم أغلبها تعليم يصل درجة التخصص (ماجستير ودكتوراه، وكثير منها أساتذة في مجالاتهم)، ثم إنهم يملكون الفكر والرؤية والتربية المتفتحة، وليسوا منغلقين مثل بعض الجماعات الأخرى، وهم بعد ذلك يمثلون قوة عددية هائلة تفوق الأحزاب القائمة في التنظيم والولاء والإخلاص، بما فيها الحزب الحاكم نفسه أو حزب الحكومة.

عذبته السلطة:

أخبرني الدكتور نجيب الكيلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في أثناء زيارة له قبيل استدعائي من ضابط الأمن، أن ضابطًا آخر برتبة عميد استدعاه ليحقق معه في انتمائه إلى الجماعة. كان الدكتور نجيب - بحكم غربته الطويلة خارج مصر - قد فارق الجماعة، فلم يعد هناك اتصال عملي أو تنظيمي بينه وبينها، خاصة وأن السلطة عذبته وحطمته في سجون عبد الناصر، وخرج من سجونها يحمل آثار التعذيب، وعصا يتوكأ عليها منذ شبابه حتى رحيله!

انفعل الدكتور نجيب على الضابط، الذي تراجع، وبدأ يتحدث معه حديثًا وديًا، ويعرض عليه بعض أشعاره وكتاباته، وطلب منه أن يكون صديقًا!

طبيعة القوم:

حين ذهبت إلى مقر الجهاز انتظرت كالعادة بعض الوقت، مع أن هناك موعدًا مسبقًا حدده ضابط الحرس الجامعي الذي أبلغني بالاستدعاء، ولكنها طبيعة القوم.

دخلت على ضابط شاب برتبة رائد، حييته وجلست. وجدني متجهما، فحاول مداعبتي قائلا:

- ألا تريد أن تزورنا ؟

قلت له:

- أزورك في بيتك حين تكون صديقا !

قال:

- ألست صديقًا ؟

قلت له:

- أنت تؤدي واجبك الوظيفي.

قال:

- أطلب لك الليمون أولا.

ثم تطرق الحديث إلى الإخوان، ورأيي فيهم. قلت له:

- اصنعوا لهم حزبًا.

قال:

- إنهم خطرون ويتآمرون على الدولة.

قلت له في صيغة قاطعة وواضحة:

- ولماذا لا يكون لهم حزب ليكون العمل على المكشوف، وتكون هناك رقابة قانونية، مثلهم في ذلك مثل بقية الأحزاب والكيانات ؟

عند الانصراف قال:

- اعتبرني أخا. وهذه بطاقتي لتتصل بي في أي وقت حين تعترضك مشكلة من أي نوع.

شكرته وانصرفت، ولم أتصل به أبدًا !

8 - رحيل وسفر

أداء العمرة:

أنساني مرض أمي ما يحدث في المجال الأدبي والجامعي .. السنّ المتقدمة، والوحدة الموحشة، ومتاعب الفشل الكلوي الذي لم تكن وسائل معالجته متاحة في القرية أو المدينة أو المحافظة. كنت آتي لها بطبيب من قرية مجاورة ليحقنها بعقار معين؛ لتتخلص من تخزين الماء في أجزاء عديدة من جسدها. لم تكن عملية الغسيل الكلوي متاحة في المحافظة آنئذ، كانت تجرى في الإسكندرية تحت ظروف معينة وإمكانات معينة. في قريتنا الآن وحدة كاملة للغسيل الكلوي، وصارت متاحة لأهل القرية، والقرى المجاورة، وإن كان الضغط عليها من المرضى شديدًا؛ بسبب كثرتهم، لدرجة أن العمل يبدأ قبيل الفجر، لاستيعاب الأعداد التي تنتظر من أجل الغسيل.

قبيل ظهور المرض اصطحبتها لأداء العمرة .. ذهبنا في رحلة نظمتها الجامعة في رمضان. وصحبْنا عددًا من الأساتذة والموظفين، وكان معنا زميلنا وصديقنا الدكتور محمد أبو المكارم – أكرمه الله – الذي أصرّ على أن يدفع بالكرسي المتحرك، الذي كانت تجلس عليه في الطواف حول الكعبة، والسعي بين الصفا والمروة .. حاولت أن أقوم بالأمر، ولكنه أصر وقال لي:

– لماذا تريد أن تحرمني من هذا الثواب ؟

وظل الرجل الكريم يواليها بالرعاية في مواقف عديدة، ونحن نركب الحافلات أو نصعد الطائرة وننزل منها، في مكة والمدينة وما بينهما، حتى عدنا بسلامة الله إلى مقر الجامعة في طنطا الذي بدأنا الانطلاق منه.

لا جدوى:

كأن مشيئة الله قضت أن يتاح لأمي فرصة أداء العمرة قبل أن يداهمها المرض، الذي كان وجوده بالنسبة لها علامة على النهاية، وإن لم أدرك ذلك .. مر شهر وراء آخر، والأمور تتأزم بالنسبة لها، والطبيب لا ينصح بشيء أكثر مما يصفه في كل مرة .. سألته ذات مرة إن كان الأمر يقتضي أن

نعرضها على طبيب في الإسكندرية أو القاهرة، ولكنه أكد أن لا جدوى، وأن المهم أن نواظب على العلاج الذي يوصي به .. كأنه كان يعلم أن المسألة مسألة وقت، ولا فائدة من وراء تعذيب المريضة بالانتقال والسفر من القرية إلى أماكن أخرى.

فوجئت بهاتف يأتيني في الكلية قبيل ظهر يوم من أيام الخريف 1988، تركت المحاضرة وأبلغوني أن السر الإلهي خرج، وأنهم ينتظرونني من أجل الجنازة والدفن. قدت سيارتي وأنا غير واع تمامًا بالطريق .. سقط الجدار المتبقي، ولم يعد هناك بيت للحب المجاني الذي لا ينتظر مقابلا ولا ثمنًا. رحل أبي قبلها بسنتين تقريبًا فانقض الجدار الأول ولم يعد في القرية – على كثرة ما فيها – من يمنح الحب الخالص الذي كنت أتلقاه من الوالدين الشيخين الجليلين الراحلين في هدوء ورضا وصبر جميل.

الغربة غربتان:

لاحظ بعض أهل القرية أنني كنت – على غير عادتي – وأنا أدخلها بسيارتي مسرعا، ولكنهم قدّروا الظرف الذي كنت أمر به. بعد عودتنا من التشييع، عشت لأول مرة في فراغ غير مسبوق، وأدركت كيف يكون المرء يتيما وهو فوق الأربعين !

صارت الغربة غربتين غربة الوطن، وفقدان من أسماهما أحمد شوقي " هذان في الدنيا هما الرحماء ".

أخذت عوامل الرحيل عن الوطن تتبلور، والدوافع تشتد، فلا المشهد الجامعي يغري بالبقاء، ولا المشهد الثقافي يحض عليه، وسطوة القمع تزداد يوما بعد يوم، وإن كان الناس يتكلمون دون جدوى أو أمل، وصحف المعارضة تمتلئ – ومعذرة في الوصف – بالنباح، ولكن السلطة تصنع أذنا من طين وأخرى من عجين، عملا بمبدأ: " طالما يتكلمون فدعهم، ما لم يمارسوا عملا منظمًا "، وقالها كاتب حكومي صراحة: " الكلاب تنبح والقافلة تسير ! ".

الحديد والنار:

ولم تكن الأمور في العالم العربي بأفضل من أمر أم الدنيا ؛ فالحكومات العربية لم تتفق إلا على شيء واحد، وهو قمع شعوبها بالحديد والنار، ولا ينجح من المؤتمرات العربية في ظل الجامعة العربية إلا مؤتمرات وزراء

الداخلية ووزراء الإعلام. وزراء الداخلية يتفقون على الآليات والوسائل التي يتحكمون بها في حركة الشعوب، وملاحقة أنصار الحرية والكرامة الإنسانية، ووزراء الإعلام يتفقون على إسناد وزراء الداخلية بترديد ما تقوله أجهزة الأمن، ومعظم ما تقوله في الغالب كذب صراح، والتشهير بالمعارضين، في ظل شعارات زائفة عن أمن العرب وأمن المواطن، وهو أمن لا يتحقق أبدًا.

انقلاب مباغت:

فوجئنا في أواخر عام 1987 بمرءوس ينقلب على رئيسه وأستاذه، ويودعه المستشفى، ويتولى الحكم بدلا منه، ويحكم بلاده بالحديد والنار، ويحول البلاد والعباد إلى إقطاعية يتصرف فيها وأتباعه كما يحلو لهم أو بالأحرى كما يرسم لهم الصليبيون الطغاة واليهود الغزاة. واستطاع زين العابدين بن علي (1936 - ...)، أن يكون ثاني رؤساء الجمهورية التونسية، بعد الحبيب بورقيبة (١٩٠٣ – ٢٠٠٠م) زعيم الاستقلال التونسي وأول رئيس للبلاد. عيّن زين العابدين بن علي رئيسًا للجمهورية التونسية منذ 7 نوفمبر 1987 إلى 14 يناير 2011، وهو الرئيس الثاني لتونس منذ استقلالها عن فرنسا عام 1956 بعد الحبيب بورقيبة، وكان الأخير قد عيّنه رئيسًا للوزراء في أكتوبر 1987، وفي انقلاب مباغت تولى بن علي الرئاسة - بعدها بشهر - في نوفمبر 1987؛ حيث أعلن أن الرئيس بورقيبة عاجز صحيًّا عن تولي شئون الحكم وتصريفه. وقد أعيد انتخاب بن علي بأغلبية ساحقة مزوّرة في كل الانتخابات الرئاسية التي جرت بغد ذلك، وآخرها كان في 25 أكتوبر 2009.

بدون مؤهل علمي:

قيل إن بن علي أكمل الدراسة الثانوية، وقيل إنه لم يحصل على أي مؤهل علمي، وإنه ترك مقعد الدراسة في الصف الخامس، وانضم إلى صفوف المقاومة الوطنية ضد الحكم الفرنسي على تونس؛ مما أدى إلى طرده من المدرسة وأدخل السجن، وكان حلقة اتصال الحزب الحر الدستوري الجديد المحلي. حصل على دراسات عسكرية من الولايات المتحدة في الاستخبارات

والأمن والمدفعية؛ مما أهله ليتولى شئون الأمن العسكري في البلاد عشر سنوات، وبعدها عمل في السلك الدبلوماسي بالخارج إلى أن عين وزيرًا للداخلية في 28 أبريل 1986، ثم رئيسا للوزراء في حكومة الرئيس الحبيب بورقيبة في أكتوبر 1987، وبعد شهر انقلب عليه وتولى الرئاسة قرابة ربع قرن.

حوّل بن علي تونس إلى تابع بائس لأوربا، وجعلها دولة علمانية تحارب الإسلام وتضطهد المسلمين، ومنع الحجاب، ووصفه بالزي الطائفي، وطارد التيارات الإسلامية، وأودع كثيرًا من زعمائها في المعتقلات؛ مما أدى إلى هروب كثير من كوادرها إلى المنافي في دول الغرب، واحتفى بالطرق الصوفية، وسمح للكنائس بالانتشار في تونس.

الدستور لعبة:

أجرى بن علي تعديلا دستوريًّا يسمح له بتقلد المنصب الرئاسي بدون حد أقصى، ويمنحه الحق في الترشح لانتخابات الرئاسة كلما أراد، وكأنه يسير على خطا النظام الديكتاتوري المصري، الذي جعل الدستور لعبة في يديه في ظل مجموعة من الأحزاب الكرتونية الموالية، مع حظر حركة النهضة الإسلامية، وتكميم الأفواه، وإغلاق مكاتب القنوات الفضائية التي تنقل الحقائق، وتصفية بعض المعارضين خارج القانون، ومراكمة أعداد سجناء الرأي في السجون.

وفي عهده تحكم في الاقتصاد التونسي ثلاث عائلات " الطرابلسي " و" بن عياد "، وبشكل ضئيل " بن بدر "، وجميعها متصاهرة، ولديها ميليشيات خاصة تتجسس على المواطنين، من خلال المقاهي والجامعات والمؤسسات وغيرها، كما أن أصهاره امتلكوا شركات الاتصالات والإنترنت والسياحة، ومساحات زراعية شاسعة؛ وذلك لحكم البلاد اقتصاديا بقبضة من حديد.

انتفاضة شعبية:

ولكنه في أواخر شهر ديسمبر 2010 فوجئ بانتفاضة شعبية عمّت البلاد، وخرج آلاف التونسيين فيما عرف بثورة الياسمين إثر إحراق شاب يدعى محمد بوعزيزي نفسه؛ احتجاجًا على ظلم شخصي لحق به، وهو ما جعل الديكتاتور يهرب إلى المملكة العربية السعودية مع أسرته، ويبدأ الشعب

التونسي مرحلة جديدة؛ بحثًا عن الحرية والديمقراطية والكرامة، ويعود مئات التوانسة من المنفى، وتجرى انتخابات ويصاغ دستور جديد، ويتحرك الشعب نحو بناء نظام جديد يخلو من الفساد واللصوص الكبار والظلم.

لم يكن انقلاب بن علي ضد بورقيبة هو الحدث الأبرز في تلك الفترة، ولكن كانت هناك انتفاضة للشعب الفلسطيني، الذي أذله الغزاة اليهود، وأذاقوه كأس العذاب طوال سنوات عديدة، وسميت هذه الانتفاضة انتفاضة الحجارة، وكان أبطالها من الأطفال والشباب الذين واجهوا سلاح العدو ودباباته بالحجارة. كانت الانتفاضة حالة من الاحتجاج الشعبي العفوي على الوضع العام المزري بالمخيمات، وعلى انتشار البطالة، وإهانة الشعور القومي والقمع اليومي الذي تمارسه سلطات الاحتلال اليهودي ضد الفلسطينيين.

انتفاضة الحجارة:

بدأت الانتفاضة يوم 8 ديسمبر 1987، في جباليا بقطاع غزة. ثمّ انتقلت إلى كل مدن وقرى ومخيّمات فلسطين. كانت الشرارة الأولى للانتفاضة بعد قيام سائق شاحنة يهودي بدهس مجموعة من العمّال الفلسطينيّين على حاجز « إريز »، الذي يفصل قطاع غزة عن بقية أراضي فلسطين منذ سنة 1948. وكان يقوم على تنظيم الانتفاضة بعد انتشارها في أرض فلسطين ما سمي بالقيادة الوطنية الموحدة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية فيما بعد. وقد هدأت الانتفاضة في العام 1991، وتوقفت نهائيًّا مع توقيع اتفاقية أوسلو بين العدو وقيادة منظمة التحرير الفلسطينية عام 1993.

بلغ ضحايا الانتفاضة التي سميت بالانتفاضة الأولى على يد جيش الاحتلال النازي اليهودي ستمائة وألف شهيد من أبناء فلسطين، واعتقال ما يقارب من ستين ألف أسير فلسطيني من القدس والضفة والقطاع وعرب الداخل؛ مما اضطر الغزاة اليهود إلى افتتاح سجون جديدة؛لاستيعاب هذا العدد الهائل من الأسرى، مثل سجن كتسيعوت في صحراء النقب، الذي افتتح في عام 1988.

حركة حماس:

كان هؤلاء الضحايا – على كثرتهم – بداية لانتفاضات أخرى، وظهور حركة المقاومة الإسلامية " حماس "، التي أصدرت بيانها الأول عن الانتفاضة، وعبرت فيه عن رؤيتها للمستقبل: " جاءت انتفاضة شعبنا المرابط في الأرض المحتلة، رفضًا لكل الاحتلال وضغوطاته، ولتوقظ ضمائر اللاهثين وراء السّلام الهزيل، وراء المؤتمرات الدولية الفارغة ".

جاءت الانتفاضة في ظل قيادة فلسطينية تهرأت وفقدت الطريق لتحرير فلسطين، وانشغلت بصراعات ومطامع شخصية، في وقت يقوم فيه العدو بضم القدس الشرقية للقدس الغربية، وإعلانها عاصمة موحدة للكيان الصهيوني الغاصب، يصاحب ذلك عملية تهويد مستمرة على قدم وساق للضفة الغربية والقطاع، ببناء المستوطنات، أو المغتصبات كما تسميها المقاومة الفلسطينية، والاستيلاء على مصادر المياه الموجودة داخل الأراضي المحتلة لفائدة المستوطنين.

في الوقت ذاته كان معظم الحكام العرب مشغولين بتثبيت كراسيهم، عن طريق قمع شعوبهم، والارتماء في أحضان العالم الصليبي الاستعماري، ولا يأبهون بما يجري في فلسطين، وفي الوقت نفسه كانت مؤتمرات القمة العربية تصدر بيانات كثيرة عن القضية الفلسطينية، وحقوق الفلسطينيين، ورفض الاستيطان لا تساوي ثمن الحبر أو الورق الذي كتبت عليه.

تحذير سابق:

أثبتت الانتفاضة فشل العدو الصهيوني أمام أطفال الحجارة الذين واجهوا المدرعات والرصاص الحي والغاز المسيل للدموع، مع أن هناك من حذر من الانفجار الشعبي الفلسطيني. قال وزير الخارجية اليهودي السابق أبا إيبان في نوفمبر من عام 1986، أي قبل نحو سنة من الانتفاضة: " إن الفلسطينيين يعيشون محرومين من حق التصويت أو من حق اختيار من يمثلهم .. ليس لديهم أي سلطة على الحكومة التي تتحكم في أوضاعهم المعيشية .. إنهم يتعرضون لضغوط وعقوبات ما كان لهم أن يتعرضوا لها

لـو كـانوا يهـودًا [. ..] إن هـذه الحالـة لـن تـستمر دون أن يـؤدي ذلـك إلى انفجار".

وقد تحقق ما حذر منه أبا إيبان، وصار حديث العالم، وأزرت الانتفاضة بموقف القيادة الفلسطينية التي هرمت وشاخت واكتفت بالكلام الإنشائي، والحكام العرب الذين شغلتهم كراسيهم، والمثقفين الذين حصروا القضية الفلسطينية في مشكلة التطبيع !

ومع أن السفاح اليهودي إسحق رابين رئيس الوزراء أعلن في الكنيست أنه سيكسر أذرع الفلسطينيين وأرجلهم، فإن الفلسطينيين واصلوا انتفاضتهم، واستطاعوا أن يرغموا العالم على الالتفات إلى جهادهم المشرف في مواجهة أخس احتلال عرفه العالم، وأحط استيطان يتوسل بالقتل والدم والكذب، وكادوا يحققون أهدافهم لو استمرت الانتفاضة .. ولكن ..

إجهاض الانتفاضة:

للأسف أجهضت قيادة منظمة التحرير أهداف الانتفاضة العظيمة في الحرية والاستقلال والعودة، بالتوقيع – بعد مفاوضات سرية – على اتفاقية أوسلو عام 1993؛ سعيًا لإقامة دولة مستقلة منزوعة الدسم في الضفة الغربية وقطاع غزة، بعد انسحاب قوات الاحتلال اليهودي إلى حدود عام 1967، وهو أيضًا ما لم يتحقق حتى الآن بعد مرور أكثر من عشرين عامًا.

تابعتُ الانتفاضة أولا بأول، وكتبت عنها في " الاعتصام " وغيرها بالتحليل والتشجيع، وهو ما أزعج بعض الفلسطينيين في منظمة فتح، وتلقت " الاعتصام " رسائل عديدة بدون توقيع أو بأسماء مستعارة تهاجمني، وتهاجم الحاج حسن عاشور مدير التحرير، وقد اضطررنا للرد على أصحاب هذه الرسائل؛ لنؤكد على موقفنا الثابت، وهو أن العدو لا يفهم إلا لغة المقاومة، أما المفاوضات .. أما المناشدات .. أما لغة الكلام الجميل عن قرارات الأمم المتحدة، مع عدو شرس وفاجر، فإنها غير مجدية؛ لأنه لا يلقي إليها بالا، ولا يصغي إليها، وفلسفته التي تؤمن بالقوة وامتلاك القوة، تجعله راسخًا في مكانه لا يتزحزح، وطالما هو آمن مطمئن لا يزعجه شيء، فلا يعنيه أمر الأخلاق أو القانون الدولي أو حق الآخرين.

ثورة المساجد:

كان الحصاد من متابعة الانتفاضة كتابي: " ثورة المساجد: حجارة من سجيل "، وفيه أعدت أدبيات التصور الإسلامي في المقاومة الفلسطينية من خلال حركة حماس، التي جاهرت برؤيتها الإسلامية الواثقة، وهي الأدبيات التي تلاشت في الرؤى الشيوعية والعلمانية الفلسطينية؛ حيث شرّقت وغرّبت دون نتيجة أو فائدة، واكتفت بالمقاومة عبر الميكروفونات ومقالات الصحف.

جذبت الانتفاضة عددًا من الكتاب الذين يتوقون إلى تحرير فلسطين، بل إن الشيوعيين المصريين الذين وقفوا موقفا خيانيًّا من القضية منذ عام 1948، وانحازوا إلى الحركة العمالية في حزب المابام اليهودي؛ بدعوى وحدة الحركة العمالية الدولية، وامتثالا لتوجيه اليهودي الشيوعي الغامض هنري كورييل مؤسس الحزب الشيوعي المصري " حدتو " - راحوا يكتبون عن الانتفاضة والتطبيع، وأصدر أحدهم - وهو " لطفي الخولي " - كتابًا ضخمًا عن الانتفاضة، وأخذ يختزل القضية في حدود 1967، لا تتجاوزها، والغريب أنه تبين بعد ذلك أن الرجل - وتردد أنه مستشار سياسي لعرفات - كان من أبطال أوسلو التي أجهضت الانتفاضة، وأفرغتها من مضمونها، وجعلت الفلسطينيين يرجعون بخفي حنين، فلم يحققوا هدفًا واحدًا من أهدافها، بل تحولوا من خلال قيادتهم القائمة - بعد أوسلو - إلى حراس لأمن اليهود الغزاة، وعيونًا على المجاهدين والمقاومين، يقدمونهم إلى العدو عندما تقع عملية فدائية، بل قبل أن تقع أي عملية فدائية.

أحمد ياسين:

تأسست حركة حماس في قطاع غزة .. كان مؤسسها الشهيد الشيخ أحمد ياسين يرفض في البداية المقاومة المسلحة، ويرى أن المقاومة السلمية في الشارع والميادين مع المقاطعة الاقتصادية والوسائل الأخرى غير العنيفة أكثر جدوى، وعندما طلب منه طلابه المشاركة في المقاومة المسلحة بدلا

من المقاومة السياسية، رأى أن المواجهة مع دولة الاحتلال ستكون مكلفة؛ لأن الوضع غير متكافئ، وإمكانات الفلسطينيين القتالية محدودة للغاية.

بعد أسابيع من انطلاق الانتفاضة الفلسطينية، غيّر الشيخ ياسين وجهة نظره، وراح طلابه يوزعون منشورات باسم حركة المقاومة الفلسطينية تدعو للانضمام إلى صفوف الحركة. وأنشئت حركة حماس (الحروف الأولى لحركة المقاومة الإسلامية) في 14 من ديسمبر سنة 1987، كما أنشئت شبكة استخبارات اسمها " مجد "؛ لملاحقة الأشخاص المتعاونين مع الشين بيت (جهاز مخابرات يهودي). والتحق أعضاء الإخوان المسلمين بحماس، وبدأت الحركة بمهاجمة جنود الاحتلال، وحرق المحلات والحقول المملوكة للغزاة اليهود. وترسخ وجود حماس في قطاع غزة والضفة الغربية.

قررت سلطة الاحتلال اليهودي قمع الحركة، وتفكيكها بكل الوسائل والسبل، وملاحقة مؤسس الحركة أحمد ياسين، ولكن الحركة تحملت كل الضربات العنيفة التي وجهت إليها، وكانت تسارع بتنظيم نفسها عقب كل حملة؛ مما أكسبها شعبية واسعة، وجعل إسحق رابين يتمنى لو ابتلع البحر قطاع غزة على وجه الخصوص، وهو القطاع الذي احتضن معظم عناصر حماس والمنتمين إليها.

عرب الخط الأخضر:

المفاجأة أن عرب الخط الأخضر (فلسطين 1948) أعلنوا أنهم جزء من الانتفاضة الفلسطينية، وأنهم يستخدمون حقوقهم التي يكفلها نظام الاحتلال، وقاموا بتنظيم مظاهرات وحركات إضراب؛ تضامنا مع إخوانهم في الضفة والقطاع، وساعدوهم بالغذاء والدواء والمال والتبرع بالدم للجرحى والمصابين، وكانوا يفخرون بالجرأة التي يواجهون بها جيش الاحتلال. وبات عرب الداخل (الخط الأخضر) جزءا من الحركة الفلسطينية، وكأن الانتفاضة أعادت إليهم هويّتهم الضائعة في كيان الاحتلال الغاصب.

رقم صعب:

لا ريب أن الوضع بعد الانتفاضة لم يعد كما كان قبلها؛ فقد علم العالم أن هناك شعبًا اسمه الفلسطينيون، وأن هناك احتلالا يهوديًّا يجثم على أنفاس هذا الشعب، وأن من الضروري أن يكون هناك حل لمشكلة هذا

الاحتلال، مع تفاوت الرؤى والتصورات لهذا الحل على الجانبين العربي والأجنبي، ولكن أهم ما أنتجته الانتفاضة كان ترسيخ وجود حماس، التي واصلت الجهاد، وتحرير الإردة الفلسطينية على مستوى القاعدة الشعبية، وتحولت إلى رقم صعب في المعادلة العسكرية والسياسية على الأرض بعد تضحيات هائلة. ثم - وهو الأهم - أن الرؤية الإسلامية لتحرير فلسطين قد عادت إلى الظهور، بعد أن حاولت القيادات الشيوعية والعلمانية في فلسطين طمسها وموارتها التراب، وبعد أن ثبت أنها تؤدي إلى نتائج حقيقية، لعل أبرزها انسحاب العدو من قطاع غزة، وتدمير المغتصبات التي خلفها وراءه، وإن كانت خسّته أبت إلا أن تفرض حصارًا بشعًا ووحشيًّا على القطاع وأهله.

مكتب التعاقد:

في صيف 1989، توجهت ذات يوم مع صديقي الدكتور السيد عمارة إلى القاهرة؛ قاصدين مكتب التعاقد للعمل في كليات المعلمين. كان الدكتور عمارة قد سبقني إلى العمل هناك بعامين أو ثلاثة، وكان رئيس اللجنة رجلا مهذبًا، هو الدكتو إبراهيم الراشد، وكان متخصصا في الرياضيات أو العلوم الطبيعية، لا أذكر تمامًا، ولكنه كان شاعرًا ومحبًّا للأدب، وبمجرد أن قدمني إليه، قرر الرجل أن أنضم إلى هيئة التدريس في الرياض، وصارت بيننا صداقة استمرت حتى اليوم.

شدة أذن:

جهزت أوراقي، بعد أن قضيت حوالي شهرين في التنقل ما بين طنطا والقاهرة ومكتب العمل والضرائب والجوازات وتصريح العمل. وعند الأخير كانت هناك شدة أذن من جهاز الأمن، حين تقدمت بطلب من أجل تصريح للعمل في الخارج، ودفعت الرسوم المقررة والأوراق اللازمة، قيل لي: تعال غدا لتتسلم التصريح .. ذهبت في الغد فقيل لي: لم يأت التصريح من الأمن، تعال غدًا .. في اليوم التالي ذهبت مبكرا، وسألت: فقيل لي: لا ندري شيئا .. التصريح لم يأت حتى الآن.

قلت لهم:

- ما الأمر بالضبط ؟ ماذا هناك ؟

كانت الإجابة غائمة غامضة .. تذكرت أن هناك شخصًا من القرية – انتقل إلى رحمة الله فيما بعد – يعمل في إحدى الجهات المتصلة بالأمن. ذهبت إليه، وسردت له ما جرى، فطلب أن أعود إلى البيت، وسيتابع هو المسألة ويخبرني بالنتيجة.

جاءني في المساء، وقال لي: إن الضابط فلان (كنت أعرفه وذهبت إليه من قبل) يريد أن يراك في مكتبه غدًا.

طلب الليمون:

بعد طول انتظار في مكتب الاستقبال، دخلت على الضابط، وبعد أن طلب الليمون دارت دردشة حول السفر وسببه وأنني – كما تمنى – سأكون ممثلا لبلدي مدافعًا عنها؛ ثم طلب أن أذهب لتسلم التصريح!

لاحظت ابتسامة غامضة على وجوه الموظفين، وهم يسلمونني التصريح، ويقولون: تسافر وترجع بالسلامة!

أخبرني بلدياتي بعد ذلك، أنه حين حضرت سيرتي أمام الضابط المذكور أعلاه في إحدى المناسبات، قال بنبرة غضب، وهو يقصدني: " أهو غار! " يقصد – بلغة مهذبة – أنني أرحتهم بسفري من عناء الملاحقة والاستدعاء.

لم أكن أعرف الجريمة التي اقترفتها في حق الدولة؛ كي تتم ملاحقتي في الوطن واعتراضي عند عودتي من الخارج، وحجز جواز سفري لمدة تطول أو تقصر حسب الأحوال .. لم أختلس مالا، ولم أهرّب ممنوعات، ولم أفسد في الأرض، ولم أنهب أراضي البلد، أو أرتكب جريمة مخلة بالشرف أو ضد القانون، فأنا مثل غيري من مئات الآلاف الذين يغتربون عن الوطن ويتجرعون متاعب الغربة، ورزالات الآخرين وعسفهم، يسهمون في اقتصاد الدولة، ويوفرون على الحكومة مئونة الدعم والرعاية والخدمات، ولكن لغة السلطة في مصر لها معجم آخر يختلف عن المعاجم الذي يستخدمها العالم!

الخطر الأعظم:

المفارقة أن اللصوص يمرحون ويرتعون، وتفتح لهم الأبواب المغلقة، ولا تخشاهم السلطة، ويظهرون على شاشة التليفزيون وصفحات الصحف بكل

تبجيلٍ وتوقير، ولا تراهم خطرا يهدّد الأمن القومي. أن تكون مسلمًا ومتمسكا بدينك، وتراه طريقًا لبناء المجتمع والحاضر والمستقبل، ثم تعبّر عن ذلك في كتاباتك وآرائك، فهذا هو الخطر الأعظم على الدولة والحكومة.

لملمت نفسي كما يقولون بعد رحلة عذاب بين القرية وطنطا ومكتب التوظيف والقنصلية ومكتب الحجز بالقاهرة استمرت أيامًا. رأيت أنه لم يبق هناك أحد ورائي في القرية من أقارب الدرجة الأولى بعد رحيل أبي وأمي، وعمل أخي في القاهرة، وزواج أختي في الجيزة. وكان عليَّ أن أغلق بيت العائلة وبيتي، وأوصي بعض الأقارب الآخرين والأصدقاء ببعض الأمور، ثم أصطحب أسرتي وأتوجه إلى مطار القاهرة في طريقي إلى الرياض.

شهامة الرجل:

سبقني الدكتور السيد عمارة إلى الرياض بأسابيع، وجاءني في المطار مع نجله ياسر، الذي صار زميلا لي في القسم، ووصل الآن إلى درجة أستاذ مساعد، واستضافنا الرجل في بيته بمنطقة العود بضعة أيام حتى عثرنا على سكن يضم الأسرة.

لا أنسى شهامة الرجل وزملاء آخرين، وقفوا إلى جانبي بالمال والجهد حتى أثثت السكن، وأدخلت الأولاد إلى المدارس، وصرت أرافقهم في الذهاب إلى الكلية والعودة منها.

في البداية قابلتنا مشكلة مزعجة في السكن، فقد اتفقنا على استئجار شقة معقولة بشارع الأعشى – نهاية شارع الوزير المشهور، وعلى حدود منفوحة – اكتشفنا أن كهرباء الشقة تضيء لدقائق ثم تنطفئ. عرضنا الأمر على صاحب السكن الذي تقاضى جزءًا من الإيجار السنوي، وطلبنا أن يصلح الخلل في الكهرباء ولكنه راوغنا. أتينا بأحد الكهربائيين ليصلحها، ولكن الرجل أفاد أنها تحتاج إلى تغيير دائرة الكهرباء بالبيت كله تغييرا شاملا، يتكلف كثيرا؛ لأن الشقة مرتبطة ببقية البيت. حاولنا علاج المشكلة بكل السبل، ولكن صاحب البيت كشف عن وجه انتهازي، فلديه عقد، وزعم أننا عاينّا البيت قبل الإقامة .. ذهبنا إلى بعض الجهات الرسمية فلم يقيموا لنا وزنًا؛ لأننا مصريون ولا يعرفنا أحد.

شارع الأعشى:

انتهينا إلى طلب العوض من الله فيما دفعناه، وانتقلنا إلى بيت آخر ليستقر الأبناء، ويذهب بعضهم إلى المدرسة التي كانت قد بدأت فيها الدراسة منذ أسابيع. موقع البيت الجديد في شارع متفرع من آخر شارع الوزير من ناحية شارع الأعشى، ويوازيه من الناحية الأخرى شارع الغنم، له اسم آخر لا أذكره.

المصريون وخاصة الأساتذة يتمركزون في هذه المنطقة، وخاصة في الشوارع المطلة على شارع البطحاء. يبدو أن الغربة تفرض نوعا من تماسك الغرباء؛ تطبيقا لمقولة " الغريب للغريب نسيب ". لم يعد البعد عن مكان العمل مشكلة. كانت الكلية التي أعمل بها وزملائي تبعد عن مكان السكن أكثر من ثلاثين كيلو مترًا، ولكن الإحساس بالتقارب في مكان الإقامة يسبق كل شيء. توفر منطقة السكن المدارس الابتدائية والمتوسطة (الإعدادية) والثانوية؛ مما يوفر عناء انتقال الأبناء بالسيارات حيث يذهبون إليها على أقدامهم، ويمكن لأولياء الأمور أن يتابعوهم عن قرب.

وأيضا فهناك المنطقة التجارية في التميري قريبة من المساكن، ويمكن للأسر أن تذهب إليها على الأقدام؛ من أجل التسوّق أو التنزه في الحديقة الممتدة أمام المسجد الجامع المواجه للمعهد الديني التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود. وفي المنطقة أكثر من حديقة غناء بالأشجار الخضراء وملاعب الأطفال ورسوم الدخول رمزية، وهي مخصصة للأسر فقط، ومحاطة بأسوار عالية من النباتات؛ حماية للمتنزهين من العائلات، وتمتلئ بالزوار منذ عصر الأربعاء حتى مساء الجمعة من كل أسبوع، وهي فترة الإجازة الأسبوعية .. الخميس والجمعة.

ظللنا في المنطقة وهذا البيت حتى انتهت الإعارة، وعدنا إلى الوطن.

حرية الأستاذ:

يعتمد نظام التعليم في كلية المعلمين على الساعات، ويتيح للطالب اختيار المواد التي يدرسها، ويمنح الفائقين فرصة اختصار سنوات الدراسة إلى ثلاث سنوات أو ثلاث سنوات ونصف. وهناك حرية للأستاذ كي يضع الامتحان ويصحّحه وحده، ويسجل درجات الطلاب في مادته، ويسلمها إلى الموظف المختص بشئون الطلاب الذي يسجلها على الحاسوب

(الكمبيوتر)، ومع انتهاء الامتحانات يمكن أن تظهر النتيجة العامة للطالب في اليوم التالي؛ لأن الأستاذ يصحح أولا بأول. لا يوجد هناك كنترول وأرقام سرية وأقفال تغلق غرفة الكنترول وشمع أحمر وحراسة ليلية، إلى آخر ما يحدث عندنا من تعقيدات، تفترض في الأستاذ أنه متهم وليس مربيًا عادلا. القوم هناك يرون أن الأستاذ الذي يدرّس هو الذي يقضي بين طلابه، وإذا ظهر ما يشينه أو يطعن في أمانته، فلا مكان له بين أعضاء هيئة التدريس، بل لا مكان له في البلاد كلها!

لعبة سنوية:

كان بعض الطلاب يتظلم بالحق أو بالباطل حين يرسب في مادة أو عدة مواد، وكان يعاد تصحيح الورقة بمعرفة الأستاذ وزميل له. وصارت المسألة لعبة سنوية؛ حيث تكثر التظلمات دون سبب حقيقي، فتم وضع نظام يقضي أن يضع الطالب ألفي ريال في خزانة الكلية عن كل مادة يتظلم فيها، تعود إليه إذا كان على حق، وتدخل إلى ميزانية الكلية لتحسين الخدمات إذا كان تظلمه ادعاء باطلا. تراجعت بعد ذلك التظلمات، بل انعدمت تمامًا؛ لأنها غالبا كانت نوعًا من التعبير عن رغبة بتبرئة النفس من التقصير وعدم بذل الجهد.

وبصفة عامة، لم يكن العمل في الكلية مجهدًا، فالطلاب عددهم قليل نسبيًّا بالمقارنة مع المدرجات المكتظة في مصر، ويلتقطون ما يلفظه الأستاذ ويحفظونه على الفور، وكنت أفاجأ ببعض ما أقوله في المحاضرات باللهجة العامية المصرية مثبتًا بالنص في كراسات الامتحان أو الاختبار كما يسمونه. لعل ذلك يرجع إلى ثقافة المشافهة السائدة هناك، وهي ثقافة مريحة لبعضهم؛ لأنها تفضل السماع على القراءة والبحث عن المعلومة.

النسخ والرقعة:

مقررات قسم اللغة العربية جيدة، وأسعدني أن يكون بينها مقرر للخط العربي، إلى جانب مقرر التحرير العربي، وقد درّسته طوال فترة عملي بالكلية، وكنت أدرّب الطلاب على الكتابة عمليًّا على السبورة، مع الحرص على التفريق بين خط النسخ وخط الرقعة، وكانوا يستجيبون لما أقول وأوضّح؛ فقد وجدوا في المادة متعة حقيقية، خاصة أنهم سيتخرّجون للعمل مدرسين بالمدارس في مراحل التعليم الأساسي.

التربية العملية:

التربية العملية جزء أساسي من إعداد طلاب الكلية للتدريس، وكنت كل عام أشرف على مجموعة تتدرب يومًا واحدًا في الأسبوع، ثم شهرًا كاملا في نهاية العام بإحدى المدارس التي يختارها الطلاب، وكنت أتابعهم داخل الفصل وخارجه، ومع أن بعض مديري المدارس كانوا يرون وجودهم عبئًا على المناهج، وينظرون إليهم نظرة غير جيدة، إلا إنني كنت حريصًا على إقناعهم أنهم يفيدون التلاميذ، وأضيف إلى ذلك ضرورة إشراكهم في النشاط المدرسي بدءًا من طابور الصباح، والإذاعة المدرسية حتى النشاط الثقافي والاجتماعي. وكثيرًا ما قمت بالتدريس في الفصل أمام الطالب المتدرب؛ لأبيّن له كيف أجذب انتباه التلاميذ وأتفاعل معهم، وفي الفسحة أجلس مع المجموعة، وأتحدث عن الأخطاء بصفة عامة؛ حتى لا أسبب حرجًا للمخطئ، ولكن الكلام تعم فائدته المجموعة كلها.

الفعاليات الثقافية:

وتلقى النشاطات خارج المحاضرات الدراسية فرصًا جيدة، ويستطيع الطلاب والأساتذة أن ينفذوا عديدًا من الفعاليات الثقافية والاجتماعية والرياضية، ويستطيع الرائد المسئول عن النشاط أن يدعو محاضرين من الخارج؛ لإلقاء محاضرات دينية أو علمية أو عامة، ويمكن عقد ندوات أدبية في الشعر والنثر، بالإضافة إلى إقامة دورات رياضية في كرة القدم أو السلة أو الطائرة، فضلا عن السباحة، وكانت الكلية مزودة بمسبح جيد تتغير مياهه باستمرار مع أهمية المياه هناك.

تجربة صحفية:

كان يعجبني هناك نشاط صحفي داخلي، حيث كان الطلاب يصدرون أسبوعيًّا كل يوم سبت جريدة ورقية اسمها " الرسالة " فيما أذكر، عبارة عن ورقة فولسكاب (مقاس كبير) مطوية، فتشكل أربع صفحات من الحجم المتوسط ومطبوعة ببنط 9 أسود، وتحتوي على أخبار الكلية والأساتذة والأقسام المختلفة، وبعض القضايا التي يعالجها الطلاب بأسلوبهم ورؤيتهم، إضافة إلى بعض المقالات التي يكتبها الأساتذة أو الطلاب، وقد تكون هناك قصائد شعرية أو قصص قصيرة أو نحو ذلك. وفي المناسبات الاستثنائية –

مثل التخرج - كان الطلاب يصدرون أعدادًا خاصة بأسماء الخريجين، مبينًا بها تقديراتهم وتخصصاتهم.

وكانت هذه الجريدة مصدرًا ليتعرف الأساتذة على ما يجري في الكلية ومجتمعها الإنساني، وخاصة في الأقسام البعيدة، فقد كانت الكلية على امتداد أرض شاسعة، ويفصل بين مبانيها مساحات من الخضرة والمرافق العامة، وكل قسم يبدو كأنه كيان قائم بذاته.

قلة نادرة:

مكتبة الكلية قريبة من قسم اللغة العربية، ومستواها لا بأس به، وتحتل قاعة كبيرة، مزودة بفهارس جيدة، وتضم كتبًا في معظم فنون المعرفة، وللأسف فقد كان روادها قلة نادرة. حاولت أن أوجه الطلاب إليها للاطلاع والبحث، ولكن الاستجابة كانت محدودة .. حرصت على قضاء معظم الساعات المكتبية المخصصة لاستقبال الطلاب الذين أشرف عليهم في المكتبة؛ لتصيبهم عدوى القراءة، وللأسف لم يزرني أحد. ولم يصبني ذلك بالإحباط، وكان يرضيني أن أتابع في المكتبة الصحف والمجلات المحلية، وأطلع على المعاجم والموسوعات، وأستعير بعض ما يلزمني من كتب للقراءة أو لكتابة الأبحاث.

مجموعة طيبة:

ضم قسم اللغة العربية بالكلية مجموعة طيبة من الزملاء، وكانت الأغلبية من أهل البلاد، ومعهم بعض المصريين، وزميل من الضفة الغربية في فلسطين المحتلة، قضى فترة طويلة في المملكة، وفي أواخر عمره عاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الخليل؛ ليدفن هناك بعد أن لحق بالرفيق الأعلى.

كان هناك من أهل البلد الدكاترة والأساتذة: عبد الله الدايل وصالح الخضيري وموسى العبيدان ومحمد منور وحسن حجاب الحازمي ودخيل العواد وعبد العزيز الوهيبي وعبد العزيز السلمان، وآخرون غابت أسماؤهم الكاملة عن ذهني، وأرجو المعذرة لطول العهد.

أما أهل وطني، فكان منهم الدكتور السيد عمارة والدكتور طه الجندي والدكتور عابد غنيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وانضم إلينا فيما بعد عدد من الزملاء،

منهم الدكتور على الخطيب - الذي لم يبق طويلا - والدكتور محمد خميس وزميل اسمه الدكتور حازم نسيت لقبه.

أما الزميل الفلسطيني فكان اسمه الدكتور حسان، وكان من أهل الخليل، وعاش معظم سنوات عمله في المملكة، وزوج أبناءه وبناته وهو مقيم فيها، وكان مهذبًا ورقيقاً، وحصّل تعليمه من مصر. وظل بالمملكة حتى عاد بعد التقاعد إلى الضفة الغربية، ولقي ربه ودفن بالخليل.

رئيس القسم:

رأس القسم صديق قديم من جازان، عرفته أيام الإعارة الأولى والعمل في أحد المسارحة. وهو أحمد بن يحيى البهكلي (1955م - ...) من مواليد أبي عريش شمال جازان، وكان محاضرًا بالقسم وهو شاعر مجيد، تخرج من كلية اللغة العربية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وحصل على الماجستير من جامعة إنديانا بالولايات المتحدة الأمريكية. وسجل للدكتوراه في جامعة الملك سعود بالرياض، ولكن متاعب قابلته هناك، فآثر الانصراف إلى القراءة والإدارة وكتابة الشعر، والمشاركة بالكتابة في الصحف، ومع إنشاء كلية للمعلمين في جازان عين عميدًا لها. وهو - في كل الأحوال - حريص على المشاركة في النشاط الأدبي، سواء عندما كان في الرياض، أو عندما ذهب إلى جازان؛ حيث شغل منصب نائب رئيس نادي جازان الأدبي ، وقد توطدت علاقتي به، وظلت المودة بيننا قائمة حتى اليوم، وعندما عدت الى الوطن بعد انتهاء الإعارة كتبت عن شعره فصلا مطولا في كتابي " شعراء وقضايا "، فقد كنت أتحرج أن أكتب عن أحد من هناك وأنا في دارهم؛ بسبب ما كان يردده بعضهم من أن من يكتب عن أهل البلاد يبتغي غايات شخصية، وقد ألزمت نفسي ألا أكون في وضع يضعني في مرمى هؤلاء القوم، وهو منهج سار عليه الدكتور شكري عياد رَحِمَهُ ٱللَّهُ طوال فترة عمله في جامعة الملك سعود (الرياض).

التقريظ الفج:

وأقرّ وأعترف أن بعض المصريين ممن يتناولون أعمال الأشقاء الأدبية، لم يكونوا في كتابتهم منزّهين عن الهوى، أو عن مبدأ الكتابة تحت الطلب،

لدرجة أنه راجت نكتة أن الكتاب المصريين الذين يحضرون إلى مهرجان الجنادرية يحملون في حقائبهم مقالات عديدة يقدمونها للصحف والمجلات، وقد طلب بعض المحررين من كاتب غير مسلم مقالا عن الأدب الإسلامي، ففتح حقيبته وأخرج منها المقال المطلوب !!

معظم كتابات بني جلدتنا تسير في اتجاه التقريظ الفج والمديح المتملق. وبعضهم كان يسلك سلوكيات مخجلة يستحي منها الشرفاء؛ حرصًا على بقائه في الإعارة، وتجاوزت الأمور أحيانًا كتابات النفاق الرخيص إلى ممارسة بعض السلوكيات البغيضة والمتدنية، وقد قيل لي إن بعضهم كان يهوي على يد رؤسائه أو زملائه من أهل البلاد بقبلة نفاقية فجة، دون اكتراث بوجود آخرين ينظرون إليه بازدراء واستهجان !

نماذج رديئة:

أحدهم وصل به النفاق إلى درجة الزواج مرة ثانية من فتاة صغيرة؛ ليعلم القوم أنه مصري يعدد الزوجات وفق العادات السائدة في بلاد الإعارة. وللأسف فإن حظه التعس أوقعه في محنة صحية شديدة كاد يهلك على أثرها؛ لقد كان ضعيف البنية وألزم نفسه بزواج لا ضرورة له، اللهم إلا الطمع في تجديد التعاقد !

هذه النماذج للأسف الشديد تحرص على وجودها وعلى مصالحها الخاصة ولو كان ذلك على حساب زملائهم وكرامتهم، وتضرب عرض الحائط بصورة الوطن ومكانته، ولكن القوم هناك يفرقون بين الأصيل والزائف، ويحترمون الأول ويقدرونه وهو يؤدي واجبه بالتزام وتعفف عن السقوط في هاوية النفاق الرخيص.

نشاط ممتد:

لم يقتصر القسم في عهد البهكلي على الاهتمام بالمقررات الدراسية، ولكن نشاطه امتد إلى مجال الدراسات والأبحاث التي ينتجها الأعضاء، وكان هناك اجتماع أسبوعي أو كل أسبوعين، يقدم فيه العضو بحثه أو دراسته ملخصة، مع توزيع نسخ منها على الأعضاء، ويتم مناقشتها وإضاءة جوانبها، واقتراح الإضافات التي تثريها وتغنيها، وكان الأعضاء جميعًا يهتمون بهذا الأمر، وكان يشارك في هذا النشاط بعض أعضاء الأقسام الأخرى، ممن يصل إليهم خبر اللقاء في جريدة الرسالة التي تصدرها

الكلية، وكان الدكتور إبراهيم الراشد عميد الكلية يحضر بعض هذه النشاطات ويشارك فيها؛ بحكم حبه للشعر والأدب.

خرجت هيئة القسم في مرات عديدة إلى رحلات برية، حيث كانت الإقامة ببعض المعسكرات الاجتماعية التي يؤمها هواة الرحلات البرية من الطلاب والأساتذة، وهي معسكرات مزودة بخيام مجهزة ومطابخ وحمامات وخزانات مياه وملاعب كرة وجهاز تلفزيون وإذاعة داخلية.

وفي هذه الرحلات برامج ترفيهية ومباريات كرة ومحاضرات قصيرة ومناقشات، وغير ذلك من أنشطة يتيحها يوم كامل من الصباح الباكر حتى الغروب.

تواصل دائم:

سادت بين هيئة القسم علاقات إنسانية، وتعاون مثمر، وتفاهم حول القضايا المختلفة، وتبادل للزيارات، وتواصل دائم، واستمر ذلك حتى اليوم. ولا يفوّت الزملاء من أهل المملكة فرصة الحضور إلى القاهرة دون لقاء شخصي أو اتصال هاتفي، فضلا عن الاتصال الهاتفي من الرياض، أو غيرها في المناسبات المختلفة.

وقد امتدت العلاقات لتشمل الأقسام الأخرى، وخاصة القريبة من تخصص اللغة العربية، مثل الدراسات القرآنية والدراسات الإسلامية، أو الأقسام القريبة من قسمنا جغرافيًّا،مثل قسم المواد الاجتماعية، وقسم التربية الرياضية، وكان فيها أساتذة يتمتعون بحسن الخلق والمروءة، ولا نزكيهم على الله، وبعضهم كان يحضر إلى مصر ولا ينسى السؤال والزيارة، ومنهم الدكتور فهد العصيمي، والدكتور فهد الرومي.

فترة ذهبية:

وأظن فترة الإعارة هذه من الفترات الذهبية القليلة التي أتيح لي فيها فرصة القراءة والكتابة بصورة ممتازة.

وقد شجعني على ذلك وجود مكتبة كبرى مثل مكتبة جامعة الملك سعود، وكنت أشد الرحال إليها يوم الخميس من كل أسبوع - وهو إجازة - حيث أركب الحافلة من محطة العود إلى محطة أم الحمام آخر محطات

الحافلة، فأقضي معظم اليوم هناك؛ لأصور ما أريده من موضوعات داخل المكتبة، وأطلع على الدوريات النادرة والكتب المختلفة، وبالقرب من المكتبة مطعم للأساتذة، يقدم وجبات جيدة بأسعار معقولة، وإن كنت في الغالب أفضل الانتظار حتى أتناول الطعام مع الأولاد، بعد عودتي من هناك.

أديب رائد:

حرصت على المشاركة في نشاط النادي الأدبي بالرياض، وكان رئيسه الأديب المعروف عبد الله بن إدريس، وهو شاعر وأديب رائد في المملكة، ويحظى باحترام الأدباء والكتاب، وتولى رئاسة تحرير مجلة الدعوة السعودية إبان نشأتها، وذكر لي أن الشاعرة الكبيرة نازك الملائكة أفادت من هذه المجلة عندما زارت المملكة، وتأثرت بموضوعاتها في فهم بعض الأمور الإسلامية التي كانت خافية عليها.

وقد طلب مني الشيخ عبد الله - كما يسمونه - أو أبو زياد كما يكنى، أن ألقي محاضرة، وقد أعددت دراسة عن الأدب الإسلامي خارج العالم العربي، حضرها جمهور كبير، وحظيت بمناقشات ثرية من جانب الجمهور، ومعظمهم من أساتذة الجامعة والأدباء والكتاب، وأفردت لها الصحف المحلية مساحات واسعة؛ تغطية لها، ولما دار حولها من مناقشات.

ندوة أسبوعية:

وكانت هناك ندوة أسبوعية تنعقد كل يوم اثنين، تحضرها وجوه دائمة وبعض الضيوف الذين يظهرون أحيانا كل فترة ثم يختفون، وكانت الندوة تطرح موضوعًا أو تناقش بعض الأعمال الأدبية، ويشارك معظم الحاضرين في التعليق والتعقيب. ومع أن الشيخ عبد الله كان يحضر هذه الندوة، إلا إنه كان يسند إدارة الجلسة لأحد الأعضاء، وكان هناك عدد من الزملاء الذين يديرون الندوة، منهم الدكتور سعد البازعي والدكتور معجب الزهراني والدكتور محمد منور، وكان يحضر هذه الندوة عدد كبير من هيئة التدريس في قسمنا بالكلية وعدد مماثل من كلية الآداب في جامعة الملك سعود، وآخرون من كلية اللغة العربية من جامعة الإمام محمد بن سعود. وكان صديقي الدكتور حسين علي محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الرواد الدائمين للندوة، وكان يصطحبني معه أحيانًا في الذهاب والإياب.

مجلة ومجلة :

وقد أصدر النادي مجلة عن هذه الندوة، تطورت لتكون مجلة شهرية، تعتمد في معظم مادتها على ما يدور في الندوة. ثم انبثقت من الندوة فكرة إصدار مجلة فصلية بعنوان " قوافل "، ضمت دراسات علمية عميقة ونصوصًا إنشائية في الشعر والقصة والمسرحية. ولا أدري هل ما زالت المجلتان تصدران أو توقفتا.

من المفارقات أن الندوة اقترحت مناقشة كتابي: " الورد والهالوك – شعراء السبعينيات في مصر "، وقدمت الكتاب لمدير الندوة، الذي أعلن أن المناقشة ستؤجل لظرف طارئ، وبالتالي لم أذهب ولم يذهب أصدقائي مثل الدكتور حسين علي محمد والشاعر أحمد شبلول وغيرهما ممن تعودوا أن يذهبوا معًا، ولكننا فوجئنا في اليوم التالي للندوة أنها انعقدت وأن المدير ناقش الكتاب في غيابي.

مهاجمة الكتاب :

والأغرب من ذلك أن بعض الصحف المحلية غطت الندوة، وكتبت كلامًا لا صلة له بموضوع الكتاب أو ما جاء فيه، من قبيل أنني أهاجم الشعر الحرّ وروّاده، من أمثال صلاح عبد الصبور وبدر شاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي..

بالطبع لم يكن في الكتاب شيء مما قالته الصحيفة، وهو ما جعلني أرسل إلى المسئول عن صفحات الأدب في الصحيفة، وكنت أعرفه من سنوات بعيدة، أنبهه إلى ما اقترفه الصحفي من تجنّ، ومحاولته تصويري على غير الحقيقة، ولم يجد الرجل بدًّا من الاعتذار عما فعله الصحفي الذي يعمل تحت يده.

أما الندوة فكانت مسرحًا لمهاجمة الكتاب الذي لم يكن بين أيدي المناقشين، أي أنهم هاجموا عملا لم يقرءوه، ولم يكن صاحبه موجودًا ليوضح ويصحح، ويعرض ما كتبه بدقة، ولكن يبدو – والله أعلم – أن بعض من أضيروا من الكتاب من بني جلدتنا أوحى إلى القوم بما في نفسه، فجرت المفارقة في تأجيل المناقشة ثم عقدها في غيابي، ثم نشرت الصحيفة كلاما بعيدا عن موضوع الكتاب..

مناطق شبه محظورة:

صحيح أنني تلقيت اعتذارات أو تبريرات لما حدث، لكن الأمر لم يكن طبيعيًّا، فالكتاب ارتاد مناطق شبه محظورة في المشهد الثقافي، فقد روج المهيمنون على الحقل الأدبي لمجموعة من الشعراء، سموهم وحدهم شعراء السبعينيات في مصر. ثم صعدوا بهم أو بأدبهم إلى عنان السماء. في الوقت نفسه كانت هناك مجموعة أخرى أكبر وأفضل بالمفهوم النقدي الموضوعي، تملأ آفاق الأرض المصرية من أسوان إلى الإسكندرية، وتُقدم شعرًا جميلا، يشير إلى أن أصحابه موهوبون بحق، ويستحقون – عن جدارة – أن يكونوا ممثلين لشعر السبعينيات في مصر.

هذه المجموعة لا تجد من يقدمها أو يكتب عنها .. كنت قد آليت على نفسي أن أكون نصيرًا للمظاليم الذين يتجاهلهم أهل السطوة الأدبية لسبب وآخر. ومعظم كتاباتي النقدية كانت – غالبًا – تصب في اتجاه مغاير لما هو سائد ورائج، وخاصة بعد أن حول بعضهم العملية النقدية إلى نوع من الانتصار للشلة أو الحزب الذي ينتسب إليه الناقد أو المنقود، فأنصار الواقعية مثلا صاروا لا يهتمون بما يكتبه الرومانتيكيون أو الكلاسيكيون تحت ذرائع مختلفة، ولا يكتفون بالتجاهل، بل يحاولون إسقاط الأدب المخالف من قائمة الأدب كله، وازدرائه، والتقليل من شأن كتّابه، ويفعل ذلك الوجوديون والرمزيون والسرياليون .. لا تجد لديهم أدنى تعاطف أو اعتراف بغيرهم؛ مما جعل الحياة الأدبية تمضي بعين واحدة، تنظر في اتجاه واحد، وهو ما انعكس على عملية النشر أيضًا، فالهيئات الرسمية بل والخاصة صارت تعمل بما تمليه أحادية النظرة. وللأسف فقد سيطر أصحاب النظرة الأحادية من الشيوعيين وأشباههم والسائرين في ركابهم على النشر الرسمي منذ عهد جمال عبد الناصر حتى اليوم، لدرجة أن بعضهم يعيش تخمة في النشر، وغيرهم يعيش قحطًا في النشر !

التخمة والقحط:

خذ مثلا أحدهم ينشر كتابًا في بيروت أو دولة عربية أوغيرها، ويأخذ عنه مقابلا كبيرًا، ثم بعد شهور ينشره في الهيئة الرسمية نظير مكافأة سخية، وبعدئذ تنشره مكتبة الأسرة ذات التوزيع الكبير والعائد الأكبر،

وبعد ذلك تتعاقد معه هيئة نشر رسمية لنشره ضمن ما يسمى الأعمال الكاملة مقابل أرقام فلكية بالنسبة للأدباء.

أما الذين يعانون من النشر، فليس أمامهم سوى حفظ ما يكتبون مخطوطا في أدراجهم، أو بذل مدخراتهم لدى ناشر لا يعنيه التوزيع بقدر ما يعنيه أن يربح من المؤلف، ونادرًا ما يكون هناك ناشر يمنح الفتات من حقوق المؤلف، ولكنه لن يكون أبدًا مثل الناشر الرسمي " الفنجري "، الذي يمنح للمؤلف الموالي أكثر مما يستحق، ولو لم يستطع توزيع كتابه أو لم يُقبل عليه القراء !

إنصاف المظلومين:

كان هذا الاستطراد ضروريًّا لأوضح أنني كتبت " الورد والهالوك " انتصارًا لفكرة إنصاف المظلومين، وقسمته إلى قسمين؛ القسم الأول " الورد "، الذي يضم شعراء الأصالة، والقسم الآخر يشمل " الهالوك "، وهم المتسلّقون في عالم الشعر بلا موهبة حقيقية أو إضافة جديدة، والهالوك نبات يعرفه الفلاحون، يتسلق نبات الفول ويتغذى عليه، وبعد فترة يذبل ويموت؛ لأنه بلا جذور.

بدأت بكتابة فصول عن أبرز شعراء الأصالة أو الورد، وهم: صابر عبد الدايم، أحمد شبلول، حسين علي محمد، جميل عبد الرحمن، عبد الله السيد شرف. وركزت على أبرز الملامح التعبيرية والجمالية لدى كل شاعر، وفي القسم الآخر تناولت كتابات الهالوك وآراءهم، مع نماذج مما كتبوه، وخاصة فيما يسمى قصيدة النثر؛ وهي للأسف نماذج مغلقة تستهين بعقل القارئ، وفن الشعر معًا. ثم ألحقت بالكتاب نماذج عديدة لشعراء الأصالة ممن لم تستوعبهم صفحات الكتاب التي امتدت طويلا، وهم: أبو همام (عبد اللطيف عبد الحليم)، ونشأت المصري، ومحمد سعد بيومي، وفولاذ عبد الله الأنور، ودرويش الأسيوطي، ومحمد عبد الفتاح الشاذلي، وفوزي خضر، وأحمد محمود مبارك، وعبد الستار سليم، وعزت الطيري، ومحمد عبد العزيز شنب، وناجي عبد اللطيف.

قبول عام:

عندما صدر الكتاب – الذي طبع في دار نشر خاصة – لقي قبولا عاما، وقال عنه الدكتور محمد مصطفى هدارة رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنه كتاب العام في الاستفتاء الذي أجرته جريدة الأخبار في عددها الصادر بتاريخ 22/ 12/ 1993، واحتفى عدد كبير من الزملاء بالكتاب، وتناولوه في مقالات ولقاءات أدبية، وكانت لبعضهم ملاحظات موضوعية، عالجت بعضها في الطبعات التالية.

بالطبع كان هناك رد فعل سلبي من جانب أدعياء الساحة الأدبية، وكانوا في مجالسهم الخاصة يتناولون الكتاب وصاحبه بالهجاء، بل وصل الأمر ببعضهم حد التهديد بالاغتيال !!

لم يشغلني رد الفعل السلبي ولا اهتممت به؛ فقد رأيت من خلاله أن كتابي كان موجعًا للأدعياء، ومن صنعتهم الدعاية الحكومية، والفاشلين في الحياة الجامعية، الذين حاولوا تقديم الكتاب وثيقة إدانة ضدي !

وسمعت بعد عقد من الزمان أو أكثر، أن الدكتور عبد القادر القط رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال لبعض أصدقائه إن فلانا – يقصدني – كان صاحب رؤية صائبة حين أشار في كتابه " الورد والهالوك " إلى أن هؤلاء الشعراء – يقصد الهالوكيين – لن يبقى منهم شيء، وبالفعل فقد انتهوا وتلاشى معظمهم، ولم يبق من أعمالهم شيء يذكر.

الجحود:

ومن المفارقات أن بعض من قدمتهم في هذا الكتاب تجاهلوا الإشارة إلى ما كتبته عنهم في سياق حديثهم عن الجوائز أو التكريمات التي حصلوا عليها، وذكروا آخرين لم ينتبهوا إليهم إلا مؤخرًا. لا أدعي أنني لم أتألم لهذا الجحود، لكنني اعتدت عليه من بعض أصحاب المواهب الذين أخذت بأيديهم أو قدمتهم للناس، فيتجاهلون ما فعلت؛ حرصًا على مصالح شخصية رخيصة.

وما أكثر من كتبت عنهم من الشعراء والكتاب، وصاروا معروفين في الساحة الأدبية، بعضهم يحفظ الجميل، وكثير منهم ينداح مع الحياة وقوانينها البراجماتية !

لست آسفًا على شيء، ولكني على يقينٍ أن نبتة صالحة واحدة مخلصة قد تزهر، وتملأ الأرض خضرة ونضارة وألقًا، وهو ما يرضيني على كل حال.

***

9 - كتب وترقيات

ثناء جميل:

لعل كتاب " الورد والهالوك " حظي بشهرة لم ينلها كتاب من كتبي، بعد كتابي " مسلمون لا نخجل "، الذي صدر في وقت كانت فيه كلمة الإسلام بمعناها العملي والتطبيقي شبه ممنوعة في الإعلام والثقافة والتعليم، وقد خصصت له رابطة الأدب الحديث ندوة من ندواتها، حضرها عدد من الأدباء الكبار، في مقدمتهم الأستاذ وديع فلسطين، الذي طوقني بثناء جميل أرجو أن أستحقه.

ومع ذلك فقد أنجزت كتابًا مهمًّا عن الصراع في الجزائر بين العسكر والشعب العربي المسلم الشقيق، بعد أن انقلب العسكر في أوائل التسعينيات من القرن الماضي على نتائج الانتخابات الحرة، التي عبر فيها الشعب الجزائري عن اختياره للإسلاميين، فأطاح بهم العسكر، كما أطاحوا بالرئيس الشرعي الشاذلي بن جديد، وتولوا الحكم صراحة، واعتقلوا مئات الآلاف، وصنعوا مجازر للشعب الطيب، أزهقت أرواح ربع مليون إنسان، واستمرت المجازر عقدًا كاملا من الزمان، سمي بالعشرية الجزائرية السوداء، تم فيها اغتيال رئيس وتنحية آخر، حتى جاءوا برجل من جيل الثورة الجزائرية ضد الفرنسيين؛ ليحكم على مدى خمسة عشر عاما أو يزيد، وفق إرادة العسكر ومشيئتهم .. فقد ترك لهم حكم البلاد عمليًّا، بعد أن حاول تهدئة الأوضاع، وإيقاف نهر الدم، مع أنه الآن في حال مرضية صعبة لا تمكنه من مواجهة أعباء الحكم كما ينبغي.

أطول عنوان:

كتبت كتابي " الحكم العسكري في الجزائر .. "، الذي يحمل أطول عنوان بين عناوين كتبي، وقد اختاره الناشر الحاج حسن عاشور، على غرار عناوين مجلة " الاعتصام " .. ضمنت الكتاب خلفيات الصراع بين الشعب المسلم من ناحية والعسكر والنخبة من ناحية أخرى، وهؤلاء يسمونهم هناك حزب فرنسا، وقد صنعه الغزاة الفرنسيون؛ ليكون ممثلا لهم في صناعة

العقل الجزائري وتوجيهه بلغة فرنسية وتصورات غربية؛ لاستئصال الإسلام ومفاهيمه ورؤاه التي أسهمت في تحرير الجزائر من قبضة الغزاة أوائل الستينيات من القرن الماضي بعد أطول احتلال في التاريخ. ولم يقصر حزب فرنسا في محاولة استئصال الإسلام والحرية بأبشع الطرق وأكثرها خسة ودموية.

ولقي الكتاب رواجًا جيدًا، ومنعته الجزائر من الدخول، وكان بعضهم يحمله إلى هناك بعد نزع أغلفته الخارجية والداخلية؛ حتى لا يلفت أنظار رجال النظام في المطارات أو الموانى أو مداخل البلاد.

مغامرة صدّام:

كانت الحياة في الرياض تمضي هينة وسلسة، وتابع الأولاد دراستهم بانتظام في مدرسة علي بن أبي طالب الابتدائية القريبة من السكن، وكان مديرها آنئذ شابًّا نشيطًا، اسمه فيصل الجريس، يتابع الطلاب والمدرسين بهمة ووعي، وكنت أختار مدرسته لتكون مجال إشرافي على طلاب الكلية المتدربين فيها، وظللنا على اتصال ومودة حتى انتهت الإعارة.

بعد السنة الأولى قطعت سلاسة الحياة مغامرة صدام حسين بغزو الكويت. لم أسترح أبدًا لصدام وحكمه الإجرامي، وتنبأت بغزوه للكويت في بعض مقالاتي، التي كنت أنشرها في الاعتصام، في الوقت الذي كان حكام الخليج، ومن بينهم حكام الكويت، يتهافتون على دعمه في حربه البائسة الطويلة ضد إيران (وليس ضد الغزاة اليهود في فلسطين!). وكانت الصحف والإعلام والمثقفون التابعون للخليج والحكومات المستبدة في العالم العربي تكاد تجعل من صدام إلهًا لا شريك، وتمنت شاعرة كويتية أن تكون نخلة عراقية وسيفًا عراقيًّا وزوجة تحت صهيل الفارس العراقي!

المحافظة رقم 19:

في صبيحة الثاني من أغسطس 1990، وكنا نقضي إجازة الصيف في الوطن، فوجئنا بأنباء تتحدث عن دخول قوات الجيش العراقي إلى الكويت وإعلانها المحافظة رقم 19، وإطلاق اسم قديم عليها بعد ضمها إلى العراق، وانتقلت حكومة الكويت إلى الطائف بالسعودية، واهتزت أركان الدنيا

للحدث المفاجئ الذي لم يكن مفاجئًا لي. ولم تكن الكويت بسكانها وجيشها قادرة على صدّ الجيش العراقي الذي خرج من حربه مع إيران مزودًا بخبرات وتجارب عسكرية فائقة بالنسبة لدول الخليج جميعًا.

رحنا ننتظر ماذا سيحدث في المملكة التي صمتت لمدة أربعة أيام، ولم تعلق على الموضوع، حتى بدت البوصلة في اتجاه تجييش دول الغرب مع دول عربية بقيادة الولايات المتحدة لطرد قوات صدام من الكويت، وبعد احتلال دام لمدة سبعة شهور، تم تحرير الكويت في 26 فبراير 1991، في حرب سميت بحرب الخليج الثانية.

أرض – أرض:

في خلال شهور الاحتلال السبعة كنا قد عدنا إلى العمل في المملكة، وبدأت المناوشات بين العراق والمملكة في أثناء تجييش القوات التي كانت تتأهب لتحرير الكويت، وأخذت صواريخ سكود (أرض – أرض) التي يملكها صدام تطال بعض المدن السعودية، وتصل إلى العاصمة الرياض التي كنا نقطنها. كانت الدراسة قد توقفت بقرار رسمي، وكنا قد تعودنا على صوت صفارات الإنذار المزعج، الذي يشبه النواح على الموتى. كانت معظم الصواريخ تسقط على أطراف الرياض، حتى كانت ليلة سقط فيها بعض الصواريخ في قلب العاصمة، ودمرت مبنى للخدمية المدنية بالقرب من وزارة الدفاع، وقتلت بعض المواطنين والأجانب، أو الوافدين كما يسمونهم، ورأيت صورة لا أنساها للذعر الذي ظهر على وجوه أولادي بعد أن رأينا ضوء التفجيرات يرتفع في السماء، والأرض تهتز تحت أقدامنا من شدة التدمير، وكان أصغر الأبناء قد احمر وجهه، وجحظت عيناه، وتخيلت أن الولد سيموت.

الحرم الشريف:

في اليوم التالي كان قرارنا مغادرة الرياض إلى مكة المكرمة حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولا. تنازل أحد المعارف عن شقة كان يسكنها في حي من أحياء مكة لوجوده بالقاهرة. سهلت لنا الشقة فرصة الاستمتاع بالحرم الشريف فترة طويلة، حيث كنا نتردد عليه باستمرار في معظم أوقات الصلاة، وكنا نفضل السير على أقدامنا من السكن وإليه.

بقينا فترة طويلة - تزيد عن الشهر - حتى جاء القرار بمنح العاملين في التعليم إجازة نصف السنة الدراسية، وتشمل شهر رمضان الذي كنا قد اقتربنا منه، وأسبوعًا بعده، ليبدأ النصف الثاني من العام الدراسي، فغادرنا مكة إلى الرياض، وحجزنا على الطيران للعودة إلى مصر.

جاهلية صدام:

كتبت مجموعة من المقالات حول الغزو وملابساته وأبعاده، ونشرت في كتاب بعنوان " جاهلية صدام وزلزال الخليج "، وكنت قد جمعت ما كتبته من قبل عن صدام في مجلة " الاعتصام" وغيرها، وأضفت إليه بعض التفصيلات، مع توضيح إحصائي لبعض الأحداث المتعلقة بالعراق واحتلال الكويت، ونماذج لكتاب كانوا يمدحون " صدام " قبل الغزو، وصاروا يلعنونه بعده، ونشرت الاعتصامُ الكتاب تحت عنوان هجائي ندمت عليه، ولكن مهانة العراقيين وإذلالهم تحت حكم صدام، ثم حملته الضارية على مصر، وقتل المصريين في العراق، وإرسالهم في صناديق إلى مطار القاهرة، فضلا عن سلوكه العدواني مع أشقائه العرب، جعلني أخضع للحظة انفعال ما كان يجب أن تظهر على غلاف كتاب، فقد سميت الكتاب " هتلر الشرق وبلطجي العراق ولص بغداد ".

راجت في العالم العربي أنباء شبه مؤكدة أن الغزو العراقي للكويت كان مؤامرة أمريكية - يهودية، استجاب لها صدام حسين بطريقة غير مباشرة ونفذها؛ للسيطرة على منابع النفط في الخليج، ويدللون على ذلك بلقاء تم في 25 يونيو 1990 بين صدام حسين والسفيرة الأمريكية في بغداد أبريل جلاسبي، حيث أعطته الضوء الأخضر للغزو، حين أخبرته أن أمريكا " ليس لها رأي بشأن صراع عربي - عربي ".

خسارة بغير حدود:

وفي النهاية فقد كانت عملية الغزو إذلالا للعرا ق وصدام، وخسارة بغير حدود؛ اقتصاديًّا وعسكريًّا وسياسيًّا، ومهدت لعزله ثم غزو العراق نفسه عام 2003م، وإعدام صدام في محاكمات قام بها خصومه تحت رعاية أمريكية في يوم عيد الأضحى الذي يضحي فيه المسلمون تقربا إلى الله!

حقق الكتابان انتشارًا كبيرًا؛ بحكم أن الطرف المعتدى عليه أفاد منهما، بتوزيعه على نطاق واسع تأييدًا لموقفه ضد صدام، وللأسف فإن المؤلف الذي هو أنا لم يفد منهما شيئًا! لأسباب لا أود الحديث عنها.

ما أريد قوله هنا أن الناشر السعودي طلب مني كتيبًا في موضوع الحداثة، وبعد فترة زارني في البيت يحمل كرتونة من الكتيب المطبوع وقيمة المكافأة، وكانت معقولة. وطلب كتاب " جاهلية صدام وحرب الخليج "، ومجموعة من كتبي الأخرى التي طبعها طباعة جيدة، وانتظرت المكافأة والنسخ الهدايا، فلم أنل شيئًا، وحين هاتفته أرسل إليَّ نسخا قليلة، وعقودًا أوقعها ذات صيغة غير ملائمة.

لحية طويلة للغاية:

بعد البحث والتقصي عرفت أن شخصًا مصريًّا ذا لحية طويلة للغاية، صار يدير مؤسسة النشر، وأنه - تقرّبًا وتزلّفًا إلى صاحبها - راح يغمط المؤلفين المصريين من بني جلدته حقوقهم، فخفّض حقوق التأليف إلى مستوى متدن للغاية، وليته أوفى بها، وأخذ يدّعي أن المؤسسة تمر بظروف صعبة، ودخل في مراوغات وأكاذيب لا تنتهي، وحجب صاحب المؤسسة عنّي، فلم أعد أستطيع محادثته عبر الهاتف، وهو الذي كان يبادر بالاتصال، وأنا أعرفه وأعرف والده وبعض أقاربه وأصدقائه، ويتميزون بأخلاق طيبة، ولا أزكيهم على الله، ولكن المصري الملتحي صنع وضْعًا آخر!

ظلت المماطلة في تسديد حقوق التأليف المتدنية فترة طويلة بين وعود لا تصد ق وتسويف لا ينتهي، حتى فوجئت بصديق يتصل بي، وكان لديه سابق علم بالموضوع يخبرني أنه بصدد إنجاز أمر ما لصاحب المؤسسة، وأنه كلمه في موضوع الحقوق، وربط إنجاز الأمر بالتسديد، ووعد أنه سيأتيني بالشيك لصرفه.

لم يضع رصيداً:

المفارقة أنني ذهبت إلى البنك فلم أجد رصيدًا. عرفت أن صاحبنا الملتحي لم يضع رصيدًا في الحساب الذي تتعامل المؤسسة من خلاله مع الأطراف الأخرى، وأن هناك حسابًا آخر لصاحبها عامر بالأموال. كان هدف صاحبنا الذي رأيته في لقاء عابر ذات مرة أن يثبت أنه موال لكفيله كي يزداد ثقة به، ويمنحه تفويضًا بكل شيء.

أبلغت الصديق الذي توسط في الموضوع، فتابع الاتصال بالرجل الذي حدد له يومًا معينًا للصرف، وانتهت المشكلة ولم تنته؛ إذ إن صاحب اللحية الطويلة تمادى في سلوكه الرديء حتى انكشف أمره ذات يوم، وثبت لكفيله أنه لم يكن على المستوى المطلوب، وتم ترحيله من البلاد !

لم أشمت فيه، ولكني أمقت النفاق وأزدري المنافقين، الذين تقوى شوكتهم على أبناء جلدتهم؛ من أجل أهداف شخصية رخيصة. لقد كان صاحب المؤسسة يتعامل معي بتلقائية وإخلاص ووضوح، أما صاحبنا – سامحه الله – فقد أراد أن يصعد على كتفي دون مسوغ من أخلاق أو حقوق !

لا أعمم في حكمي على المصريين، ولكني أشير إلى بعضهم ممن تضعف نفوسهم أو يتخلون عن واجبهم في نصرة الحق، ويتصورون أنهم لو فعلوا فستكون الطامة الكبرى، وتنقطع أرزاقهم.

تخلى عن دوره:

أحدهم كان في وضع يجعله صديقًا، تخلى عن دوره في مساعدتي للوصول إلى حقي لدى بعضهم.

عقب تحرير الكويت كانت هناك رغبة عارمة لدى بعض مراكز البحوث المحلية في وضع دراسات لتوجيه الإعلام نحو قضايا معينة؛ لإقناع العالم بسلامة الموقف السياسي للعرب، وطُلب مني كتابة بعض الأبحاث في الموضوع. في البداية تلقيت مكافأة معقولة من صاحب المركز، وهو زميل جامعي من أهل البلاد، ويعمل في كلية أخرى غير التي أعمل بها، وبيننا معرفة سابقة، ولما استقدم الصديق المصري لإدارة مركزه حدث تقريبا المشهد نفسه الذي جرى لدى ناشر الكتب، فقد هبطت المكافأة إلى حد متدن للغاية، مع مماطلة وتسويف في الدفع، ولم تجد المحاولات المتعددة لحسم الموقف، وكان الأخ الصديق حين أهاتف المركز يخبرني أنه لا شأن له بالوضع، ولا يستطيع أن يتدخل، بل لا يستطيع أن ينقل ما أريد إلى صاحب العمل !

كأنني لم أتعب:

وفي يوم ما استطعت أن أتحدث وجهًا لوجه إلى الزميل صاحب المركز، وقلت له: لا عليك، واعتبر الأمر منتهيًا، وكأنني لم أتعب وأكتب لكم

بحثًا .. على كل حال لدي صورة منه، وسأنشرها كتابًا مستقلا بمعرفتي، مع شكري وتقديري أنكم كنتم من وراء الكتابة والبحث. حينئذ تدارك الرجل الموقف، ووصل إلى حل وسط، وانتهت المشكلة. ولم أقل للأخ الصديق شيئًا، وإن كان هو قد حاول أن يعرف ما دار بيننا، فأفهمته أن الأمر انتهى، وانصرفت سريعًا، وبعدها لم نلتق أبدًا !

لم أتعلم للأسف:

هل تعلمت من الدرس ؟ لم أتعلم أبدًا للأسف، فلم أشترط على ناشر يوما؛ لأن هدفي الدائم كان نشر كلمتي وخدمة الرسالة التي نذرت نفسي لها، وكان الحياء يمنعني من المطالبة بحقوقي، وهذه خُلُة لم أستطع حتى اليوم أن أغيّرها، وإن كان بعضهم قد استفزّني ذات يوم حين تمادى في تجاهله واستخفافه، لدرجة أنه كان لا يرد على الهاتف أو ينكر من حوله وجوده؛ مما دفعني إلى رفع الأمر للقضاء، ومع ذلك قبلت المصالحة، وتنازلت عن كثير من الحقوق !

وقصص الناشرين مع المؤلفين عديدة ولا تنتهي بحال، ومعظمها غير طيب، وإن كانت الحقيقة تفرض أن نذكر أن هناك قلة من الناشرين تحترم المؤلف، وتتعامل معه بصدق ووضوح، ولوكان ما تمنحه بعض الحقوق المتواضعة.

عطاء السلطان:

أما المؤسسات الرسمية فتمنح المؤلفين الموالين لها، وخاصة من يستخدمهم النظام في تسويغ أخطائه وتبرير خطاياه، مبالغ طائلة تحت بنود مختلفة، وهي عطاء من السلطان لعبده المخلص تحت مسمى التأليف، الذي قد يكون مستواه رديئًا وسخيفًا ولا قيمة له (تأمل مثلا حصول كاتب أغان وكلام عاميّ على مليون جنيه، نظير التعاقد معه على هجائياته الرخيصة والبذيئة لبعض الخصوم السياسيين !).

حين وصلت إلى الرياض في السنة الأولى، استأنفت الكتابة في مجلة الدعوة من حين لآخر، كما نشرت موضوعات أخرى في بعض المجلات الأدبية والثقافية، وبعد انتهاء تحرير الكويت، اتفقت معي الدعوة على أن أكتب بصفة منتظمة بعض الموضوعات باسم المجلة، بالإضافة إلى ما أكتبه باسمي صريحًا.

لم أفتن سيارة:

كانوا في البداية يريدونني أن أعمل معهم في الفترة المسائية بصورة مستمرة مثل بقية المحررين، ولكنني اعتذرت، فانشغالي بالبحوث والدراسات لا يسمح لي بالانتظام في مثل هذا العمل، فضلا عن أنني لم أفتن سيارة؛ لنفوري من القيادة هناك؛ بسبب حادث مروري جرى لأحد زملائي من قسم التربية الرياضية.

كان زميلي يقود سيارته في الصباح، متوجها إلى الكلية على الطريق الدائري، فانقضت عليه سيارة نقل ضخمة، فسحقت سيارته، وقضت عليه؛ مما أصابني بالاكتئاب والكدر، وخاصة أنني ذهبت مع بعض الزملاء إلى المشرحة بحي الشميسي لصلاة الجنازة عليه قبل نقله إلى مصر ليدفن في بلدته. قدر الله وما شاء فعل.

ركوب الحافلة:

ثم إن القوم هناك لا يعترفون برخصة القيادة المصرية، ويصرون على اختبار طالب الرخصة بمعرفتهم، وتقرير مدى صلاحيته. وقد يقتضي الأمر تدريبًا بمعرفتهم لبعض الأسابيع يجري بعده اختبار صعب لا يوفق فيه كثيرون، وهو ما جعلني أفضل ركوب الحافلة لمدة ثلثي ساعة ذهابًا ومثلها إيابًا، وكنت أستغلها في القراءة، أو مراجعة بعض الأوراق التي أحملها في حقيبتي؛ فقد كنت - في كثير من الأحيان - الراكب الوحيد في الحافلة .. وأحيانًا كان بعض الزملاء ممن يسكنون في المنطقة يتفضل بالمرور لمرافقته في سيارته في الذهاب صباحًا، وبعضهم كان ينقلني في طريق العودة بعد انتهاء المحاضرات.

عدم وجود سيارة لدي جعل القوم في الدعوة يقبلون بإرسال سائق من طرفهم مساء الثلاثاء من كل أسبوع ليأخذ المقالات، ويحمل إليّ عدد المجلة الذي صدر في الأسبوع السابق. في البداية كان رئيس التحرير يتفق معي هاتفيًا على الخطوط الرئيسة في الموضوعات والخطوط العامة، وبعدها ترك لي اختيارها من خلال الأحداث العامة. كنت أركز على أحداث البوسنة وفلسطين وأفغانستان والأقليات الإسلامية في العالم، وأحاول أن أضيء جوانب القضايا المطروحة بطريقة دقيقة، بعيدة عن العواطف والانفعالات والمبالغات التي تسود الكتابات الإسلامية أحيانًا.

ست سنوات:

ظللت أكتب الافتتاحية الرئيسة والأخرى الفرعيةً للمجلة على مدى ست سنوات، حتى عدت إلى الوطن، وتكاد تكون توثيقًا منهجيًّا لما أصاب المسلمين خارج البلاد العربية في فترة التسعينيات، وكانت هناك رغبة في استمرار التواصل، ولكن شواغل الحياة واختلاف المكان والزمان لم يحقق هذا التواصل، وإن كانت علاقتي الودية بالقوم استمرت زمنًا عن طريق بعض الأصدقاء الذين كانوا يعملون هناك، وكانوا ينقلون أخبارهم وتحياتهم في إجازاتهم أو زياراتهم للوطن.

المحررون اليساريون:

بيد أن المجلات الثقافية في المملكة والخليج، شهدت منذ التسعينيات حتى الآن زحفا من المحررين اليساريين، الذين تولوا إدارة التحرير عمليًّا في هذه المجلات، وكانت كلمتهم – لما تزل – مسموعة لدى رؤساء التحرير الذين يسلم معظمهم أمور العمل كاملة لهؤلاء المحررين، ويكتفي بالمتابعة السريعة، ويطمئن إلى أن المطبوعة تصدر بانتظام، ولا توجد متاعب من هنا أو هناك.

وقد عانيت من بعض هؤلاء المحررين اليساريين كثيرًا؛ حيث كانت موضوعاتي تهمل عمدًا، أو لا يتم نشرها؛ تحت دعوى الضياع أو عدم الوصول، أو وصول الموضوع ناقصًا، أو التسويف في النشر شهرًا وراء شهر، وهو ما جعلني في النهاية أنفض يدي من هذه المجلات، وأكتب فقط لمن يطلب مني الكتابة ممن أعرفهم.

لقد نجح اليساريون وأشباههم في السيطرة على عالم النشر في مصر لأسباب سياسية، واستطاعوا أن ينحوا جانبًا كل من لا يسير في ركابهم؛ مما جعل غيرهم ينصرفون عن هذا المجال، ولم يكتفوا بالسيطرة على النشر في مصر، بل تسللوا إلى دول الخليج التي يتهمونها في أدبياتهم بالتخلف والجهل، ويسمونها دول النفط المتخلفة، وبعضهم يعيش هناك منذ ربع قرن أو يزيد، وهناك يغازلون بعض الشباب الغض باسم الحداثة والتجديد، وينشرون لهم أعمالا ضعيفة، ويكتبون عنها مقالات أو دراسات، عبارة عن مدائح فجة وتقريظات فاقعة، وهو ما يشبع عواطف هؤلاء الشباب، ويربطهم بأولئك المحررين اليساريين، سواء أكانوا من مصر أو من

غيرهـا، فهـم ينجـذبون إلى بعـضهم مـن المحـيط الأطلـسي إلى الخلـيج، ويحرص بعضهم على مساندة بعض.

الأدب الإسلامي:

ولعـل ذلـك كـان مـن وراء هجـومهم العنيـف علـى الأدب الإسـلامي، ورابطته التي تأسست في الهند عام 1984م، برئاسة المفكر الأديب الكبير أبي الحسن الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وكـان بعـضهم يـصل في تـسافله إلى حـد مـا يمكـن وصـفه بالبلاغـات الأمنيـة، ولـولا تفهـم المسئولين للأمـر لكانـت النتـائج غـير طيبة.

إن اليساريين في أغلبهم أعداء للإسلام. لا يقيمون لمفاهيمه أو قيمه وزنًا أو اعتبارًا؛ لأن هذا ديدنهم منذ نشأة الأحزاب الشيوعية أو اليسارية عموما. وفي سبيل تمددهم وهيمنتهم على العقل العربي يجهدون من أجل الهيمنة على الإعلام والصحافة والتعليم والثقافة والمسرح والسينما والفنون، ولا يتورعـون عـن اسـتخدام الـضرب تحـت الحـزام .. وانتقلـت أسـاليبهم إلى نظـرائهم في الخلـيج ممـن يـسمونهم " حـداثيين "؛ لأن لفظـة الـشيوعية لا تستخدم هناك. وعلى سبيل المثال، فقد كتب شاب حداثي مقالا سافلا ضد إحـدى المجـلات الـشهرية الـتي استعـصت علـى غـزوهم ورفـاقهم، وسماهـا " الوجـع الـشهري ". إلى هـذا الحـد بلـغ الانحطـاط المعـادي للأخـلاق والـذوق فضلا عن القيم الراسخة.

مفهوم راشد:

ولم تكن بلاغاتهم الرخيصة عن رابطة الأدب الإسلامي بعيدة عن هذا السلوك الوضيع، ولكن الرابطة رسخت بعون الله؛ لأنها تنشر الخير والأمل، وتنهض بالأدب الذي انحط على أيدي الشيوعيين وأشباههم ممن تماهوا مع الغرب، وقيمه السلبية لا الإيجابية.

لقد كانت الدعوة للأدب الإسلامي انتصارًا للهوية، واستعادة لقيم الأمة في أدب فني جميل، واستطاعت الرابطة بقيادة الدكتور عبد القدوس أبي صالح في العالم العربي، أن تحدث نقلة نوعية في تجديد الأدب الإسلامي، بالدعوة إلى معالجة القيم الإنسانية من خلال مفهوم راشد، ينتصر للإنسان ويقف إلى جانبه، ويأخذ بيده، ويمتعه بالفن الجميل.

أنشأت الرابطة مجلة الأدب الإسلامي الفصلية، والأخرى الإلكترونية الشهرية، وأطلقت العديد من المسابقات الأدبية، التي أفرزت كتابا روائيين وقصصيين وشعراء ومسرحيين متميزين وفائقين، وشجعت كثيرًا من المواهب على النمو والتبلور، وتبنت مشروعًا للنشر، تمثل في عشرات الكتب المؤلفة والمترجمة، فضلا عن اهتمام خاص بأدب الأطفال، الذي تمثل في إصدار العديد منها، وفي الوقت ذاته صار للرابطة فروع في معظم العواصم العربية وبعض العواصم الإفريقية والآسيوية والأوربية، وتتواصل مؤتمراتها ومحاضراتها وندواتها في كل مكان، ولكن الضغينة الشيوعية وما يشبهها، تأبى إلا أن تحارب الكلمة المتوضئة، وترفض أن تكون هناك مشاركة أو تعددية بعيدًا عن الفكر الشيوعي الموتور الأناني المدمر!

النظام الطائفي:

والدكتور عبد القدوس أبو صالح (من مواليد حلب سوريا 1932م) شاعر وأديب وباحث، قدم كثيرًا من الإنتاج الجيد، وحصل على تعليمه العالي في الأدب والنقد من مصر، واستقر بالمملكة منذ عقود طويلة مع بعض أقاربه، وكان ضحية لنظام الأسد الطائفي العنصري، الذي أتي على سوريا ودمرها، وهجّر أغلب شعبها منذ الستينيات في القرن الماضي حتى جاءت ثورة 2011 م فواصل القتل والتدمير، وقتل منه حتى ساعة هذه السطور أكثر من ثلاثمائة ألف بريء، بالقصف الجوي والدبابات والمدافع والغزات السامة واختراعه الإجرامي المسمى البراميل المتفجرة، في الوقت الذي لم يرم فيه برميلا واحدًا على العدو الغاصب الذي يحتل الجولان منذ أربعين عامًا أو يزيد!

عمل عبد القدوس أستاذًا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في كلية اللغة العربية لأكثر من ثلاثين عامًا، أشرف خلالها على كثير من رسائل الماجستير والدكتوراه، وأسهم في العديد من المؤتمرات ولجان التحكيم. وقد اختير نائبًا لرئيس رابطة الأدب الإسلامي منذ إنشائها، ورئيسًا لمكتب البلاد العربية حتى عام 1421هـ = 2000م، وبعد وفاة الشيخ أبي الحسن الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ انتخبه مجلس أمناء الرابطة بالإجماع رئيسًا للرابطة خلفًا له.

محرك لا يهدأ:

وعلى المستوى الإنساني فإنه يتميز بالمروءة والشهامة، والوقوف إلى جانب ذوي الحاجات والمأزومين، وساعده على ذلك شبكة علاقات واسعة مع الشخصيات العامة والثقافية والاجتماعية، وهو يعدّ - لكثرة نشاطه ودأبه - المحرك الذي لا يهدأ في الرابطة، ومع تقدمه في السن والمتاعب الصحية، فإنه يتابع باستمرار النشاط الأدبي في الرابطة وخارجها، وقد أعانه على ذلك فريق من المخلصين الذين لا يعلنون عن أنفسهم، ومنهم الدكتور عبد الباسط بدر والأستاذ محمد حسن بريغش رَحِمَهُ ٱللَّهُ والدكتور وليد قصاب والدكتور حسين علي محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ والأستاذ شمس درمش والأستاذ محمد أبو صالح – أبو لبابة ..

ومن كتبه وبحوثه:

يزيد بن مفرغ الحميري وشعره؛ تحقيق وشرح ديوان ذي الرمة لأبي نصر الباهلي؛ تحقيق كتاب العفو والاعتذار للرقام البصري؛ من شعر الجهاد في العصر الحديث بالاشتراك مع د. محمد رجب البيومي؛ دور الأدب الإسلامي في الوحدة الإسلامية؛ قضية الأدب الإسلامي؛ شبهات حول الأدب الإسلامي؛ نحو منهج إسلامي في أدب الطفل.

الباحث التربوي:

ولعل أبرز أفراد الفريق الذي أسهم في بلورة فكرة الأدب الإسلامي كان الأديب الراحل محمد حسن بريغش، وهو مواليد قرية التل قرب العاصمة السورية دمشق عام 1942، وتوفي بالرياض عام 2003م، وقد نشأ في ظروف صعبة، استطاع أن يتغلب عليها بالعلم والعمل والتحمل والصبر الجميل، وحصل على " الليسانس " في اللغة العربية، وعلى " دبلوم عامة في التربية " من جامعة دمشق. عمل بالتدريس لفترة قصيرة في سوريا، قبل أن يَنتقل إلى المملكة العربية السعودية عام 1975م، فاشتغل بالتدريس بضع سنوات، تحوَّل بعدها إلى العمل باحثًا تربويًّا بالوكالة المساعدة للتطوير التربوي بقسم المناهج التابع للرئاسة العامة لتعليم البنات.

وقد اهتم بالجانب التربوي الخلقي في مؤلفاته، ولعل ذلك كان من وراء اهتمامه بأدب الأطفال، وفقا للرؤية الإسلامية في مؤلفاته التي فاقت العشرين، ومنها:

في الأدب الإسلامي المعاصر دراسة وتطبيق؛ الأدب الإسلامي أصوله وسماته؛ أدب الأطفال أهدافه وسماته؛ في القصة الإسلامية المعاصِرة دراسة وتطبيق؛ دراسات في القصة الإسلامية المعاصِرة مع عرض ودراسة لعدد من قصص الدكتور الكيلاني؛ مصعب بن عمير الداعية المجاهد؛ أبو بصير قمة في العزة الإسلامية؛ خالد بن سعيد بن العاص الصحابي المجاهد؛ نُسَيبة بنت سعد المازنية (أم عُمارة)؛ ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر الصديق؛ أم أيمن بركة (حاضنة رسول الله ﷺ)، بالإضافة إلى مجموعة قصصية.

هاشم الرفاعي:

بيد أن أهم ما قام به من وجهة نظري هو جمع ديوان هاشم الرفاعي وتحقيقه. وللأسف سطا عليه بعض اللصوص، الذين أعادوا نشر الكتاب ونسبوا جهد الراحل الكريم إلى أنفسهم.

وقد عرفت الرجل عن قرب، وخبرت فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخلاقا كريمة، والتزامًا بالصدق والصراحة، ورفضًا للنفاق أو المداهنة، فضلا عن حماسة الرجل الشديدة للأدب الإسلامي، والدفاع عن الفكرة الإسلامية وما يَرتبِط بها من قيم ومبادئ، وقد كتبت عنه بعد رحيله مقالة، قلت فيها:

" لم يكن الصديق العزيز محمد حسن بريغش رَحِمَهُ ٱللَّهُ مجرد أديب أو حامل قلم، فما أكثر الأدباء الذين يَحملون أقلامًا !، ولكنهم يتخذونها وسيلة للتكسب أو الوجاهة الاجتماعية أو الشهرة في عالم الناس، بريغش حمل القلم دفاعًا عن قضية، ودعوة لفكرة، وتبشيرًا بمستقبل؛ لذا كرَّس حياته وجهده لخدمة قضية الأدب الإسلامي، والتعريف بها، والذود عنها، وَفْقًا لقدراته وطاقاته، وقد ظل وفيًّا لهذه القضية حتى وافاه الأجل المحتوم، لا يَنتظر من الناس جزاءً ولا شكورًا، وقد تحمل في سبيلها ضريبة قاسية بصبر المؤمن، وإخلاص المُجاهد ".

نشاط ملموس:

ويمكن القول إن رابطة الأدب الإسلامي - في حدود إمكاناتها المحدودة - أثبتت نشاطًا ملموسًا لا بأس به، وكسبت أرضًا لفكرة الأدب الإسلامي في الواقع الأدبي، وقد حضرتُ في أثناء وجودي بالرياض معظم أنشطتها، وقبيل عودتي نشرت لي كتابي " الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني "، وكررت طبعه أكثر من مرة بعد أن صار مرجعًا من مراجع الفكرة الإسلامية في الأدب.

اللجنة الموقرة:

في العام الثاني للإعارة تقدمت للترقية إلى درجة " أستاذ مساعد " - تعادل هناك " أستاذ مشارك " - كنت أظن أن ما تقدمت به من أبحاث يؤهلني للترقية إلى درجة أستاذ وليس مجرد أستاذ مساعد، ولكن اللجنة الموقرة أسندت كتابة التقرير عن الإنتاج العلمي إلى أحدهم، وهو يساري نشيط، يتبنى ما يسمى فكر التنوير، ويعادي التوجه الإسلامي عداء سافرًا، ويسمي التيار الإسلامي بالتيار الظلامي، بل يشير إلى الإسلام بوصف " الإظلام ". وانتهى في تقريره - الذي تأخذ به اللجنة عادة؛ لأن أحدًا منها لا يقرأ - إلى أن الإنتاج لا يكفي !

للأسف لم أعلم بالنتيجة إلا بعد أكثر من عام ونصف عام، فقد كنت حسن النية لدرجة السذاجة، وتصورت أن الترقية مسألة شبه محسومة، وأن القوم سيبلغون الكلية التي أعمل بها في مصر تلقائيًّا، وستتخذ هذه الإجراءات اللازمة لإعلان الترقية رسميًّا.

النتيجة في الصعيد:

حين ذهبت في إجازة الصيف بعد أكثر من عام لم أجد في الكلية شيئًا. راجعوا الدفاتر والمكاتبات، فلم يجدوا شيئًا. ذكرت الموضوع لأحد الأساتذة ممن لهم صلات بأعضاء اللجنة، فأخبرني بعد فترة أنهم أرسلوا النتيجة إلى جامعة في الصعيد (جنوب البلاد) ظنًّا منهم - كما أخبرني - أنني أعمل هناك ! علمًا أن أوراق التقديم مذكور فيها بياناتي كاملة، والجامعة التي

أنتسب إليها .. وأبلغني أنهم سيرسلون نسخة أخرى من النتيجة إلى كليتي.

يلزمني نظام الترقيات انتظار سنة كاملة من وصول التقرير بالنتيجة حتى أستطيع التقدم مرة أخرى. وبدا أن الأمر نوع من المكايدة التي تشبه كيد النساء. فكاتب التقرير لا يستطيع أن يكتب أن أعمالي ضعيفة، ولكنه كتب أنها غير كافية، أي تحتاج إلى إضافة .. ثم تم إرسال التقرير إلى مكان آخر اعتمادًا على وجودي بالخارج؛ كي يمتد وقت الانتظار للتقديم مرة أخرى.

أبدى تعاطفًا:

التزمت بالصبر، وتحملت الظلم غير المفهوم، وبعد عام قدمت أعمالا أخرى وذهبت مع زميل من القسم إلى أحد الأعضاء الذين رجحت التوقعات أنه هو الذي سيقرأ ويكتب التفرير أو النتيجة. أبدى الرجل تعاطفا، وحمل على من ظلموني لدرجة صدقت معها أن الرجل نزيه، ولكن المفاجأة كانت أنه كرر ما سبق من زميله الظالم في تقريره، وزاد عليه بعد الفقرات الفجة التي تشير إلى أنه لم يقرأ أبدًا شيئًا من إنتاجي، أو أنه قرأ وغالط ضميره!

علمت بالنتيجة وأنا في الرياض، وكان عدد من أعضاء اللجنة في ذلك الوقت يشاركون في مهرجان الجنادرية السنوي، ورأى بعض الزملاء كتابة بيان وإرساله إلى الصحف في القاهرة وبعض الجهات؛ احتجاجًا على العسف في الترقية، واستنكارًا للظلم الفادح الذي يقوم على أساس أيديولوجي، وليس على أساس علمي موضوعي، ولكن أحد أعضاء اللجنة الموجود بالرياض علم بالأمر، وطلب من الزملاء إرجاء البيان، وطلب أن يتم إخباره قبل التقدم ليقوم هو أو أحد من المنصفين في اللجنة بالقراءة.

قامت القيامة:

عرفت - فيما بعد - أن موضوعي كان مثار مناقشات في اللجنة، وأن أحد الأعضاء طلب من الفريق (التنويري) أن يكونوا موضوعيين، وخاصة بالنسبة لترقيتي، وأخبرهم أنه يعلم جودة أبحاثي، وأن الظلم لا مبرر له. ثم إنه أنذرهم بأن رجلهم (التنويري) الذي يريدون ترقيته - وكان يحظى برعايتهم - سيقوم هو بقراءة إنتاجه قراءة دقيقة.

بعد شهور قامت القيامة في مصر، وتابعنا تجلياتها في الصحف والمجلات المصرية والعربية التي تصل إلى الرياض. أوقد القوم وأغلبهم يساريون ليبراليون نار حرب طاحنة؛ لأن ابنهم المدلل، لم تتم ترقيته، وتصايح اليساريون والعلمانيون في أرجاء العالم العربي تأييدا للرفاق في مصر، وتحولت المسألة من عمل جامعي داخلي إلى قضية قومية كبرى، أهم من قضية تحرير فلسطين، أو إنقاذ الاقتصاد المصري.

رذاذ كثير:

حوّل اليساريون مسألة عدم ترقية الابن المدلل في البداية على صفحة الفكر القومي - التي كان يحررها الكاتب الماركسي الحكومي لطفي الخولي - إلى اتهام صارخ للإسلام والمنتمين إليه بأنهم ضد العقل والعلم والتفكير الحر، ونال أعضاء اللجنة الذين لم يوافقوا على الترقية رذاذ كثير من سفالة اليساريين وبذاءاتهم وانحطاطهم، وكانت هناك أصوات في بعض صحف المعارضة، تدعو إلى التعقل، ومعالجة الأمر في إطاره العلمي الموضوعي، ولكن هذه الأصوات ذهبت أدراج الرياح!

أبدى وزير التعليم العالي آنئذ تأييده لليساريين .. الوزير المذكور من أعضاء التنظيم الطليعي السري الذي شكله عبد الناصر ليضمن البقاء على كرسيه من خلال أعضائه، وتكاد تنحصر مهمتهم في كتابة التقارير عن المعارضين للنظام أيا كانوا؛ حتى الأب والأم والأخ لا حصانة لهم لدى عضو التنظيم .. التقارير يتم رفعها إلى المستوى الأعلى حتى تصل إلى الزعيم، الذي يتفرغ لقراءتها أكثر مما يتفرغ لشئون الدولة.

أستاذ متخصص:

المهم - بناء على هذا التأييد من الوزير الطليعي والرفاق - قام القسم العلمي بعقد جلسة استثنائية قرر فيها ترقية الابن المدلل، وصادق مجلس الكلية على هذه الترقية، وتم رفعها إلى مجلس الجامعة للمصادقة والإقرار.

كان رئيس الجامعة آنئذ رجلا طيبًا ناله بعض الرذاذ، أراد أن يكون منصفًا للعلم والابن المدلل معًا، فاستدعى أستاذًا متخصصًا إلى مكتبه في سرية تامة، وطلب منه أن يقرأ إنتاج الفتى التنويري الذي رفعه اليساريون إلى مرتبة الشهداء، ثم يكتب تقريرًا بما يرضي الله دون أن يعلم أحد، وأنجز

الأستاذ القراءة وكتب تقريره العلمي المحايد، وعرضه رئيس الجامعة في الجلسة التالية على مجلس الجامعة، وكان قراره الحاسم رفض ترقية الابن المدلل؛ بسبب قصور علمي واضح، وأخطاء شنيعة لا يرتكبها طالب في الثانوية العامة، ولوحظ أن ما ذكره المحكّم السري - الذي عُرف فيما بعد ونُشر تقريره على الملأ - من أخطاء بحثية وخطايا علمية، فاق ما ذكره المحكّم الأول، الذي ينتسب إلى اللجنة العلمية للترقية في الجامعات المصرية.

هوة سحيقة :

أتيح للابن المدلل أن يحصل على شهرة عريضة للغاية، ولكنها شهرة أودت به إلى هوة سحيقة، فقد قرئت كتبه ونوقشت، وكانت موضوع أبحاث مطولة، انتهت إلى تهافتها، واكتظاظها بأخطاء وخطايا عديدة، دفعت بعض المواطنين إلى رفع الأمر للقضاء، الذي حكم بكفر الابن المدلل، والتفريق بينه وبين زوجه، ولم يتم تنفيذ الحكم؛ لأنه كان قد غادر البلاد إلى الخارج، وترك رفاقه ينوحون على ما جرى له !

تساءلت فيما بيني وبين نفسي: هل اختارني الله لأكون سببًا في كشف فساد علمي يضرب جذور الجامعة حين تأخرت ترقيتي، ونكل بي بعض الرافضين لمنهج الإسلام من أهل الهوى ؟ ربما !!

سجدتُ لله شكرًا :

في الصيف حل الموعد الثالث للتقدم للترقية .. أضفت جديدًا لإنتاجي السابق، وكنت لا أتوقف عن القراءة والبحث ونشر الدراسات في مجال التخصص، وهذا بحمد الله يجعلني قذى في أعين الخصوم من العلمانيين أنصار السلطة المستبدة وخدامها. وبعد انتهاء الإجازة الصيفية وعودتنا إلى الرياض بقليل (عام 1994) تلقيت من بعض الأصدقاء خبر الترقية، واتصلت ببعض أعضاء اللجنة، فأكدوا لي الخبر .. سجدت لله شكرًا، وحمدته على نعمائه التي لا تعد ولا تحصى.

الشيخ فكري:

أعددت وليمة للزملاء .. ساعدني في تجهيزها الشيخ فكري فودة، وهو صديق عزيز من المحبين، كان يقرأ لي في الاعتصام منذ السبعينيات. عمل

بالتعليم في مصر فترة قصيرة من الزمان، ثم غادر البلاد إلى العمل مدرسًا في الرياض، واستقدم أخويه، وبعض أقاربه، وظل هناك حتى الآن. حين علم أنني في الرياض سعى إليّ مشكورا، وكان قرب بيتي من بيته - هو في شارع الأعشى وأنا في الشارع الموازي له - حافزا على التلاقي باستمرار، وكان يتفضل بمصاحبتي بسيارته كل أسبوع إلى سوق عتيقة - وهو أشهر الأسواق وأقدمها وأكبرها في الرياض - لنشتري ما يلزمنا من خضروات وفاكهة ولحوم وأسماك وغيرها طوال أسبوع أو أسبوعين. وعند الوليمة قام الرجل - أكرمه الله، نيابة عني؛ لانشغالي ببعض الأمور - بشراء الخروفين والتعامل مع المطبخ. ثم ذهبت معه إلى السوق لشراء الفاكهة وبعض المستلزمات الأخرى.

تصورت أن شقتي يمكن أن تستوعب الضيوف، ولكني اكتشفت أن عدد المدعوين كبير، خاصة أن بعضهم مدعو مع أسرته، ففكرت في الذهاب إلى حديقة من الحدائق، واستقر الأمر أن يكون الغداء على سطح البيت وهو مساحة كبيرة تستوعب عددًا ضخمًا، على أن تبقى الشقة للأسر (السيدات والأطفال).

شرفني بالحضور عدد كبير من أصدقائي وزملائي وجيراني ومعارفي، وكانت مناسبة لطيفة مليئة بالمودة والعواطف الطيبة، والتمنيات بدرجة الأستاذية التي بدأت أعد لها بالفعل.

عطرت حياتنا:

ومع الترقية جاءت فاطمة الزهراء الابنة الوحيدة وسط إخوتها .. عطرت حياتنا بوجود أنثى إلى جوار أمها .. تصورت أن نجلي " محمود " آخر العنقود، ولكن بعد ثماني سنوات - وعلى غير توقع - جاءت فاطمة في خريف العمر. كنت أحلم أن تكون لي عمة، وكأن حضور فاطمة كان تحقيقًا لهذا الحلم من خلال إخوتها ليقول أبناؤهم لها: يا عمة، ولكنها أعادت لي أمي في هيئتها ونشاطها وحيويتها، واعتمادهاعلى النفس.

كتب صديقي الدكتور حسين علي محمد قصيدة تهنئة وترحيب بمقدمها، فنالت استحسانًا كبيرًا، جعل الصحف والمجلات في الرياض

تتنافس على نشرها. زاوج حسين بين فاطمة الوليدة وفاطمة زوجته التي تعيش في مصر بعيدا عنه، وصاحبة الاسم الأول فاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ، واستطاع بإحساس فني مرهف أن يقدم نصًّا جميلا حيًّا مؤثرًا. يقول في مطلعها:

أهـــــذي العـــــــصافير جـــــــاءت
تُغنِّـــــي بـــــشدوكِ يـــــا فاطِمَـــــهْ ؟
وهـــــذا غِنـــــاؤكِ يقـــــتحِمُ الـــــصَّمْتَ
يلمـــــسُ أحلامَنـــــا القادِمَـــــهْ

ويقول:

أطِلِّـــــي علـــــى ضِـــــفَّةِ الغَـــــيْمِ
هـــــاتي ظِـــــلالَ النَّخيـــــلِ .. عطـــــاءَ الـــــسَّعَفْ
وقـــولي لعمِّـــكِ: يـــا كـــمْ تعِبْـــتَ مـــنَ الـــسُّهْدِ
.. والمـــــشْيِ في المُنتـــــصَفْ ..

نوع من الاهتمام:

في ذلك الوقت أخذت السفارة المصرية في الرياض تحاول أن تظهر في صورة من يهتم بمواطنيها العاملين في الخارج، فوضعت برنامجا ثقافيًّا يعتمد على إلقاء محاضرة أسبوعية أو إقامة ندوة ثقافية، وجاء هذا البرنامج نوعًا من المنافسة بين السفير والملحق الثقافي أو التعليمي، فقد كان الملحق عميدًا لإحدى الكليات، ويبدو أن له سابق صلة بالعمل في التنظيمات الحكومية منذ العهد الاشتراكي، وإجادة العمل الاحتفالي، الذي يظهر صاحبه في صورة العامل المنتج المجتهد؛ ومن ثم كان اعتماده على الندوات والمحاضرات في الملحقية الثقافية المنفصلة عن السفارة التي تقع بعيدًا عنها، لتضعه في صورة الدبلوماسي النشيط، الذي يتواصل مع المصريين العاملين في الغربة، ويشاركهم الأفكار والآراء؛ مما يعني أن غيره خامل وبعيد عن هموم المصريين..

ومن ثم كان نهوض السفارة بالنشاط الثقافي – دون حضور الملحق الثقافي كما لا حظت – يمثل نوعًا من الإعلان عن الذات بطريقة (نحن

هنا)، وقد ركزت السفارة على دعوة أساتذة الجامعات، وكان عددهم كبيرًا، وبعض المدرسين. كان هناك دفتر في مدخل القاعة التي يلتقي فيها المدعوون ليسجل كل زائر اسمه وعمله وهاتفه، وكنت أظن المسألة روتينية بحتة، ولكني اكتشفت فيما بعد أن لها أهمية ما لدى القوم.

كنت حريصًا على حضور هذا البرنامج، كما كنت أحضر بعض أمسيات الملحقية الثقافية، وكان يصطحبني بعض الزملاء المواظبين على الحضور؛ بحكم أنهم يمتلكون سيارات. وفي الندوة كانت تجري مناقشات لا بأس بها، ولكنها لا تبلغ درجة المناقشات التي تجري في المجال العلمي الجامعي؛ فهي تتناول أمورا عامة في معظم الأحوال.

روح مرحة:

صديقي الراحل الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا (1943 - 1998م) أستاذ الفارسية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان ممن يشاركون في المناقشات، وكان يملك روحًا مرحة، تنبئ عن تسامح وأريحية وحب للمفاكهة والضحك. واستطاع - بعلمه الواسع وجهوده الغزيرة في الترجمة والتأليف - أن يكسب احترام الزملاء المصريين وغيرهم، ثم إنه كان صاحب مواقف جيدة من الاستبداد والتسلط، فأهمله النظام المصري ولم يمنحه بعض جوائزه، التي يرشها كالماء على التافهين من أنصاره وخدامه.

ذات ليلة كان موضوع المحاضرة التي ألقاها زميل مصري متخصص في علم الاجتماع يتناول ما يسمى بالتطرف الإسلامي. الزميل المذكور كان منتسبًا للحزب الوطني المنحل، الذي كان يرأسه آنئذ رئيس الدولة. وكان من بين من احتشد للمحاضرة عدد من الأشخاص رجالا ونساء، غنوا قبل المحاضرة بعض الأغنيات الوطنية؛ مما ينبئ عن انتمائهم للحزب والحكومة. كانت الحكومة المصرية تخوض قتالا بلا رحمة مع من تسميهم الجماعات الإسلامية، وتملأ السجون والمعتقلات بعشرات الآلاف دون محاكمات، أو تقدم بعضهم لمحاكمات صورية تحكم عليهم بأحكام قاسية.

جذور شركسية:

أدار المحاضرة الوزير المفوض بالسفارة أو السكرتير الأول، وينتسب إلى عائلة مشهورة، وكان وجهه وهيأته يشيران إلى جذور شركسية، أو نحوها.

كان السفير في هذه الليلة يرافق وزير الخارجية المصرية، الذي حضر إلى جدة ليشارك ضمن مؤتمر استثنائي لوزراء خارجية الدول الإسلامية، الذي انعقد من أجل أزمة البوسنة، وما يجري على أرضها من مذابح ومجازر، يقوم بها الصرب الأرثوذكس، في ظل تواطؤ صليبي ودولي، ومساعدات من قبل بعض قوات الأمم المتحدة المنتمية إلى دول أوربية. جرت العادة أن يقوم السفير بإدارة المحاضرة أو الندوة، أما وقد غاب، فصار من الطبيعي أن يحل مكانه الوزير المفوض، أو السكرتير الأول أقدم الشخصيات في السفارة.

ألقى المحاضر محاضرته التي لم تتكلم عن أسباب ما يسميه التطرف، وكيفية معالجته بعيدًا عن العنف الأمني والقبضة الحديدية للنظام. اكتفى الرجل بالحديث الإنشائي الهجائي الذي تردده الصحف وأجهزة الدعاية الحكومية. وهو ما ركزت عليه في تعقيبي على المحاضرة، وأربك المحاضر، الذي لم يقدم إجابة شافية على التعقيب. وحاول بعض أنصاره أن يغطوا على قصوره بكلامهم السطحي عن مصر وحبها، وما شابه من حديث لا يسمن ولا يغني، ولكنه يثبت ولاء القوم لجهات معينة في النظام.

لكنه أبى:

حاولت استفزاز الدكتور شتا ليشارك في المناقشة، ولكنه أبى، وراح زميل آخر كان يجلس على يساره يحاول معه، ولكنه استمر في صمته، وفجأة رأيته يطلب الكلمة عندما ردد المحاضر كلامًا معينًا. وتكلم الدكتور شتا بما لم يكن متوقعًا، حين أدان النظام، ووصف الشباب المعتقل بالوطنية والدفاع عن الحرية.

تكهرب الجو، وتغيّر لون الوزير المفوض بقدر ألوان قوس قزح، وراح فريق السفارة، ومعظمهم يقومون بمهام أمنية بصورة مباشرة وغير مباشرة، يحاولون احتواء الموقف، حتى انفضت المحاضرة، وعدنا معًا دون أن نتكلم!

علمت فيما بعد أن السفير عرف بما جرى وهو في جدة فور انتهاء المحاضرة. قطع مرافقته للوزير، وعاد إلى الرياض على أول طائرة. وألغى عمليًّا البرنامج؛ حيث حوله إلى محاضرات في فن الرسم وتعلمه؛ وأخرى صحية عن السكر وضغط الدم وأمراض الكبد وما شابه. والأهم هو عدم

توجيه الدعوة لأساتذة الجامعة الذين يسبّبون له حرجًا، وكان فريقنا في أول قائمة المستبعدين.

نظر بعضهم إلى بعض:

مضت الأمور ساكنة هادئة عقب المحاضرة المثيرة، وبعد حوالي شهر أو أكثر قليلا كنا في ندوة بالنادي الأدبي، ووجدت بعض زملاء الدكتور إبراهيم، فسألتهم عنه، فنظر بعضهم إلى بعض باستغراب، وقال أحدهم:

- ألم تعلم؟

أبديت دهشة، وقلت:

- لا أعلم .. ماذا جرى ؟

قالوا أو قال أحدهم بلسان الجمع:

- لقد رحّلوه !

أسقط في يدي، ولكنني عرفت التفاصيل..

قالوا إنه كان يجلس مع بعض زملائه في حديقة الكلية، واستدعاه موظف الجوازات بالكلية، وأخبره أنه يجب أن يغادر في خلال أربع وعشرين ساعة، وأنهم سيقومون بالحجز في الموعد الذي يراه ملائمًا في المدة الممنوحة له !

ترك الرجل وراءه منزله وكتبه وسيارته وارتباطاته بطلابه في الدراسات العليا، فضلا عن عدم إكمال عقده، وعاد إلى الوطن مهزومًا مقهورًا !!

تعددت التكهنات:

لم يبح الرجل بكلام لأية جهة إعلامية، وإن كان أعلن أنه سيرفع قضية ضد الجهة التي فسخت عقده ورحّلتْه دون أسباب .. تعددت التكهنات والأسباب حول سبب الترحيل المفاجئ والعاجل..

هناك من رأى أن بعضهم قد وشى به، متهما إياه بالعلاقة مع إيران، مع أن دراسات الرجل كلها تدور حول إيران وآدابها وعلمائها وشعرائها وحضارتها، ومعروف أنه يذهب ويسافر إلى إيران منذ شبابه بحكم تخصصه العلمي.

قال آخرون: هناك أسباب غير معلنة تتعلق بهذه الجهة أو تلك. ولكني رجحت أن ليلة السفارة كانت من وراء هذه المحنة التي عاناها الرجل، وأن

إعلانه لرأيه صراحة في الندوة الثقافية التي أقامتها السفارة، كانت من وراء ما جرى. وإلا فكيف لم يحدث للرجل ما حدث قبل ذلك، وقد قضى وقتًا ليس قصيرًا في عمله ؟

تأمين النظام:

تصوري أن القوم في السفارة لا يعنيهم أمر المصريين في الدولة التي يفترض أنهم يرعون شئونهم. شاغلهم الأول هو تأمين النظام في القاهرة قبل حماية المصريين في الخارج ورعاية مصالح الدولة، ولعلي أدركت ساعتئذ معنى وجود دفتر الزيارات في الندوة الثقافية التي ليست غير نوع من الترفيه الاجتماعي في بيئة مغلقة، حيث يتلاقى بعض المصريين، ويتحدثون عن أحوالهم ومشكلاتهم ومصالحهم المختلفة. الدفتر له أهمية في حصر المترددين، والتعرف عليهم؛ ليمكن التعامل معهم وتأديبهم عند الضرورة إذا تجاوزوا الحدود المفترضة، أعني انتقاد النظام المصري، مع أن صحف المعارضة المصرية تحفل بكلام فوق العادة ضد النظام ورموزه !

على أية حال، لم يعلم أحد السبب الحقيقي حتى اليوم، فقد اختار الله سبحانه إلى جواره الدكتور شتا، وطويت المسألة.

كتبت في الأهرام مقالا قصيرًا رثيته فيه، وبينت فضله وعلمه، وذهب الرجل إلى ربه ضحية تقصير بلاده في حمايته، إن لم تكن هي التي آذته دون ذنب حقيقي.

السفير السوداني:

يأتي في السياق المقارن، ما كان يفعله السفير السوداني على سبيل المثال، فلم يكن ينتظر أن يذهب إليه السودانيون في مقر السفارة، ولكنه كان يذهب إليهم بنفسه حيث يسكنون ويعيشون، ويجلس مع العمال قبل الأساتذة والمعلمين والمهندسين وغيرهم من التكنوقراط، ويأكل من طعامهم المتواضع .. لقد كان يخصص ليلة الجمعة كل أسبوع؛ ليكون ضيفًا على أحدهم، ويلتقي هناك عددًا كبيرًا ممن يسكنون في المنطقة من السودانيين، ويجلس السفير وسطهم بعمامته وجلبابه الشعبي، ويستمع إليهم، ويتكلم معهم ببساطة في كل الشئون دون إنشائيات فارغة، أو بناء على توجيهات السيد الرئيس والقيادة السياسية، ونحو ذلك مما يتقنه الدجالون المنافقون.

كان السفير السوداني يعرف معظم أهله في الرياض، وكثيرين ممن حولها ويتابع مشكلاتهم بنفسه، ولو كانت هامشية أو صغيرة، ولذا كان للسودانيين في الرياض منزلة ومكانة واستجابة سريعة لحل مشكلاتهم..

وجع الدماغ:

أما أبناء أم الدنيا، فالويل لهم من أنفسهم ومن سفارتهم .. كل منهم حريص على نفسه .. لا يعنيه غيره غالبًا، يريده أن يكون بعيدًا عنه بأية وسيلة. والسفارة تفعل الشيء نفسه .. تعمل على " زحلقة " الأمور بعيدًا عنها. لا تريد " وجع دماغ " .. اذهب إلى القنصلية مثلا من أجل التصديق على شهادة أو توكيل أو أية ورقة رسمية وانظر ماذا ترى ؟ .. زحام وسوء معاملة، وحرص على تحصيل الإتاوات الفادحة التي يسمونها رسوما، والسعيد من يجد شخصًا معرفة أو قريبًا، أو نحو ذلك، والأمر لا يختلف في المكتب التعليمي عن القنصلية .. سوء الاستقبال، والعجرفة، وتعقيد الأمور.

ذات يوم جاءت الأخبار أن شخصًا من أهل البلاد قتل فتاة مصرية في الثانوية العامة، رفض أهلها تزويجها له. عانى أهلها الأمرين، ولم يجدوا عونًا حقيقيًّا من السفارة أو أفرادها، وكان موقفا مخزيًا استنكره المصريون بلا استثناء، فقد قام متطوعون حرّكتهم الشهامة ليتابعوا الأمر، ويشحنوا الجثمان إلى مصر عن طريق التبرعات !

إرضاء أهل البلاد:

لا تسل عن السفير أو رجاله أو القنصلية وأعضائها؛ فهم مشغولون بإرضاء أهل البلاد، والتقرب إليهم، والمشاركة في مناسباتهم المختلفة، ولو كانت اختراق ضاحية؛ من أجل أن يساعدوهم في التمديد لهم سنة بعد سنة .. فالبحر يحب الزيادة، وخاصة من العملة الصعبة ..

ويل للمصريين من المصريين !

هذا ما كنت أردده وما زلت، ولكن أذكر بكل فخر أن هناك من المصريين رجالا ونساء يملكون الرجولة (غير الذكورة) والشهامة وكرم النفس. قد لا تكون لهم صفة رسمية أو إدارية، ولكنهم ينهضون من أجل الخير، وانتظار المثوبة من الله، فيساعدون إخوانهم المصريين بكل ما يملكون من جهد وهمة وعزيمة، ولا يعلنون عن ذواتهم إلا بقدر ما تقتضيه الضرورة .. ولكن يبقى

السفير السوداني صاحب سبق في كل الأحوال، ومثله سفراء الدنيا كلها إلا أم الدنيا.

ترى لو أن السلطة أغلقت السفارات المصرية، وأحالت مهامها إلى دول أخرى، أما كنا نوفر أموالا ضخمة ونجد اهتمامًا حقيقيًّا يليق بالمصريين ؟

لا أدري !

***

10 - عودة وتكريم

الوحدة في الغربة:

قبل نهاية الإعارة؛ بقيت في الرياض وحدي نحو عامين، وعاد الأولاد إلى مصر؛ بسبب النظام التعليمي في مصر، الذي قلص فترة التعليم الابتدائي إلى خمس سنوات بدلا من ست؛ مما جعلهم يعيشون حالة من الازدواجية، فقد كانوا يسيرون في الرياض وفق النظام القديم ست سنوات، ويمتحنون في السفارة المصرية وفقا للنظام المصري الجديد. وجودهم في مصر أنهى هذه الازدواجية، وإن كانت السلبيات قد أثرت فيهم بعد ذلك.

الوحدة في الغربة قاسية، وقد تغلبت عليها بالعمل والقراءة والكتابة، والمشاركة في النشاطات الثقافية خارج الكلية، ومثّل مهرجان الجنادرية فرصة جيدة لمقابلة العديد من الأدباء والمثقفين من شتى أرجاء العالم العربي، وبعض البلاد الأجنبية. هناك وجوه مألوفة تتكرر في كل السنوات، وهناك وجوه جديدة تضفي على المهرجان نوعًا من التجديد والحيوية.

الوجوه الجديدة:

من بين الوجوه الجديدة التي سعدت باللقاء معها الدكتور عبد السلام العجيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ .. ظللت أراسله نحو ثلاثين عامًا دون أن نلتقي، حتى جاء إلى الجنادرية، وكان الرجل سعيدا برؤيتي بعد سنوات طويلة من التعارف الثقافي قبل التعارف الشخصي. جلست معه والدكتور عبد العزيز الخويطر الوزير السابق بصالة فندق قصر الرياض وقتًا طويلا، وشرّق بنا الحديث وغرّب، وكان حديثًا ممتعًا وثريًّا ومفيدًا، وللأسف لم أسجل منه شيئًا.

أيضا رأيت الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل وفاته بيوم واحد وهو يتحدث في إحدى محاضرات المهرجان، ومنيت نفسي بلقائه في اليوم التالي والتحدث معه، وكان القوم هناك قد شنوا عليه حملة ضارية؛ بسبب كتاب له عن المرأة بين القرآن والحديث، وجاءت زيارته للمهرجان - فيما يبدو - نوعًا من المصالحة والتقدير لمكانته، خاصة بعد أن نهر الشيخ ابن باز مفتي

المملكة العام بعض الشباب الذين تطاولوا على الرجل وأساءوا إليه، وحدثهم عن قيمة الرجل وقامته العلمية.

في اليوم التالي للمحاضرة نقلت الأخبار نبأ رحيله إلى جوار ربه، وأحدثت الوفاة رد فعل صاعقاً، بدت علاماته في الحزن الذي عم المهرجان، وأصاب جميع رواده بالوجوم والأسى.

ورحت ألوم نفسي: لماذا أرجأت اللقاء ؟، ولماذا لم أبادر بالحديث إليه ؟ لقد كتبت عنه مقالة قصيرة على أمل أن أحرر كتابا يشمل حياته وفكره، ولكن الناشر الذي كان مقررا أن يصدر الكتاب أغضبني، فطويت الأوراق حتى يحين الوقت الملائم. وصدرت عنه بعد رحيله مجموعة من الكتب قلّلت من حماستي لتأليف الكتاب، وإن كنت قد اهتممت بمتابعة نشر خطبه المنبرية التي صدرت عن دار الاعتصام في عدة أجزاء، وقد جمعها بعض تلاميذه ومحبيه ممن كانوا يتابعونه في جامع عمرو بن العاص وغيره، وهي نماذج من الأدب الرفيع والفكر المضيء، ونموذج حي لاقتحام المشكلات الإسلامية المعاصرة بوعي وفهم ويقظة، وحس مرهف وإخلاص كريم.

أديب عصامي:

وكان من بين ضيوف المهرجان صديقي الدكتور علي شلش (1935 – 1993م). وهو أديب عصامي وصحفي جاد، عمل في مجلة الإذاعة والتلفزيون سنوات طويلة، وتولى إدارة مجلة الكاتب في عهد رئيس تحريرها صلاح عبد الصبور، وأتيح له أن يحصل على الدكتوراه .. عرفته منذ الستينيات في القرن الماضي، وكان يجمعنا الانتماء إلى محافظة واحدة، وكان والده قاضيًا في مركزنا السابق (شبراخيت). وقد تعرفت إلى بعض إخوته الذين أصابتهم حرفة الأدب.

ظل عزبًا حتى وقت متأخر، وفوجئت به يرحل إلى لندن أواخر السبعينيات من القرن الماضي، ويتزوج سيدة هولندية – فيما أتذكر – أنجب منها ابنتين، وكان يشارك في تقديم برامج بإذاعة لندن العربية، وسافر إلى أمريكا، وعمل بجامعة أيوا، وهناك تعرف على ناقد من أصل مصري اسمه إيهاب حسن، من المهتمين بموضوع الحداثة..

وحضرت له ندوة أقامها قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة الملك سعود (الرياض)، وقبل الندوة وبعدها تناولنا موضوعات عديدة،

وأحسست بثقل الغربة عليه، وقد أعجبته كلمة (الشحططة) التي ذكرتها في سياق حديثي عن الغربة، وردّدها كثيرًا، وقال لي: لقد تعبت من الشحططة يا فلان!

للأسف، بعد هذا اللقاء بشهور قليلة، قرأت نعيه، وعودة جثمانه إلى الوطن؛ ليوارى الثرى رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

محاضرات عامة:

دعيت لإلقاء محاضرة في بريدة. كانت الدعوة من نادي القصيم الأدبي، وجاءت بمناسبة رحيل نجيب الكيلاني، ودارت حول أدبه ورواياته، وشاركني في المحاضرة الدكتور عبد الله العريني، وقدّمنا الدكتور حسن فهد الهويمل رئيس النادي، وطرح الجمهور أسئلة عديدة أثرت المحاضرة وأغنتها.

كما استضافني نادي تبوك الأدبي؛ لإلقاء محاضرة حول الأدب الإسلامي، واستقبلني الدكتور موسى العبيدان، الذي قدمني تقديمًا طيبًا للجمهور، وقدم للمحاضرة الأستاذ عويض العطوي – صار الآن دكتورًا وأستاذًا.

ودعاني نادي جازان الأدبي لإلقاء محاضرة عن التنوير، ورأيت المدينة التي غادرتها قبل خمسة عشر عامًا تقريبًا. حضر الندوة جمع غفير من الجمهور، وتكلم في بداية المحاضرة صديقي الشاعر أحمد يحيى بهكلي، وقدمني إلى الجمهور الدكتور حسن حجاب الحازمي، وكان هناك عدد كبير من الزملاء المصريين الذين يعملون في كلية المعلمين بجازان، وبعد المحاضرة التقيت بهم وبمجموعة كبيرة من الأدباء والشعراء، وتذاكرنا جازان أيام الشاعر الراحل محمد بن علي السنوسي.

أكثر بهجة:

لم تكن جازان التي عرفتها من قبل .. كانت شكلا آخر أكثر بهجة ولمعانًا. تطور المطار واتسع، وازدادت إمكاناته وخدماته، وصار الطريق بين المطار والمدينة - الذي كان عبارة عن أرض مالحة تفوح منها رائحة البحر - شارعًا واسعًا مشجرًا، على جانبيه حدائق صغيرة، تحيط بفيلات عديدة منتظمة، والمدينة نفسها تحولت إلى نمط آخر فيه علامات التحديث والتطوير.

نزلت في فندق أربع نجوم، يسكنه نزلاء من جنسيات شتى، وغرفه أنيقة ملونة، مزودة بالهواتف وأجهزة التلفزة والإذاعة والحمامات النظيفة، والسلالم رخامية لامعة، والخدمة فيه على مستوى عال. وإلى جانب هذا الفندق توجد فنادق أخرى متعددة المستويات. تذكرت الفندق الوحيد البائس الذي نزلنا فيه قبل خمسة عشر عامًا، وكانت الإقامة فيه نوعًا من العذاب والمهانة والحرج، فضلا عن افتقاده لأبسط الخدمات.

خصص لي النادي سيارة في صباح اليوم التالي لأتجول في أرجاء جازان ومدنها، ولكن الإرهاق في الليلة السابقة وما قبلها؛ بسبب السفر وقلة النوم - جعلني أكتفي بجولة قصيرة في المدينة نفسها، فرأيت الحدائق الجميلة والشاطئ الممتد، والشوارع الفسيحة والمحلات الفخمة والمعارض التجارية الكبيرة، والسيارات الحديثة التي حلت مكان الدراجات البخارية في النقل الداخلي، فضلا عن المدارس المتنوعة والكليات التي أنشئت حديثًا، والمستشفى العام الذي تحول إلى مستشفى جامعي وتمت توسعته.

وليمة كبيرة:

كنت أتوق إلى زيارة أحد المسارحة وزيارة زملائي القدامى، ولكني لم أستطع، فعدت إلى الفندق، لأجد صديقي أحمد بهكلي يحملني إلى بيته، وقد حشد جمعًا من كرام الأسرة والكلية وغيرهم حول وليمة فخمة على شرفي، فطوقني بفضل من أفضاله الكثيرة، ودار الحديث حول شئون علمية وثقافية عديدة، قطعها موعد الطائرة الذي حان في المساء، فعدت إلى الرياض سعيدًا بلقاء أصدقاء أعزاء وزملاء فضلاء.

عرفت في سنوات الإعارة أول جراحة أجريت لي، ويبدو أن جسدي - وكنت قد شارفت الخمسين - بدأ يتراجع في قوة تحمله ومقاومته للأمراض المزمنة والمشكلات القديمة، فقد كان عام 1993م، فاتحة المتاعب الصحية والجراحات التي توالت على فترات غير قصيرة، انتهت بي ساعة كتابة هذه السطور إلى التزام البيت وعدم الخروج منه إلا لضروة قوية.

بيد أنني استطعت أن أضع قدمي في بلاد أخرى غير مصر والسعودية.

رحلة غير مألوفة:

أتيح لي أن أزور بنجلاديش عام 1993، وهي رحلة من الرحلات غير المألوفة أو غير المعتادة في عالمنا العربي. فقد عرفت أن هناك مؤتمرًا أدبيًّا سيعقد في الجامعة الإسلامية، بالمدينة الثانية في بنجلاديش بعد العاصمة دكا، وهي مدينة شيتاجونج، وتطل على المحيط البنغالي، وتشبه الإسكندرية؛ لكونها الميناء الرئيس أو الوحيد الذي يشهد عمليات التصدير والاستيراد.

سألت عمن سيحضرون المؤتمر من العرب، فعرفت أن أحدًا لن يحضر. سألت نفسي: ولم لا أخوض هذه التجربة ؟ شجعتني رابطة الأدب الإسلامي على حضور المؤتمر، واستعنت بالله وكتبت البحث وحجزت على الطائرة. والمفارقة أن بعض الجنود الذين يقلبون الجوازات عند صالة دخول الطائرات في الرياض كانوا يتساءلون في استنكار: بنجلاديش ؟ ليش بنجلاديش ؟ الاستنكار ينصب على أن عربيًّا يذهب إلى بلد لا يذهب إليه العرب. صحيح أن هناك آلاف البنغال يعملون في المملكة ويسافرون ويعودون، ولكن الجنود لم يشاهدوا عربيًّا يذهب إلى هناك إلا نادرًا، وهو ما أثار استغرابهم وعجبهم.

مشكلة اللغة:

في دكا كنت العربي الوحيد .. لم يكن ينتظرني أحد .. كانت معي أرقام هواتف، ولكن مشكلة اللغة كانت حائلا بيني وبينهم. حاولت أتكلم بالإنجليزية حتى فهم بعضهم أني ضيف على شيتاجونج، فجاءوا ينقلونني إلى داخل دكا. وقضيت ليلة عندهم، وفي الصباح سافرت على طائرة داخلية نقلتني إلى شيتاجونج؛ حيث كان هناك من يستقبلني ويرفع لافتة عليها اسمي.

في المؤتمر رأيت زملاء من بنجلاديش وباكستان وماليزيا وإندونيسيا والهند، وعرفت كثيرًا عن آدابهم وشعرائهم، وأحسست بمكانة العرب لديهم وتقديرهم للأدب العربي وأدبائهم، وكان طلاب الجامعة الإسلامية يخصونني باهتمامهم، ويقولون لي: نحن نحب العرب؛ لأن القرآن الكريم عربي، والنبي ﷺ عربي، ولغة أهل الجنة هي العربية .. وكثيرا ما طلبوا

مني تزكيات ليدرسوا في جامعة الأزهر، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكتبت عشرات التزكيات.

الأسرة الندوية:

كان يرافقني الشيخ نور الحق، الذي كنت أعرفه ونحن في الرياض، يترجم لي ويساعدني في الحصول على بعض الأغراض الشخصية من السوق ونحو ذلك، وأذكر أنه ساعدني في تفصيل حلتين أو بدلتين بأحد المحلات الشهيرة هناك، وكانت البلاد آنئذ تتعرض لإضراب عمالي عام، وعن طريق أحد تلامذته الذين درسوا فن التفصيل في إيطاليا أنجز البدلتين في أقل من يومين مع عمال آخرين والمحل مغلق عليهم.

في المؤتمر التقيت بالشيخ أبي الحسن الندوي، وعدد كبير من الأسرة الندوية، وقد أصر الشيخ ومن معه على السكنى مع طلاب الجامعة في مساكنهم المتواضعة، بينما أنزلوني أحد الفنادق الفخمة.

بعد العودة كتبت عن الرحلة، وكان لها صدى طيب لدى عديد من الزملاء الذين اشتاقوا لمعرفة بنجلاديش وما يدور فيها.

إستانبول والفوضى:

في الصيف من عام 1994، وبعد الجراحة التي أجراها لي صديقي الراحل الدكتور عبد الحميد حمد رَحِمَهُ اللَّهُ في مدينة دسوق، ذهبت إلى إستانبول في تركيا لحضور مؤتمر الأدب الإسلامي. كان المؤتمر يضم عددًا كبيرًا من الأدباء من أنحاء العالم الإسلامي. وحضر المؤتمر من مصر - فيما أذكر - الدكاترة جابر قميحة وصابر عبد الدايم وغريب جمعة وعبد المنعم يونس، وشارك في أعمال المؤتمر الأديب الراحل محمد قطب - شقيق سيد قطب - وكان فيما يبدو يقضي الصيف هناك.

إستانبول في ذلك الحين كانت نموذجًا لما يمكن تسميته الفوضى الحضارية .. ومشكلاتها تمتد من القذارة إلى انتشار المخدرات والدعارة والسرقة والرشوة. لم يكن الإسلاميون قد بدءوا بعدُ إنجازاتهم الكبيرة، التي حولت إستانبول بعد عقد من الزمان حين زرتها ثانية إلى قطعة متلألئة بالنظافة والخضرة والتنظيم والتنسيق والسكينة والهدوء، مع ازدحامها بالسكان والسيارات.

كتبت عن الرحلة وجوانبها المختلفة موضوعًا مطولا، نشرته في مجلة " وجهات نظر " قبل احتجابها، كما كتبت عنها موضوعًا آخر في إحدى الصحف الأسبوعية التي لم تعمر طويلا.

كتب ومجلات:

في العام الأخير من الإعارة تجمع لدي عدد كبير من الكتب والمجلات المتنوعة، بعضه صحبته معي من مصر؛ لكتابة بعض البحوث والدراسات، وبعض آخر اشتريته من المكتبات والمعارض، أو تلقيته في صورة هدايا من المؤلفين أو دور النشر أو جهات ثقافية مختلفة. وشغلني أمر هذه الكتب والمجلات؛ فقد كنت حريصًا عليها، وعلى وصولها إلى مصر..

جمعت المجلات، ورحت أراجعها، وأقص منها ما أحتاجه من موضوعات، وأدون عليها بيانات المجلة وتاريخها ومكانها، فصار لدي عدد كبير من المظاريف التي تمتلئ بالقصاصات، أما المجلات فقد وزّعتها على الأصدقاء والمعارف.

وشاء الله أن يشجعني زميل على شراء سيارة جديدة، فقلت إنها فرصة ذهبية لأملأها بالكتب، وأشحنها عن طريق إحدى الشركات إلى السويس، ويتسلمها من هناك بعض أقاربي .. وخطر لي أن أشتري سيارة روسية ماركة لادا مربعة، وهي من النوع القوي، الذي يصلح في السفر إلى المزرعة التي اشتريتها قبل عامين، وتقع في منطقة البستان – ناحية الدلنجات.

قرية البضائع:

فرحت بالسيارة؛ لأنها استوعبت عددًا كبيرًا من الكتب، وبقي جزء لا يستهان به، وييسر الله فرصة شحنه أيضًا في سيارة ميكروباص، يعمل صاحبها في الرياض، وعند سفره في الإجازة يحمل في سيارته الأمتعة التي يريد أصحابها توصيلها إلى مصر، فحمل الرجل بعض الأدوات المنزلية الخاصة بي، ومعها الكتب المتبقية، وأوصلها إلى البيت، وهو ما أسعدني، فقد كان البديل هو الشحن بالطائرة، والذهاب إلى قرية البضائع بالمطار، وما أدراك ما قرية البضائع ؟ إنها قطعة من العذاب تجعل صاحب المتاع يريد أن يقذف به إلى البحر؛ بسبب ما يحدث هناك من فوضى ومتاعب وشيالين ومستخلصين ومفتشين ورجال جمارك ورقابة وحل الأمتعة وربطها، ويا ويله من كان ضعيف البنية ولا يحمل " فكة " عشرات وعشرينات وخمسينات؛

ليسد بها أفواه الطامعين والفضوليين، وكل يد تمتد من أجل أدنى عمل .. لقد عانيت في السابق عناء كبيرا في القرية التي لم يستطع التطوير أن يغيّر في إجراءاتها شيئًا كثيرًا.

من الباب إلى الباب:

كانت فرحتي بصاحب الميكروباص الذي يوصل أشيائي إلى البيت عظيمة للغاية، وقد تأسست فيما بعد شركات للشحن نصفها في المملكة والآخر في مصر، تتولى شحن الأمتعة والأدوات المختلفة من الباب إلى الباب كما يقولون، وعن طريق هذه الشركات تأتيني الآن طرود الكتب التي ترسل إليّ من الناشرين. وهو أمر مريح – بلا شك – فالعاملون في هذه الشركات تعوّدوا على الإجراءات ودفع الجمارك وتخليص الأمتعة بطريقة روتينية، ثم تقوم سياراتهم بتسليمها لأصحابها في بيوتهم.

لا تغيير ولا تحسن:

عدت إلى الوطن بعد سنوات الذروة العمرية إن صح التعبير .. وجدت القسم في الكلية كما هو .. لا تغيير ولا تحسن، مشكلات كل عام عند توزيع الجدول، الصراع على الساعات والإشراف، مشكلات طلاب الدراسات العليا مع بعض الأساتذة .. ومع أن الكلية تغيرت قياداتها أكثر من مرة كل بضعة أعوام، فالأمور ليست على ما يرام، وهو ما أشعرني بمزيد من الغربة .. غربة الخارج تبدو مقنّنة، أما هذه الغربة الداخلية فلا قانون لها .. لكي تعيش أو تتعايش يجب أن تتحلى بمواصفات خاصة لا علاقة لها بأستاذ الجامعة ولا تقاليدها العريقة.

زميل طيب سأل ذات مرة أحد المسئولين في الكلية عن وضع بعض المكافآت نظير ساعات لم يبذلها من الحلال أو الحرام. فرد عليه ردًّا ساخرًا لائمًا. سألني الزميل ماذا يفعل ؟ ضحكت وقلت له لا تتسلمها، أو خذها وتصدق بها. بيد أن دلالة رد المسئول على زميلي الطيب لم يفارق أذني؛ لأنه يفسر كثيرا من المعالم التي تعيشها الجامعة حين تتخلى عن العلم وتتجه إلى العائد المادي. وفي سبيل ذلك تكون الخطوات محسوبة، كل شيء له مقابل، وتكون مقبولا إذا التزمت بالتزامات معينة واندمجت في سياقات محددة .. إذا خالفت أو تمردت، فتوقع كل شيء !

الهاتف يدق:

في هذه الأثناء كنت أتابع الكتابة في الصحف المعارضة، وأحيانا يظهر مقال قصير لي في صفحة الأدب أو صفحة الرأي في الأهرام. ولكن مقالاتي في جريدة الشعب على عهد الراحل عادل حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثم ابن شقيقه مجدي أحمد حسين، كانت هي الأكثر انتظامًا، وقد ركزت على موضوع التعليم وانهياره، ولم أكن أدري أن لهذه المقالات صدى يجعلها تتحول إلى موضوع للبحث والمعالجة، ولكني فوجئت صباح يوم بالهاتف يدق في منزلي بالقرية حيث أقيم. مكتب العميد يطلب مني سرعة التوجه إلى رئيس الجامعة لأمر مهم .. حاولت الاستفسار عن الموضوع فلم أجد إجابة.

الوزير المختص:

رحت أرتدي ملابسي، وأستعد للسفر إلى طنطا، ولكني وجدت اتصالا هاتفيًّا آخر من مكتب رئيس الجامعة، يطلب مني أن أتوجه إلى القاهرة مباشرة، لأقابل الوزير المختص .. تساءلت: لماذا ؟ فلم أجد إجابة .. قلت لمن اتصل إن المسافة بيني وبين القاهرة تستغرق نحو أربع ساعات، وقد أصل بعد خروج الوزير من مكتبه، فطلبوا مني الانتظار حتى يستفسروا. وبعد قليل جاء اتصال يخبرني أن معاليه ينتظرني ولن يغادر مكتبه حتى أصل !

لا أنكر أن الوساوس أخذت تعمل، ولأنني لا علاقة لي بمشكلات أو أمور قد تكون سببًا في استدعائي بهذه الطريقة المباغتة؛ فقد راح ذهني يشرّق ويغرّب وينقّب في الاحتمالات الممكنة لهذا الاستدعاء !

ما أتعس المصري حين يقع أسيرًا لإدارة لا تعرف غير الأمر والنهي، ولا تلقي بالا لكرامة الإنسان ولو كان أستاذًا جامعيًّا !

صليت الظهر:

قدتُ سيارتي فوصلت القاهرة بعد صلاة الظهر، عرجت على مكان أعرفه لأترك السيارة هناك وأصلي الظهر، وأخطر أهل المكان بالمهمة التي سأقوم بها، فمن يدري ماذا سيجري ؟

صليت الظهر وغادرت المكان على قدميّ إلى شارع الفلكي الذي تقع فيه الوزارة ومكتب الوزير، وكان قريبًا .. حين وصلت إلى المبنى وجدت رجال الأمن لديهم خبر باستدعائي. كانت أجهزتهم اللاسلكية تعمل وتخاطب

آخرين، لم يكن الهاتف المحمول أو الجوّال قد ظهر بعد. عرف الناس في السنوات القليلة السابقة شيئًا اسمه البيجر، وكان أكثر من يستخدمه الأطباء حيث تطلب رقم البيجر فيظهر عليه رقمك. وحينئذ يرد عليك عندما يفرغ من هاتفه المنزلي أو هاتف العمل.

أوصلوني إلى مدير مكتب الوزير الذي استقبلني باهتمام، وطلب الليمون، وأخبرني أن معاليه سيستقبلني فور خروج الزائر الذي لديه.

المكتب مستطيل وجدرانه عالية، ويغص بالزائرين الذين ينتظرون مقابلة معاليه. منهم أساتذة جامعيون وخبراء تربويون وأجانب وغيرهم، وكلهم ينتظر منذ زمان، وبعضهم على معرفة بالمدير، ويستحثه على سرعة إتمام المقابلة أو تقديمه على الآخرين لأسباب خاصة به.

تعنيف وتقريع:

بعد ربع ساعة تقريبا اصطحبني مدير المكتب، وفتح الباب لأدخل، وأسمع من معاليه حيث يجلس على بعد أمتار تعنيفًا وتقريعًا على ما أكتبه حول التعليم، ويقول لي: يا أخي ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف:85].

فأكملت تلقائيا: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء:١٨٣].

وراح يتساءل باستنكار: هل لديك استبانة كي تثبت ما تكتبه ؟ (ذكر لفظة استبيان، وهي خطأ، والصواب استبانة).

كنت أتقدم في هدوء إلى المكتب، وألقيت عليه السلام، فلم يرد، فقلت له: نعم لدي استبانات وليس استبانة واحدة ؟

فسأل باهتمام وكأنه لا يصدق: أين هي ؟

قلت له: أوراق الإجابة لطلاب الليسانس في قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة طنطا !

وسوف أهنئك لو استطعت قراءة نصفها بل ربعها على الأقل دون أن تجد أخطاء إملائية فادحة، فضلا عن أخطاء النحو والصرف، والكتابة السليمة التي تجعلك تميز بين الحروف والكلمات.

هدأ الحوار:

باغتته الإجابة، وراح يناقش وضع الوزارة وإمكاناتها وميزانيتها. هدأ الحوار حينما ذكّرته بالفارق بين تعليمه هو أيام كان طالبًا وتعليم أبنائه في الأجيال الراهنة ..

وتطرق الكلام إلى قضية التربية الدينية التي أثرتها في مقالاتي، وأقسم أن المكتب الذي يقوم في ركن القاعة – وأشار إليه – شهد جلسة للمشايخ محمد الغزالي وعبد الصبور مرزوق ومحمد سيد طنطاوي، وفحصوا كتب التربية الدينية، ووجدوها صالحة وطيبة.

قلت له: إني أتكلم عن كونها لا تضاف للمجموع، فلا يهتم بها الطلاب، بل لا يذاكرونها أصلا لأنهم يعلمون أنهم ناجحون فيها بحكم الواقع، ويكبرون ولا يعرفون شيئا عن دينهم.

فأجاب إجابة فهمت منها أن القرار في هذه المسألة ليس بيده !

الوقت الحساس:

استغرق اللقاء قرابة ساعة وثلث الساعة، والمعتاد أن تكون المقابلة عشر دقائق أو ربع ساعة على الأكثر؛ لكثرة المنتظرين في المكتب من أجل مقابلته، ولكن الرجل بقي معي هذا الوقت الطويل ليقنعني أن أتوقف عن الكتابة، وخاصة في هذا الوقت الحساس بالنسبة له؛ فهناك كلام عن تعديل وزاري قريب، وتشير الأنباء إلى أنه سيخرج فيه، وبالطبع فإن ما أكتبه سيعزز هذا الأمر.

طلب معاليه مستشاره الإعلامي، وأهداني بعض مطبوعات الوزارة، التي تتضمن ما يسمى بالإنجازات، ومنها اجتماع معاليه مع المديرين في الأقاليم عن طريق ما يسمى بالكونفرانس .. وزودني المستشار بهواتفه لأطلبه في أي وقت.

خرجت وعلامات الدهشة والتساؤل بادية على وجوه الموظفين، وسرت في طريقي لأستقل سيارتي وأعود إلى القرية، وحمدت الله أني لم أخبر أحدًا من الأسرة عن الموضوع قبل سفري إلى القاهرة، واكتفيت بإخبار من تركت السيارة عندهم قبيل المقابلة ليكونوا على اتصال عند الضرورة.

يعرف كل شيء:

في اليوم التالي، ما إن دخلت الكلية حتى قيل لي: إن رئيس الجامعة يطلبك .. ذهبت إلى الجامعة فقام مدير المكتب بإدخالي على الفور .. فوجئت بوجود عميد الكلية .. لم يخبرني بأي شيء بالأمس حين أردت أن أعرف لماذا يطلبني الوزير، بينما كان يعرف كل شيء!

أراد رئيس الجامعة أن يمارس سلطة الموظف الأعلى على الموظف الأدنى، وسألني: ماذا فعلت لدى الوزير؟

قلت له: ألم يخبرك بما جرى؟

رد قائلا: أخبرني.

قلت له: إذا لن أضيف شيئا لا تعرفه!

تحدث الرجل معي بطريقة: من أذن لك أن تكتب أو تتناول أمورا ليست مباحة لك في الصحف؟

أفهمته أنني أكتب في الصحف وأؤلف كتبًا قبل أن أعيّن في الجامعة، وأنني عضو مؤسس في اتحاد الكتاب، وهو مؤسسة نقابية مصرية صدر بها قرار جمهوري في عام 1975م.

هنا تدخل العميد ليهدئ الأمور، وليقول لي: إن ما يكتب يحسب على الجامعة، ويؤخذ على أن جامعة طنطا ضد الوزير!

قلت له: إني لا أتحدث باسم أحد، ولست محسوبًا على أحد.

تجربة الاستدعاء:

فهمت أن القوم يخافون على مناصبهم، ويتحركون بمنطق من يريد أن يجنب نفسه وجع الدماغ، لا يعنيهم أمر التعليم ولا مشكلاته الحقيقية، ومع أن رئيس الجامعة بدا رجلا طيبًا، فإن تجربة الاستدعاء ومحاولات التخويف، والتهديد المبطن، أفقدتني الأمل في إصلاح التعليم في ظل النظام القائم، الذي يعتمد على البهرجة والمهرجانات التي يسميها مؤتمرات أو لجانًا لا تسفر إلا عن تصورات إنشائية، لا تراعي الواقع، ولا تنطلق من ظروف المجتمع وطبيعته وثقافته.

امتلأت نفسي من تصرفات غير طبيعية حولي في الكلية والجامعة والمجتمع، وصارت القيم الاجتماعية في حالة سيولة شديدة، وأضحى من

يتمسك بالأخلاق والتقاليد الجامعية متخلفًا، وجامدًا، وبعيدًا عن فهم الواقع الجديد، ولغته الرجراجة الغائمة السائلة.

بوادر الإجهاد:

شعرت بأن الخط البياني لظروفي الصحية آخذ في الانحناء، وبدأت بوادر الإجهاد تبدو واضحة عقب بذل أي نشاط عادي، وصار للأطباء نصيب كبير من وقتي، وأضحت الأدوية جزءًا من البرنامج اليومي لما يدخل إلى جوفي، ورحت أقلل من أنشطتي اليومية إلى حد ما.

آلمتني المرارة، وأخذت تضغط عليّ في ليال عديدة بآلام مبرحة .. نصحني أحدهم بزيارة طبيب معين لدية جهاز سونار (شاشة تلفزيونية تكشف أحشاء البطن)، وكان ذلك في حينه شيئًا جديدًا نسبيًّا في مصر. أخبرني الطبيب - وكان مدرسًا مساعدًا في الجامعة - بأن هناك ثلاث حصوات مدببة في المرارة، هي التي تصنع الآلام القاسية التي تباغتني من حين لآخر، وراح يحدثني عن أطوالها ومساحاتها، وأخبرني أنه لابد من استئصالها.

رحت أبحث عن حل بعيدًا عن الاستئصال، فأخبرني الأطباء بعدم وجود هذا الحل، واستشرت صديقي الدكتور عبد السلام العجيلي، والدكتور أحمد علي الجارم، وكان رئيس قسم الباطنة في كلية طب قصر العيني أيامها في الأمر، وكان هناك اتفاق على ضرورة إجراء الجراحة.

اتفقت مع زميل من أساتذة كلية الطب بطنطا على إجراء الجراحة، وتمت في مستشفى رمضان التخصصي، ونجحت بفضل الله، وإن كانت آثار الاستئصال، تبدو واضحة في عسر عملية الهضم، التي لا تسير وفقا للمعدل الطبيعي، حيث كانت العصارة التي تفرزها المرارة تساعد على الهضم والحركة الطبيعية للأمعاء.

التقدم للأستاذية:

لم ألتفت إلى ما يجريٍ من مشكلات في القسم، مع أن بعضهم حاول أن يجرني إليها ويجعلني طرفًا فيها، وركزت على التقدم للترقية إلى درجة الأستاذية.

لاحظت أن معركة عدم ترقية الابن المدلل قبل سنوات، فعلت فعلها لدى القوم الذين يملكون مقاليد المسئولية والقرار في التعليم الجامعي، فقد غيّروا قواعد الترقيات وبدّلوا فيها أكثر من مرة لتصفية الجامعة ممن

يرونهم مناوئين لهم أو للنظام بصفة عامة، ومن هذه القواعد - على سبيل المثال - أن من يعمل بالخارج من الأساتذة في صورة إعارة أو غيرها لا يحق له التقدم للترقية، أي يتأخر تقدمه للترقية زمنيا بقدر السنوات التي قضاها في الخارج. ثم إنهم ضمّنوا الأبحاث التي يتقدم بها طالب الترقية بحثًا تقترحه اللجنة ويتقدم به في خلال شهر أو نحوه، وتناقشه - وجها لوجه - اللجنة مجتمعة بعددها الذي يتجاوز خمسة عشر عضوًا.

كان طلاب الترقية يحضرون حيث تجتمع اللجنة في مبنى قسم الجغرافيا التابع لجامعة القاهرة. اللجنة تجلس في الدور العلوي، وطلاب الترقية يجلسون في الدور الأرضي على دكة طويلة قبالة قسم اللغات الشرقية، وعندما يُطلب أحدهم للمناقشة أمام اللجنة ينزل أحد العمال ويذكر اسم المطلوب، فيصعد سلمًا رخاميًّا مرتفعًا حتى يصل إلى قاعة اللجنة، فالمبنى عريق فسيح وجدرانه عالية، وغرفه واسعة وطلاؤه قديم قاتم.

الدكاترة الطلبة:

ومن المفارقات أن أحد العمال في المبنى كان يشير إلى طلاب الترقية ويسميهم بالدكاترة الطلبة ! وذلك حين يسأله بعضهم عن مكان في المبنى، فيحدده بالنسبة إلى مكانهم، أو يشير إليهم جالسين على الدكة.

في أول مرة تم تأجيل المناقشة الخاصة بي إلى الجلسة التالية، أي مدة شهر أو أكثر لسبب لا أتذكره، وفي المرة التالية عرضت ملخص البحث على اللجنة، وبدأ الأعضاء يناقشونني، بعضهم كان موضوعيًّا في تساؤلاته، وبعضهم حاول أن يسخر مني لسبب لا أعلمه، ولعله السبب الأيديولوجي، وبعضهم حاول استفزازي، قائلا: هذا شغل .. وذكر كلمة سوقية، شعرت عندها بالمهانة !

ويبدو أن صاحبنا تصوّر أن من يأتي إلى اللجنة من طلاب الترقية لابد أن يتنازل عن كرامته، ويلقي بها جانبًا وراء الباب قبل الدخول على الأعضاء.

لم أنتبه إلى نفسي وأنا أدق المائدة بقبضتي، وأقول بصوت مجلجل: لا ! لا ! هذا لا يجوز .. هذا لا يصح !

وجوه مكفهرّة:

تكهرب الجوّ، وراح رئيس الجلسة يحاول تهدئتي، وسمعت أصواتًا تطلب مني أن أسكت أو تشارك التهدئة، وبعد فترة طلب رئيس الجلسة أن أرد على الملاحظات وأفهمني أن أمامي خمس دقائق لأجيب على ما وجه إلى بحثي من انتقادات .. تمالكت أعصابي، وأجبت على معظم الملاحظات .. ولم يمهلني رئيس الجلسة لأكمل، وقال لي: كفى، ودعاني للانصراف والانتظار في الدور الأرضي.

بعد فترة أخذ الأعضاء يهبطون السلم العالي، رأيت وجوهًا مكفهرة لا تنطق، ونزل العضو الذي استفزني ونادى عليّ، ودخل بي إلى قسم اللغات الشرقية، ووجدته يقبّلني ويقول لي: مبروك ! ثم يردف ضاحكا: ماذا ستذبح لنا .. خروفًا أم عجلا ؟ ووجدته يطلب مني أن أكون أخًا له وصديقًا، وألا أكون غاضبًا منه.

تجاوبت مع الرجل وشكرته، وبعد انصرافه صعدت إلى أعلى حيث بقي رئيس اللجنة وبعض الأعضاء .. حيّيتهم، وقدموا لي التهاني، وطلب مني رئيس اللجنة أن أحضر بعد أيام أو أرسل من يتسلم قرار اللجنة عقب صياغته والتوقيع عليه في خطاب رسمي.

طعم الإهانة:

عرفت فيما بعد أن اللجنة أجرت – لأول مرة – تصويتًا على ترقية، وهي ترقيتي وكانت الأغلبية لصالحي، وكانت العادة أن من يناقش البحث المرجعي – وهو اسم البحث الذي تقترحه اللجنة – تتقرر ترقيته تلقائيًّا. ولكن ما جرى في أثناء المناقشة، جعل بعضهم يحنق عليّ ويطلب التصويت !

تخيلت لو أنني قبلتُ الإهانة وسكتُّ؛ كيف أكون متسقًا مع نفسي ؟ هل سيكون للترقية طعم ؟ أو سيكون طعم الإهانة هو الذي يطارني في عملي وبيتي ومجتمعي ؟

لم أندم على ما جرى، بل كنت راضيًا عنه، فالكرامة قبل الترقية، والكرامة قبل الدرجة، والكرامة قبل الحصول على أي مغنم دنيوي !

لقد حمدت الله على اجتياز هذه المرحلة التي يعدها البعض نهاية المطاف، وعددتها بداية مرحلة جديدة من القراءة والكتابة بغير حدود.

لا مفر:

كانت الترقية سببًا لأتولى رئاسة القسم .. لم يكن هناك في القسم أستاذ عامل غيري بعد بلوغ رئيسه سن المعاش، وتحويله أستاذًا متفرغًا. ولم تكن لدي رغبة في رئاسة أو إدارة، فإني أنفر منها ومن تداعياتها، فضلا عن أن جديتي في العمل ستغضب كثيرين وتؤلبهم ضدي، ثم إنني محتاج للوقت كي أقرأ وأكتب مما أعده حياتي الحقيقية .. ولم يكن هناك مفر من قبول المنصب الذي رصدت له اللائحة المالية أربعة جنيهات كاملة تحت مسمى البدل.

أقام الزملاء حفلا كبيرًا لوداع الرئيس السابق والترحيب بالرئيس الجديد. حضر الحفل عميد الكلية والوكلاء وعدد من الزملاء في الأقسام الأخرى، وقلت في نفسي: لعلها بداية طيبة؛ ليكون هناك عهد جديد.

الاجتماع الأول:

في أول اجتماع للقسم طرحت طريقة العمل، ورأيت أن أبدأ بمشكلتين قديمتين، تمثلان قلقًا أو نزاعًا مستمرًّا لا يتوقف، وهما مشكلة الجدول الدراسي، والإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه.

بالنسبة للمشكلة الأولى رأيت أن يقوم كل عضو بتسجيل خمس مواد يرغب في تدريسها، على أن تتحقق الرغبة الأولى ثم الثانية وهكذا .. في إطار الساعات المتاحة لكل عضو، مع إتاحة الفرصة للتبادل بالتراضي بين من يرغب في التعديل. وقلت لهم: إن رئيس القسم سيكون آخر من يبحث عن تحقيق رغباته، وسيدرس ما ترفضونه. والحمد لله نجحت الفكرة، وتم توزيع الجدول لأول مرة دون جلسات طويلة، ودون غضب أو صخب، أو تأجيل جلسة التوزيع أكثر من مرة.

مقولات سيئة:

أما المشكلة الأخرى - وهي المتعلقة بالإشراف العلمي - فقد بينت لهم أن الطلاب الذين يسجلون في الدراسات العليا نوعان؛ الأول يسعى جادًّا من أجل البحث والدرس، وطلابه قلة قليلة، والآخر يسعى للتسلية والحصول على درجة علمية في ظل التساهل أو ظروف أخرى غير سليمة. وقد شاعت مقولات سيئة عن القسم في أماكن أخرى لا تشرفه، ولا أستطيع أن

أذكرها، ولهذا أوقف عميد الكلية التسجيل في الدراسات العليا بالقسم لأكثر من عامين، ولم يفتح الدراسة مرة أخرى إلا بعد أن ذهبت إليه وتحدثنا في الأمر، ووضعت له تصورًا يقوم على مشاركة جميع الأعضاء في الإشراف، وشمول التسجيل لكل التخصصات الدقيقة، فقد كان الطلاب يركزون على تخصص دقيق واحد أو أكثر، مع ترك بقية التخصصات الدقيقة التي تحتاج إلى بذل مجهود.

وقد جاء فتح التسجيل في الدراسات العليا قبيل رئاستي للقسم، وأضفت إليه في اللقاء الأول أنني سأتولى توزيع الطلاب على التخصصات الدقيقة وفق ما أراه من استعداد لدى الطالب، مع توجيهه إلى المشرفين، وفي الوقت نفسه أكتشف الطلاب الذين لا يصلحون للدراسة.

استفزاز وتذمر:

لم يسلم الاجتماع الأول للقسم من محاولة استفزاز سخيفة، ومن حالات تذمر غير مفهومة، وخاصة فيما يتعلق بالدراسات العليا التي كانت في السابق بلا ضوابط، وكان يتناوشها كلام كثير، ولكن تجاوزت ذلك، ومضى العمل في طريقه معقولا.

للأسف كان هناك ما يسمى بالغيرة التي حركت بعضهم، ومنهم من كان تلميذًا لي، لتبدأ حرب غير مقدسة ضدي، وافتعال مشكلات هامشية، وكتابة الشكاوى الكيدية، لدرجة أني دخلت يومًا على مسئول، فقام إلى دولاب في مكتبه وسحب ملفًا به عشرات الشكاوى ضدي، وأفهمني أنه حفظها حرصًا عليّ، وكان كلامه يحمل صيغة تهديد مبطنة تقتضي أن أقدم المقابل في صورة ما.

ولأنني رأيت أن الصمت يعني الموافقة الضمنية على إدانتي، فقد كتبت خطابًا سريًّا وشخصيًّا للمسئول المذكور، وتركته له في مكتبه، وطلبت منه أن يقدم هذه الشكاوى إلى التحقيق لأرفع عنه الحرج !

مرحلة من الكيد:

ويبدو أن خطابي باغت الرجل، الذي لم يجد مفرًّا من رفع الشكاوى إلى جهات التحقيق، وبدأت مرحلة من الكيد والتآمر والتزوير، استمرت سنوات، وانتهت برد الكيد إلى نحور من صنعوه، ولم يصبني - بفضل الله - ضرر كبير. ما أصابني كان محتملا، وقلت لعل فيه تكفيرًا عن ذنوب لا يعلمها

إلا الله، ولعله سبحانه أراد أن تكون في ميزان الحسنات، وهي في كل الأحوال ضريبة أن تعمل في وطن لا يحب من يعملون غالبًا.

جهّزت لتكون هذه الأحداث كتابًا مستقلا، يكشف خفايا النفوس وتحولات القلوب، وموت الضمائر أحيانًا، ولكنني سوّفت كثيرًا، ولعلي بعد انتهاء هذه السيرة التي استغرقت مني ثلاثة أجزاء كبيرة أفرغ إلى هذا الكتاب، وإن كنت أفضل أن أهب جهدي لموضوع علمي، أُجلّي فيه فكرة تجاهلها الناس أو غابت عنهم بوصف ذلك خير وأبقى. هذا يتوقف على فضل الله أولا، ثم إن كان في العمر بقية، وبعض العافية.

انتهت فترة رئاسة القسم، ولم أسع للتجديد كما يفعل غيري، فقد عاد زميل بدرجة أستاذ من إعارته إلى الخارج، وتولى الرئاسة، وانصرفت إلى قراءاتي وكتاباتي.

صرخة داوية:

ظهرت في سنوات النصف الثاني من التسعينيات مجموعة من كتبي، وواصلت الكتابة في الصحف في آفاق عربية والشعب التي أغلقها النظام - كما سبقت الإشارة - بسبب مقال كتبه الدكتور محمد عباس عن رواية اسمها " وليمة لأعشاب البحر " كتبها شيوعي سوري من الطائفة النصيرية اسمه حيدر حيدر، وفيها يجري على لسان البطل الشيوعي سب رخيص للذات الإلهية، ويتكلم عن القرآن الكريم بصيغة بذيئة، فضلا عن انحطاط سلوكي وخلقي يغمر الرواية وتغص به سطورها.

مقال الدكتور عباس كان صرخة داوية في وجه المؤسسة الثقافية التي يسيطر عليها الشيوعيون المصريون وأشباههم، ومن خلالها يوجهون سهامهم المسمومة إلى الإسلام وقيمه ومعتقداته وتشريعاته، تحت مسميات التنوير، ومحاربة الرجعية والظلامية والتخلف، دون أن يخشوا رادعًا أو قانونًا، أو يراعوا آدابًا عامة أو تقاليد اجتماعية!

من يبايعني على الموت؟:

حمل مقال الدكتور محمد عباس عنوانًا يقول: " من يبايعني على الموت؟ "، وكان له صدى عميق وقوي، في الشارع وداخل مؤسسات الدولة، وفي مقدمتها مجلس الشعب. خرجت ألوف من طلاب الأزهر في مظاهرات غاضبة هادرة تندد بالعمل الرخيص الذي نشرته وزارة الثقافة، وفي هذه

المظاهرات أصيب عدد كبير من الأشخاص، وتوالت البيانات في مجلس الشعب استنكارًا لما فعلته الوزارة، وحضر الوزير إلى المجلس ليواجه غضب النواب، ولكن المحصلة - للأسف - كانت إغلاق جريدة الشعب، ومحاكمة بعض محرريها لأسباب أخرى !! ومع أن الجريدة حصلت على ما يقرب من خمسة عشر حكمًا بإعادة إصدارها، إلا إن النظام أبى واستكبر، وضرب عرض الحائط بأحكام القضاء.

شاركت مع غيري بالكتابة عن الرواية الساقطة فنيًّا قبل أن تكون ساقطة مضمونيًّا، ولكن الأبواب غُلّقت، ولم يعد هناك من مجال للنشر في صحافة موجهة لخدمة النظام. حتى الصحف التي تسمى بالمعارضة جعلت كل همها إرضاء السلطان، والبعد عما يزعجه من كتابات.

أغادير:

تلقيت دعوة للمشاركة في مؤتمر أدبي بالمغرب الشقيق .. مكان انعقاد المؤتمر في مدينة شهيرة اسمها أغادير، وكسبت المدينة شهرتها بسبب الزلزال الذي هزها في الستينيات من القرن الماضي، واهتز له العرب جميعًا. المدينة ساحلية، وتستثمر منشآتها وقراها السياحية في الشتاء، من خلال إقامة المؤتمرات وتنظيم المهرجانات. أما في الصيف فهي في زحام شديد يشبه زحام الإسكندرية صيفاً.

ويبدو أن الزلزال جعلها موضع اهتمام، فقد أعيد بناؤها مرة أخرى، وساعدت شهرتها على استقبال أعداد ضخمة من السائحين والزوار، فانتعشت فيها التجارة، بالإضافة إلى مهنة الصيد التي تحقق عائدًا كبيرًا. وتبع ذلك اهتمام واضح بالتعليم، يتمثل في وجود عدد كبير من المدارس، بالإضافة إلى جامعة كبيرة كانت مجال المؤتمر الذي حضرته.

قضينا نحو أسبوع في المدينة الجميلة التي تطل على المحيط الأطلسي، ودعاني شباب المؤتمر لإلقاء بعض المحاضرات في أكثر من مدينة جنوبية هناك، وكنت سعيدًا بأول رحلة إلى بلاد المغرب الشقيق. وكتبت عنها أكثر من موضوع نشر في حينه.

الغربة ثانية:

في أم الدنيا لم يبق مجال لأمثالي؛ هكذا ظننت! حيث الجو خانق روحيًّا وثقافيًّا وإنسانيًّا، فرأيت أن أخرج مرة أخرى وأغترب، ومع كراهيتي للغربة، وخاصة لأنني سأكون وحدي بسبب وجود الأولاد في الجامعات.

تعاقدت مع تعليم البنات بالمملكة العربية السعودية .. طلبوا في البداية أن أكون مستشارا للدراسات العليا بكليات البنات في الرياض .. أخذت أجهز أوراقي وأحصل على الموافقات التي استغرقت وقتًا أكثر من المعتاد. ولم يكن هذا الأمر بالمهم، ولكن الكشف الطبي أسفر عن نتيجة مزعجة، وهي وجود جسيمات في الكبد تنبئ عن متاعب منتظرة ما لم يكن هناك علاج دائم، والتزام صارم بنظام معين للأكل.

بالطبع، هذه النتيجة تمنع السفر إلى المملكة، وهو ما جعلني أراجع بعض الجهات التي أشارت إلى أن هناك اختبارًا آخر يمكن اعتماده إذا أثبت أن الكبد يملك كفاءة جيدة في الوقت الحالي.

حفر الباطن:

أجريت الاختبار الجديد في معامل خاصة، واستغرق الأمر وقتًا طويلا نسبيًّا حتى جاءت النتيجة، وبعد أن حملتها وذهبت إلى اللجنة وجدت رئيسها الذي أعرفه قد غادر إلى موطنه بسبب العودة إلى الدراسة، وأن الوظيفة التي كنت مرشحًا لها قد تم شغلها بسبب تأخري في تقديم الأوراق، وأن المتاح الآن هو وظيفة أستاذ في إحدى الكليات. تعاقدت للعمل في بلدة تسمى حفر الباطن، تقع في أقصى الشمال الغربي للمملكة. كنت أسمع عنها في النشرة الجوية للتلفزيون السعودي، وترسخ اسمها بعد غزو صدام للكويت وحرب تحريرها، واحتلال العراق بعدئذ عام 2003م.

لم يكن ممكنًا التراجع عن السفر لأسباب نفسية دفعتني إلى خوض المغامرة مهما كانت النتائج.

حاولت الاستفسار عن حفر الباطن، والتعرف على ظروفها، فلم أجد إجابة شافية. كان الطريق إليها على مرحلتين؛ الأولى من القاهرة إلى جدة، والثانية من جدة إلى الحفر. استغرقت الرحلة وقتًا طويلا؛ حيث انتظرت في جدة ساعات، ركبت بعدها الطائرة التي هبطت في المدينة المنورة

- على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - ومكثت هناك أكثر من ساعة، ثم أقلعت إلى البلدة المقصودة.

الفندق:

في الطائرة سألت جاري - وكان شابًّا يعمل في الحرس الوطني، ويحمل رتبة ضابط، ولكنه يرتدي الملابس المدنية - عن حفر الباطن ومعالمها، وعرفت منه أن هناك أكثر من فندق في البلدة، وذكر لي أسماءها، وحين هبطت الطائرة تلقفني أصحاب السيارات الأجرة، وراحوا يساومون، وأنا أبدي لهم أنني أنتظر لبعض الوقت، حتى جاء أحدهم، وكان الليل قد بدأ يوغل في الصمت والحركة تقل والناس يختفون، وطلب أجرة مرتفعة ولكنها كانت أقل مما طلبه الآخرون.

نزلت عند الفندق الذي عرفت أنه الأفضل من خلال حديثي مع الضابط الشاب، وهناك وجدت مجموعة من الموظفين والعمال الصعايدة الذين يعملون في الفندق منذ أمد بعيد .. رحبوا بي، وعرفوا أنني قادم للعمل في كلية البنات.

في الصباح ركبت إلى الكلية، ورأيت مجموعة من الزملاء الذين أخذوا في تعريفي بما ينبغي أن أفعل .. أرسلوا المظروف الذي حملته من لجنة التعاقد بالقاهرة إلى العميدة في الداخل. كانوا يجلسون في غرفة مستقلة يسمونها غرفة الإذاعة، التي تنقسم بدورها إلى أستديوهات بها أجهزة الصوت والتلفزة إلى جانب مكتب ينتظر فيه المحاضرون .. أما الكلية، طالبات وإدارة وهيئة تدريس نسائية، فهم في الداخل، يُغلق عليهم باب ضخم، أمامه حارس وزوجته، ولا يقترب منه رجال.

هناك إدارة لتعليم البنات، يقودها مدير شاب حصل على درجة الماجستير في الفنون التشكيلية من إحدى جامعات القاهرة، وقد زرته وتعرفت عليه، والتقينا مرات عديدة.

أنا سيد:

في الفندق فوجئت بالهاتف يدق، وعلى الطرف الآخر شخص يقول لي: أنا سيّد ..

عرفت أنه كان مجندًا في الكتيبة التي انتميت إليها في فترة العسكرية عقب هزيمة 1967م. ذكرني بمواقف وأحداث كان طرفًا فيها آنئذ، وقال لي إنه يعمل في المبنى المقابل للفندق، وأنه يريد أن يراني.

قابلته، وأبدى عواطف غامرة، وأخبرني أنه يعمل في مكتب عقاري منذ سنوات طويلة، وأنه بصدد استقدام ابنه ليعمل في البلدة بجواره. وبعد فترة أخبرني أن هناك سكنًا معقولا في العقار الذي يعمل به، ومع أن إيجاره مرتفع نسبيًّا إلا أنه أفضل بالنسبة لي حيث يقع بعيدًا عن الزحام، وقريب من الفندق الذي سيقدم لي الطعام الذي أطلبه، ولن أحتاج إلى السوق ومتاعب الطبخ، وإن كان يضطرني إلى ركوب سيارة إلى الكلية.

الملل يهجم:

لم أسترح إلى نظام التدريس في كلية البنات؛ فأن تدخل إلى الأستديو وتظل تتكلم ساعة أو ساعتين دون أن تعرف هل هناك أحد يسمعك أو لا – مسألة أقرب إلى الحديث إلى النفس، وتجعل السأم يغزوك، والملل يهجم عليك. صحيح هناك – كما يفترض – معيدة أو محاضرة تجلس مع البنات، تنظم وجودهنّ داخل القاعة، وتفرض عليهم أن ينتظموا في سماع المحاضرة، وتحصي الغياب والحضور، وأمام كل طالبة ميكرفون تستطيع الضغط عليه لتناقش الأستاذ فيما تريد استيضاحه أو فهمه، ولكن الواقع غالبًا كان يؤكد أن المعيدة أو المحاضرة لا تذهب إلى القاعة، وأن الطالبات وهن في سن المراهقة يقضين الوقت في اللعب والمزاح، وأن اللاتي يستمعن إلى المحاضرة قلة قليلة، وإذا فتحتُ الميكروفون الداخلي استمعت إلى الصخب والضجيج الذي تحدثه الفتيات بلا هوادة.

هناك رئيسات للأقسام بدرجة معيدة أو محاضرة، واهتماماتهن تنحصر فيمن ذهب ومن جاء أو غاب وحضر من الأساتذة، واتخاذ قرارات قد لا تكون على المستوى المطلوب من حيث الأداء والنتائج، ثم يرسلون المحضر إلى الغرفة الخارجية ليوقع عليه الأساتذة والمدرسون. لا يوجد تفاهم علمي أو إداري، هناك قرارات تصدر من صاحبة المنصب، وعلى الآخرين التنفيذ.

لا محل لها:

بالطبع لا مجال هناك للحديث عن البحث العلمي أو تطويره أو المؤتمرات العلمية والمشاركة فيها..

أذكر أني دعيت إلى أحد المؤتمرات خارج البلاد، وطلبت الموافقة على حضوره، فحولوني إلى مدير التعليم، وهناك ابتسم الرجل وأفهمني أن مثل هذه الأمور لا محل لها، وأنني إذا كنت راغبًا في الحضور، فإنه يمكن أن يعدّ أيام المؤتمر إجازة طارئة. أما التكاليف والتذكرة فعليّ أن أتحملها جميعًا، وهو ما وضعني في دائرة اليأس من محاولة حضور أي فعالية أو ندوة خارج البلدة.

تكريم في جدّة:

في السنة الثانية أرسلتْ إليّ ندوة الاثنينية بجدة، لمؤسسها معالي الأستاذ عبد المقصود خوجة؛ من أجل تكريمي في لقاء موسع يجمع الأدباء والشعراء والصحفيين وأساتذة الجامعات وبعض رجال السلك الدبلوماسي، وذهبت لمدير تعليم البنات الذي سمح لي بإجازة طارئة لحضور حفل التكريم. والأستاذ خوجة رجل أعمال من عائلة معروفة، وهو محب للأدب والثقافة، وقد قام بجهد كبير في خدمة الأدب العربي، ونشر معظم إنتاج الأدباء في السعودية في طبعات فاخرة، ويمكن أن تجد ضمن منشوراته ما كتبه الأدباء الأوائل في المملكة ويجهله أهل البلاد أنفسهم. وقد اعتاد على تكريم مجموعة من الأدباء البارزين في الموسم الثقافي كل سنة.

الرجل على المستوى الشخصي طيب الخلق ودود وكريم، وقد حدثني عن بعض الأدباء المصريين الذين كانت أسرته تستقدمهم من مصر لقضاء بعض الوقت هناك، ويستمتعون بأشعارهم وحكاياتهم، وهو بعد ذلك حريص على اقتناء كل ما ينشر في أنحاء العالم العربي من إصدارات ويصل خبره إليه.

شارك القنصل:

وليلة تكريمي حضر عدد كبير من جمهور الاثنينية، وشارك القنصل المصري ورجاله إلى جانب القنصل الروسي وبعض الدبلوماسيين من دول أخرى عربية وأجنبية، ومن اللافت أن القنصل المصري ومن معه لم يهتموا بشخصي الذي يتمّ تكريمه، بل لم أجد منهم كلمة تحية ! كان جل

اهتمامهم إن لم يكن كله منصبًّا على صاحب الندوة. وتعجبت في سرّي من هذا المسلك الذي لم يكن غريبا على المسئولين المصريين عامة في معظم الأماكن والمناسبات، والمفارقة أن الدبلوماسي الروسي الذي يجيد العربية كان أكثر اهتمامًا بشخص المكرم، ومحاولة التعرف على فكره وإنتاجه الأدبي !

في البداية افتتح الحفل أحد الأساتذة بجامعة الملك عبد العزيز في جدة، ثم ألقى صاحب الاثنينية كلمة ضافية، أثنى فيها على المكرّم ثناء، سألت الله أن يستحقه، ويكون على مستواه، ثم ألقيتُ كلمة حاولت أن تكون موجزة، ولكنها امتدت لبعض الوقت .. تلقيت بعدها مجموعة كبيرة من الأسئلة أجبت عليها جميعا.

العمرة:

في ختام الأمسية تسلمت درع الاثنينيّة وهو عبارة عن قطعة من كسوة الكعبة المباركة وعلى حوافها اسم الندوة واسم المكرّم وتاريخ التكريم. والتقطت الصور، واتجه الحاضرون إلى وليمة فاخرة.

في اليوم التالي ذهبت إلى مكة المكرمة لأداء العمرة، وزرت رابطة العالم الإسلامي، وقابلت الدكتور عثمان أبا زيد - رئيس تحرير مجلة الرابطة، وعدت إلى الفندق؛ استعدادًا للعودة إلى حفر الباطن.

في الأيام التالية خصصت الصحف المحلية مساحات واسعة لتغطية حفل التكريم الذي جاء على غير موعد. تلقيت العديد من التهاني من شتى أرجاء المملكة من الأصدقاء والمعارف والطلاب الذين درست لهم من قبل.

وعلى كل حال، جاء التكريم ليرد اعتبارًا - كما يقول أهل القانون - أهدره المعنيّون في بلدي، حيث خصصوا جوائزهم وتقديرهم وتكريمهم لمن دخل حظيرتهم، أما من تأبّى فقد تجاهلوه بل حاصروه.

الحمد لله:

والحمد لله أنني لم أستسلم للحظيرة وإراداتها، وكرّمني ربي بأن جعل تكريمي خارج الحدود من هيئة لها اعتبارها ومكانتها، ومن رجل له قامة وقيمة، ولم يكن لي به سابق معرفة، وفي حضور رهط من كبار الأدباء والمثقفين المحليين والعرب والأجانب، ومن ضمنهم رجال القنصلية المصرية الذين كتبوا - ولابد - إلى المعنيين في النظام المصري بما حدث. ولله الحمد أولا وآخرًا.

11 - وغُلّقت الأبواب

جنسيات متعددة:

تمثل بلدة حفر الباطن حالة خاصة بين بلاد المملكة؛ فهي تشرف على الكويت وقريبة من العراق، ولها علاقات قبلية مع سوريا والأردن، ولذا تجد سكانها خليطاً من جنسيات عربية متعددة، وقد تسأل أحدهم عن جنسيته فيجيبك إجابة غامضة، وكأنه من ذلك النوع الذي يطلق عليه في بعض دول الخليج (البدون) أي بغير جنسية.

الدخول والخروج بين الحفر والدول العربية أمر مألوف، سواء بطريقة مشروعة عن طريق الجوازات أو أخرى غير مشروعة عبر الجبال والكثبان الرملية التي تقطعها السيارات ذات الدفع الرباعي، أو تلك السيارات المتخصصة في السير عبر الصحراء.

هناك إغضاء شبه مقصود عن تنقلات هؤلاء السكان لحسابات محلية، ولعل في مقدمتها تشعب الانتماءات القبلية هنا وهناك، وهو ما يجعل عملية الدخول والخروج شبه طبيعية. بيد أن السكان السعوديين المقيمين في البلدة ينتمي أكثرهم إلى مناطق أخرى في المملكة بدءا من الجنوب حتى الشمال، ولعلك لا تجد سكانًا أصليين بالمعنى الدقيق إلا في القرى المحيطة بها؛ حيث القبائل المتجذرة التي يعرف بعضها بعضًا، أما في الحفر فالمسألة غامضة. ولعل ذلك له تأثيره في خشونة التعامل السائد هناك، مع أن الوافدين من الجنسيات العربية كثيرون، أضف إليهم من جاءوا مع القوات الأجنبية التي شاركت في الحرب ضد العراق، ونقلوا إليها عادات وتقاليد أكثر تحضرًا ومرونة.

العقليات متفاوتة:

لقد شهدت الحفر عمليات عمران هائلة على أحدث طراز في المساكن والمحلات والأسواق والمطاعم والبنوك والوكالات والمدارس والكليات والمؤسسات المختلفة والمستوصفات، والمستشفى العام، ولكن العقليات هناك

متفاوتة. وقد تجد هناك حالات من السلوك الغريبة على أكثر من مستوى..

فوجئنا ذات يوم بأحدهم يقود سيارته (الجيمس) القوية، ويقتحم بها فرع أحد البنوك الشهيرة في البلدة؛ فيدمر البوابة الزجاجية، ولم توقفه إلا الطاولات الرخامية الصلبة، وهو ما جعل البنك عقب الحادث يقيم حواجز معدنية أو حديدية بمدخل البنك الرئيس وبواباته الأخرى؛ حتى لا يتم اقتحامة ثانية. سألنا عن السبب، فقالوا: إن موظفا من أهل البلاد عقّد مشكلة كان يريد عميل البنك حلها .. استعطفه الرجل، ولكن الآخر أغلظ له القول، وأصرّ على موقفه، مما أيأس الرجل، ودفعه إلى هذا السلوك العنيف!

ومع أن كل شيء من ماديات الحياة متوفر في حفر الباطن، إلا أن جوّها بصفة عامة قاس ومتوحش في الصيف وفي الشتاء على السواء، ويتغلبون على ذلك بمكيّفات الهواء التي ليس بيني وبينها أي ودّ؛ بسبب الحساسية التي تخلف كثيراً من المتاعب حين أتعرض لها.

تعارض الأمزجة:

تنقلت بين أكثر من مسكن .. قضيت العام الأول في المسكن الذي اقترحه " سيد "، رفيق العسكرية، وبناء على رغبة بعض الزملاء العزاب مثلي، انتقلت للإقامة المشتركة معهم لأكون قريبا من الكلية، وأذهب إليها مشيًا، ولم تمض الأمور كما ينبغي في هذا السكن؛ بسبب تعارض الأمزجة والسلوكيات، فاستقدم بعضهم أسرته، وأنهى بعضهم تعاقده .. وجدت نفسي وحيدا، وانتقلت إلى سكن آخر في شقة صغيرة بالمكان ذاته؛ لأنه قريب من الكلية، ولكني – بصفة عامة – أحسست بمزيد من النفور تجاه البقاء في حفر الباطن.

أمر لا يليق:

رأيت ممارسات وسلوكيات غير مقبولة من بعض الزملاء في الكلية، وخاصة من بني جلدتنا، لدرجة أنني ذات يوم دخلت إلى الشبكة أو غرفة الإذاعة فوجدت أمرًا إداريًّا يكلف الأساتذة بتنظيف قاعات الكلية بعد انصراف الطالبات وهيئة التدريس من السيدات، وترتيب المقاعد من أجل الاختبارات وفقا لأرقام الجلوس، على أن يقوم الحارس (البواب) بالمتابعة!

غلى الدم في عروقي بعدما وجدت بعضهم وقع بالعلم والموافقة، وأمسكت بالقلم وكتبت: " إن الكلية تعاقدت معنا من أجل التدريس، وإن هذا العمل من اختصاص شركة الصيانة التي تتولى تنظيف الكلية، وإن ترتيب المقاعد من اختصاص الإداريين في داخل الكلية (من السيدات) مع العاملات، وهذا أمر لا يليق بالأساتذة ". وطلبت ممن تسلم الورقة من الداخل عبر الشباك الصغير الذي يفصل الشبكة عن الكلية، أن يعيد الورقة من حيث أتت.

تصورت أن الأمر انتهى، ولكنني فوجئت بعد نحو أسبوع أن الورقة عادت مرة أخرى، ويتم تمريرها على الأساتذة الذين وقع معظمهم عليها، ووجدت عبارة تقول: " إننا على استعداد للتنفيذ إذا حضر عمال ونقوم بالإشراف على العمل " ! يعني بدلا من أن يكون الأساتذة في مستوى الفراشين، طلبوا ترقية أنفسهم ليكونوا ملاحظين يشرفون على العمال !!

قلت لهم لن أوقع، وأبلغوا السيدة المصرية التي اقترحت هذا الأمر أن فلانًا – الذي هو أنا – أستاذ وليس فراشًا !

حالة من الانحطاط:

كنت أكبر سنًّا وأعلى درجة علمية في الكلية، وكان القرار الذي صاغته محاضرة مصرية (مدرس مساعد) تدرس النحو وتخطئ فيه – يمثل حالة من الانحطاط الذي وصل إليه بعض المصريين في نفاقهم وتزلفهم وتملقهم لأهل البلاد على حساب كل قيمة مضيئة وفكرة نبيلة، وقررت من فوري أن أقدم استقالتي قبل منتصف العام لظروف خاصة؛ لأقطع الطريق على المنافقين في اغتنام فرصة الإفادة بمادة ملائمة يستخدمونها لتحسين مواقفهم النفاقية، وجاءت رغبة من داخل الكلية بأن أؤجل الاستقالة حتى نهاية العام لعلي أغيّر رأيي. ولكني أصررت عليها؛ فلم يعد في طاقتي الاستمرار في هذا الجو القاتم.

تكرر أمر تنظيف القاعات وترتيبها في نهاية الفصل الثاني، فقررت الكتابة للأميرة مسئولة تعليم البنات بالرياض عن هذا القرار القبيح، وظللت أبحث عن فاكس مكتبها لأوضح لها ما جرى تفصيلا، فعثرت عليه قبيل سفري النهائي وعودتي إلى مصر بأيام.

كتبت رسالة مطولة شرحت ما جرى تمامًا، وربطته بالناحية التعليمية في الكلية، وطلبت من شخص أعرفه في إحدى المكتبات بالحفر أن يرسل

الفاكس صباح السبت؛ فقد كنا مساء الأربعاء، وكان سفري صباح الخميس، والقوم في إجازة يومي الخميس والجمعة.

ضحى السبت وجدت المسئولة عن تعليم البنات تهاتفني من الرياض وتعتذر عما جرى، وتبلغني أنها قررت التحقيق في الأمر، وأبدت كثيرًا من مشاعر المودة نحو الأساتذة المصريين، ودورهم في تأسيس التعليم بالمملكة، كما عبرت عن أسفها لمغادرتي المملكة.

أسعدني الاتصال، وأحسست أن هناك من يعقل الأمور، ويدرك أقدار الناس، ولكني اتخذت قرارًا بعدم الخروج أو العمل في الخارج مرة أخرى .. كنت قد وصلت إلى سن التفرغ أو المعاش، وآن لي أن أستريح، وأفرغ لكتبي وأوراقي، وأحقق ما حلمت به من قراءات لم أتمكن منها في السنوات الماضية، وأكتب بعض المؤلفات التي لم أستطع كتابتها.

الدمام – القاهرة:

حرصت في أيام حفر الباطن على اغتنام فرصة كل إجازة - ولو كانت بضعة أيام - للسفر إلى مصر، وقضائها مع الأولاد، ومتابعة أمورهم التي بدا أنها تأثرت بسبب غربتي. وكنت أحجز في الطائرة من الدمام إلى مصر، وفي آخر إجازة قبل عودتي النهائية كنا في شهر فبراير 2006، وكان معي زميل من محافظة الشرقية، اسمه الدكتور إبراهيم، وكنا نناديه فيما بيننا بالشيخ إبراهيم؛ فقد كان أزهريًّا ويعمل إمامًا في مصر، وحصل على الدكتوراه، وبعدها تعاقد مع الكلية. فكر الدكتور إبراهيم أن يسافر في الإجازة إلى أسرته، وآثر أن يسلك طريق البحر، حيث يركب الحافلة إلى بلدة تسمى ضبا على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر، والمسافة بينها وبين الحفر تقرب من ألف كيلو متر، ومنها يركب إلى الشاطئ الغربي، حيث ميناء سفاجة المصري. كان ملهوفا على السفر لدرجة أنه نسي أوراقا مهمة في الكلية ينبغي تقديمها عند استلام جواز السفر من الإدارة.

تجمع عدد من الزملاء المصريين وغيرهم ممن كانوا يعتزمون السفر إلى بلدانهم لقضاء إجازة نصف العام في مكتب موظف الجوازات، الذي راح يحكي لنا أيام كان جنديا ضمن الكتيبة السعودية التي شاركت في حرب رمضان على جبهة السويس، ودخل الشيخ إبراهيم، وطلب جوازه، وراح يخرج

الأوراق، ولم يكن بينها الأوراق المطلوبة ليتسلم جوازه، وقلت له مبتسمًا: لم أنت متعجل يا شيخ إبراهيم ؟ تعال معي وسافر في الطائرة؛ فهي أسرع ! بدا غير مستعد للمزاح أو الكلام، وعاد من فوره إلى الكلية ليحضر الأوراق المطلوبة. وكان هذا آخر لقاء بيننا.

لم ينجدهم أحد:

في الرابع من فبراير 2006 غرقت العبّارة السلام 98، وهي في طريقها من ضبا إلى سفاجة، وعرفت بعد أيام أن الشيخ إبراهيم كان من بين الضحايا الذين لم ينجدهم أحد في الدولة، وقضى أكثر من ألف مصري نحبهم دون أن تتأثر استعدادات النظام وأركانه لكأس إفريقيا السوبر كما يسمونه.

ونسي القوم في غمرة فوز المنتخب المصري لكرة القدم على فريق ساحل العاج بكأس الأمم الأفريقية ما جرى للمصريين التعساء من فجيعة غير مسبوقة، فقد ذهب الرئيس وولداه وبقية الأسرة والمسئولون إلى الإستاد، واستمتعوا بمشاهدة فريقنا الفائز، وتم توزيع الجوائز على اللاعبين والإداريين، دون إشارة واحدة إلى المأساة التي غطت وجوه الناس على امتداد الوطن. وبدلا من مراعاة مشاعر الأسر المكلومة، راحت أجهزة الإعلام تذيع أغاني الانتصار في كرة القدم " المصريين أهمه .. حيوية وعزم وهمة " !

عقوبات هزيلة:

كتبت الصحف وغضب الناس من موقف الدولة، ولكن صاحب العبارة وشركاء الكارثة، خرجوا من المشكلة كما تخرج الشعرة من العجين، فقد هرب صاحب العبارة المليونير إلى الخارج مع أسرته وأمواله بمساعدة مسئولين في النظام، وأجريت محاكمة لم تسفر إلا عن عقوبات هزيلة، لم ينفذ معظمها؛ لهروب المتهمين، وضاع دم المصريين هدرًا.

والأكثر مكايدة أن تلفزيون الدولة الرسمي بعث إلى لندن بفريق تلفزيوني على حساب المصريين الفقراء، ليجري حوارًا مع صاحب العبارة – أو العبّارات بمعنى أدق – ويتيح له فرصة الدفاع عن نفسه وتبييض صفحته، ويتنصل من المسئولية تمامًا، ولم يبق إلا أن يقول إن الضحايا هم الذين أغرقوا أنفسهم عمدًا مع سبق الإصرار !

حزنت على الشيخ إبراهيم وتألمت لمصيره، وقام الزملاء بمبادرة طيبة؛ حيث جمعوا مبلغًا محترمًا من المال لمساعدة أسرته، وقام بعضهم بتسليمه إليها، وأذكر أن عددًا من المصريين ممن يعملون بعيدًا عن الكلية كانت لهم مشاركات ملموسة في هذه المساعدة؛ مما يدل على المعدن الطيب لشعبنا في مجمله، وحبه للتكافل في الأزمات .. رحم الله الشيخ إبراهيم.

يوميات الحفر:

لأمر ما حرصت على تسجيل بعض الأحداث اليومية في هذه البلدة بإيجاز شديد، وكان التسجيل يتم يوميًّا في أول الأمر، ثم أخذ يتم كل يومين أو عدة أيام، وانتهيت بمجموعة يوميات لو أتيح لي العودة إليها وتنميتها، لأخرجت كتابًا متوسطًا، به كثير من الأفكار المهمة، ويبدو أنني لن أستطيع في المدى المنظور، وخاصة مع تعثر عملية النشر في هذه الآونة.

النقد الأدبي:

في الفترة التي قضيتها في حفر الباطن، لاحظت أن الطالبات يتعثّرن في المواد التي أدرّسها؛ بسبب الكتب المقترحة للتدريس، وهي مراجع تفوق قدرة الطالبات ونظرائهن من الطلاب في الكليات المماثلة بالضرورة. وكانت السيدات اللاتي يدرّسن هذه المواد من قبل يلجأن إلى بعض المحاولات اللاتي يتصوّرن أنها تغني في هذا المجال، مثل تصوير بعض الفصول من كتب مختلفة، أو تلخيصها.

فكرت بداية في وضع كتاب في النقد الأدبي الحديث - وهو مادة جافة بالنسبة للطالبات والطلاب - يستوفي ملامح نشأته وتطوره، وأعددته على الكمبيوتر بوساطة أحد المكاتب في مصر، وحملت نسخته الورقية معي، وعرضتها على شخص مصري يعمل في إحدى المكتبات التي تزود الطلبة والطالبات بالحفر بالكتب الجامعية والمدرسية؛ من أجل طباعته وتوزيعه، وكان من المؤكد أنه سيحقق له ربحًا جيدًا، وتصورت أن لحيته الطويلة قد تكون دليلا على الاستقامة في التعامل، ولكنه كان مثل سابقه ذي اللحية الطويلة في الرياض، الذي ضيع بعض حقي في دار النشر التي تولى إدارتها، وكأنني لا أتعظ من التجارب، وعذري أنني تعودت ألا أعمم الأحكام .. كانت مراوغته وإخلافه للوعد، دافعًا أن أنفض يدي منه تمامًا، وأبحث عن

ناشر آخر في الرياض، وقد دلني صديق مصري على أحدهم في الرياض، وكان رجلا صادقا ملتزمًا واضحًا.

فترة وجيزة:

أرسلت الكتاب بالبريد السريع، ووعدني أنه سيعرض الكتاب في خلال أسبوع وسيرد علي بالرأي النهائي. قبل أن ينتهي الأسبوع وجدت الرجل يتصل بي، ويخبرني أنه سيطبع الكتاب في فترة وجيزة، وطلب مني أن أوضح شروطي. أخبرته أنه ليس لي شروط، غير طبع الكتاب، والتعامل بوضوح وعدل، فقال: إنه سيرسل العقود لتوقيعها.

طبع الكتاب ووجد صدى طيبًا تجاوز كلية البنات في حفر الباطن إلى معظم كليات البنات والآداب والمعلمين في المملكة، فقد وجد فيه الطلاب والأساتذة منهجًا جيدًا وأسلوبًا سهلا دقيقًا، ويعطي صورة شاملة عن حركة النقد العربي الحديث منذ نشأته، حتى أحدث النظريات النقدية الغربية التي وصلت إليه، بالإضافة إلى أنه مزود بالمراجع المتنوعة لمن أراد الاستزادة..

كان هذا الكتاب بداية تعارف مع الأستاذ إسماعيل بلمهدي من الجزائر، وقد شجعني على إعداد مجموعة من الكتب، اعتمد عليها طلاب الكليات، منها تيسير علم المعاني، وتطور الشعر الحديث، وتطور النثر الحديث، والقصائد الإسلامية الطوال، ومحمد ﷺ في الشعر العربي الحديث، والأدب الإسلامي: الفكرة والتطبيق، والمدخل إلى البلاغة القرآنية، والمدخل إلى البلاغة النبوية، والأدب المقارن ..

بدا كريما:

وقد التقيت مع الرجل في أثناء حضوري مهرجان الجنادرية عام 2008م بالرياض الذي دعيت إليه لأول وآخر مرة، وبدا كريمًا مهذبًا، واستضافني في المؤسسة، وصحبني إلى معرض الكتاب الذي كان منعقدًا وقتئذ، وتابعني بالسؤال والاهتمام طوال أيام المهرجان.

ومن طرائف مهرجان الجنادرية أن المستشار التعليمي للسفارة المصرية، وهو زميل في التخصص بإحدى كليات الآداب المصرية، كان في استقبال المدعوين المصريين، وانصب اهتمامه على الصحفيين الكبار من رجال النظام

المصري الذين دعوا للمهرجان، ومنحهم شرائح محلية للهاتف، أما أنا وأمثالي ممن لا سطوة لهم في الواقع الاجتماعي، فلم يحدث لنا هذا الشرف " الهاتفي " !

لقد فوجئت بالأستاذ بلمهدي يسألني عن وجود شريحة هاتفية معي ليتصل بي، فلما قلت له إنني سأشتري واحدة، فوجئت به يرسل على الفور من يشتري واحدة مع كارت شحن، ويطلب من أحد الموظفين تغيير هاتفي وشحنه. ابتسمت بيني وبين نفسي حين تذكرت ما فعله الزميل المستشار بالسفارة الذي ينتمي لتخصصي للأسف، وقارنت ما فعله بموقف الأستاذ إسماعيل بلمهدي !

هكذا تبدو العلاقة بين المسئولين المصريين ورعاياهم في الخارج، فما بالك بهذه العلاقة في الداخل ؟

إستانبول الجميلة :

سافرت إلى تركيا مرة أخرى؛ لحضور مؤتمر عن سعيد النورسي. رأيت إستانبول الجميلة التي اختلفت اختلافًا جذريًّا عن زيارتي الأولى، ورأيتها قطعة من الجمال والنظام والنظافة والهدوء والخضرة والنضارة، وعرفت عملتها الجديدة الليرة التي صارت تقارب يومئذ الدولار في القيمة، ولم تعد هناك الأرقام المليونية لليرات مقابل مائة دولار.

زرت بعض المدن مثل أنطاليا، وإسبرطة، وقرية بارلا التي نفي إليها سعيد النورسي، وجلست بالقرب من الشجرة التي كان يعيش فوقها سعيد، ويقرأ ويكتب وينام، فهي من أشجار البلوط أو الدلب الضخمة المعمرة، وتتشابك أغصانها، بحيث يمكن أن يتخذ منها سريرًا أو مجلسًا مريحًا، وخاصة الأغصان القريبة من الأرض.

انقسمت نصفين :

كنا في صباح يوم جمعة حين دعينا لتناول الإفطار في أحد المطاعم بالقرب من مسجد أبي أيوب الأنصاري التاريخي في إستانبول .. كان المطعم في الطبقة الثانية، ويتم الصعود إليه بسلم خشبي عال؛ لأن المبنى يعتمد – في معظم تصميمه – على الخشب، وبعد انتهاء الإفطار أخذنا في الانصراف والنزول .. ما كدت أنزل بضع درجات حتى أحسست أن إحدى ساقي قد انقسمت نصفين وشعرت بألم فظيع في المفصل، وبمنطق التحمّل والصبر

الذي أعيش به منذ طفولتي وأكدته مرحلة التجنيد، قلت لعلها وعكة عابرة تنتهي مع الوقت والسير، وناضلت حتى صلاة الجمعة في جامع السلطان أحمد، وبعدها كانت النار تشتعل في ساقي.

جاء الطبيب المرافق للوفد، وحاول إسعافي ببعض الكبسولات والتدليك وربط الساق برباط أتينا به من الصيدلية مع بعض الأدوية، واضطررت للبقاء في الفندق والتخلف عن المجموعة وبرنامجها الذي يتضمن زيارة بعض الأماكن المهمة.

مستشفى أوزال:

لم يتحسن الوضع حتى المساء، فأخذني الطبيب إلى مستشفى خاص، تحمل اسم أوزال رئيس الوزراء التركي الأشهر قبل عهد الحرية والعدالة .. فحصني طبيب العظام، وكان طبيبي المرافق يترجم لي عن التركية .. خلاصة الفحص تشير إلى ضرورة إجراء جراحة في المفصلين، فقد كانت الساق الأخرى تعبّر عن نفسها بألم يشبه ألم الساق الأولى، وإن كان أقل نسبيًّا. ورأى الطبيب أن الأمر سيستغرق بعض الوقت؛ ولذا كتب تقريرًا، وفضل إجراء الجراحة في مصر، وأوضح أن الجراحة ليست علاجًا نهائيًّا؛ فقد تتكرر الحالة، وشرح أن هناك علاجًا آخر طويل الأمد بدون جراحة، يعتمد على بناء الخلايا، ويحتاج إلى نوع من الصرامة في الالتزام بالحركة، وتناول العلاج بانتظام، ثم كتب علاجًا مؤقتًا حتى الوصول إلى القاهرة بعد يومين أو نحوهما.

اشتريت عصا من أمام مسجد أبي أيوب ما زلت أتوكأ عليها وأعتز بها، وإن كنت تمنيت من الله أن أمضي بلا عصا.

بعد العودة رشحوا لي زميلا في كلية الطب متخصصًا في العظام، فحجزنا لديه، وعرضت عليه تقرير الطبيب التركي، فصادق على رأيه، وبدأت رحلة علاج طويلة ما زالت مستمرة حتى الآن، وقد وصف علاجًا خفّف الآلام إلى حد كبير، والتزمت بتعليماته حتى اليوم.

مضاعفات جانبية:

بيد أن المتاعب الصحية كانت تزحف بقوة، وكنت في حفر الباطن أعالج من بعض المتاعب في المسالك البولية، ويبدو أن الطبيب وصف بعض الأدوية الحديثة قوية المفعول، فأنتجت مضاعفات جانبية، جعلت الأطباء

المتخصصين في مصر يطلبون إجراء جراحة دقيقة بالليزر؛ لأن الجسم لا يحتمل الجراحة العادية.

في مستشفى استثماري بحي المهندسين بالقاهرة التي يتوفر فيها الجهاز المعالج، أجريت الجراحة، وهناك أدركت كيف تحولت المهنة الإنسانية – وهي الطب – إلى تجارة رخيصة، مع أن القوم يتقاضون مبالغ باهظة. ورأيت كيف يمكن سحق الفقراء تحت ضغط التجارة التي لا تعرف الرحمة، وعرفت كيف يتهرب تجار الطب من الضرائب المستحقة للدولة بطرق رخيصة وبائسة، وتذكرت كيف توفر الدول الرأسمالية التي بلا قلب سبل العلاج لمواطنيها بوصف ذلك حقًّا من حقوق الإنسان – على الأقل في أساسيات العلاج وأولياته .. بلادي لا تتذكر مواطنها إلا إذا أرادت فرض إتاوة عليه، وخاصة إذا كان فقيرًا لا ظهر له.

تماثلت للشفاء بعد أسابيع، وطلب الطبيب ألا أبذل جهدًا بدنيًّا، وطلب أن أؤدي الصلاة جالسًا على كرسي، وهو ما أفعله حتى اليوم بسبب آلام المفاصل.

بوابة صلاح الدين:

دعاني أحد طلابي من أعضاء هيئة التدريس بكلية التربية بالعريش لحضور مؤتمر علمي، فذهبت بهدف أن أرى سيناء التي لم أرها منذ عام 1973، وأتبين معالم التغيير التي طرأت عليها، ثم – وهو الأهم – أن أزور بوابة صلاح الدين الأيوبي التي كانت معبرًا بين رفح المصرية ورفح الفلسطينية الملحقة بقطاع غزة ، سميت باسمه بعد أن عبر بجيوشه من فضائها ليحرر فلسطين والقدس العتيقة في حربه التاريخية المظفرة.

في صباح أحد أيام المؤتمر، اصطحبت بعض الزملاء وركبنا سيارة من العريش إلى رفح، وهناك بدأنا نتجول حتى وصلنا إلى بوابة صلاح الدين الذي قام النظام بسدها بالحجارة والأسمنت، ووضع فوقها حراسة عسكرية شاهرة السلاح، وكأن ذكرى صلاح الدين تخجله !

حين رآنا الجندي فوق البوابة المسدودة نقترب منها صاح بفزع: إلى أين يا أفندي ؟ انصرفوا سريعًا !

البيوت التي حولنا خربة، وشبه مدمرة؛ بسبب غياب أهلها القسري، وليس نتيجة حرب، رأينا محلا بائسًا يبيع الأعشاب وبعض التوابل، فانعطفنا نحوه نشتري منه شيئًا، وفي الوقت نفسه نرفع روحه المعنوية لأن أحدا لا يشتري منه، وبعد مسيرة على الأقدام، استرحنا في أحد المقاهي لنشرب بعض المشروبات، ثم انطلقنا لنركب عائدين إلى العريش.

اعتقال:

في مدخل المدينة، وبالقرب من مبنى المحافظة، فوجئنا بسيارة عسكرية تعترض سيارتنا وتوقفها، وينزل مجموعة بملابس مدنية، ويطلبون من مجموعتنا النزول، وركوب سيارتهم .. ذهلت !؛ كان واضحًا أنهم من الأمن، ولكن لماذا ؟ ذهبوا بنا إلى مبنى أمني قريب من المحافظة، ووضعونا في إحدى الغرف التي بها بعض المقاعد، وأغلقوا علينا الباب بعد أن جردونا من الهواتف المحمولة والبطاقات الشخصية والأكاديمية.

بعد فترة جاء أحدهم وطلب شخصًا من المجموعة وانصرف به إلى أين ؟ لا ندري !

وطّنت نفسي على الصبر .. فهذا اعتقال غير مفهوم. قد يستغرق وقتا قصيرًا أو طويلا أو شهورًا، أو أكثر من ذلك. الله أعلم. ويجب عدم الانفعال في وضع يتحول فيه المصري إلى كيان لا قيمة له، يتم العبث به دون أن يعرف لماذا، ومن المؤكد أننا لسنا من اليهود الغزاة ولا من أعداء الوطن.

فتحت كتابًا كان معي ورحت أقرأ بعد أن سلمت الأمر لله. بعد فترة احتجت للذهاب إلى الحمام .. فتحت الباب وطلبت من الجندي الجالس أمامه أن يقودني إليه. طلب مني الانتظار، وذهب إلى آخر لعله أعلى منه درجة، ثم عاد بالموافقة.

حرب رمضان:

مضى وقت غير قصير وأنا أقرأ، حتى جاء الزميل الذي طلبوه، ومعه ضابط يرتدي ثيابًا مدنية، وفيما يشبه الاعتذار قدم لنا الهواتف والبطاقات.

ركبنا إلى الكلية، وقبل الدخول حكى لنا الزميل أن شخصًا بدرجة عميد، ولعله رئيس الجهاز راح يستجوبه لماذا ذهبتم إلى البوابة ؟، ولماذا كانت معكم كاميرا ؟، وغير ذلك من أسئلة، فأفهمه الزميل أننا أساتذة في

الجامعة وجئنا لحضور مؤتمر علمي بالعريش، وأغلبنا ممن شاركوا في حرب رمضان، وعبروا إلى سيناء قبل أن يدخل سيادته الكلية الحربية، وأحببنا أن نتعرف على جزء غال من بلادنا. وبين شد وجذب إثر تهديد العميد بتحويلنا إلى النيابة العسكرية، قال له الزميل نحن على استعداد؛ فنحن لم نقترف ذنبًا، وهذه بلدنا نتجول فيها بحرية ما لم تكن محظورة.

تم صرف الزميل وصرفنا مع طلب العودة في المساء لأخذ الكاميرا بعد فحصها. طلبت من زميلي ألا يفتح الموضوع وألا يتكلم فيه مع أحد؛ حتى لا يحدث قلق بين زملاء المؤتمر. وقد كان !

دولة أخرى:

بعد العودة كتبت عن الحدث مقالا في بعض الصحف، وأشرت أن سيناء تبدو دولة أخرى تفصل بين مصر وفلسطين، وأن إجراءات الأمن هناك تعبر عن ذعر غير مفهوم، وأن الواجب أن تكون سيناء جزءًا حيويًّا يتحرك فيه المصريون حركة طبيعية، تنميها وتدمجها في الوطن الأم.

ولكن ما أتعس المصري في بلاده وخارجها حين لا تكون هناك معايير واضحة، وشفافية مضيئة، تحرص على الوطن والمواطن معًا.

صراع:

شهدت الفترة بعد عودتي من حفر الباطن صراعًا بين السلطة والحركة العمالية في المحلة الكبرى، وتشكلت جماعات سياسية تطالب بالحرية وتغيير السلطة المستبدة التي تجمدت وتكلست قرابة ربع قرن، ولم تحقق إنجازًا يذكر لصالح الشعب؛ بل أمعنت في الفاشية والكذب من خلال إعلام مضلل، وامتد القمع ليشمل كل رافض للفساد، الذي توحش ونهب الدولة وأراضيها بالقوانين التي يفصّلها المنتمون إلى النظام وفق أهوائهم، بما يمنحهم حرية اللصوصية التي يغطيها القانون ويحميها..

وفي تلك الأثناء بدأ الحديث عن توريث الحكم لابن الحاكم المزمن، يأخذ بعدًا تنفيذيًّا، يمهد لاستلامه السلطة في موعد الانتخابات الرئاسية بعد انتهاء المدة الخامسة لوالده، وظهرت في الصحف والإعلام حملات تروج للوريث المنتظر، وتتابعه في اجتماعات الحزب الحاكم ولجانه، وفي المناسبات السياسية المختلفة، وتعمل على تلميعه كأنه الحاكم الجديد، الذي تدشن بداية ولايته على المستوى الإعلامي والدعائي، وإثبات حضوره في القضايا

السياسية والاجتماعية، من خلال المشروعات العامة ، مثل النهوض بالقرى الفقيرة، والكلام في القضايا الاقتصادية والاجتماعية..

لجنة السياسات:

كما تناثرت أقوال وأخبار عن تدخل الوريث في اختيار الوزراء والمسئولين، وتقديم القوانين المتعلقة بالاقتصاد، وكانت هناك لجنة تسمى لجنة السياسات، تضم النخبة القريبة من الوريث، وتتكون من علماء أزهريين وصحفيين وإعلاميين واقتصاديين وأساتذة جامعات، وغيرهم، ومعظمهم جاء من التنظيم الطليعي الذي شكله جمال عبد الناصر في الستينيات أو من تلاميذ أعضاء هذا التنظيم، وولاؤهم جميعًا للجهات الأمنية، وكانت مهمتهم كتابة التقارير ضد معارضي النظام ورافضيه.

في الوقت ذاته، كانت الأوضاع العامة تسير من سيئ إلى أسوأ، فالمجالس النيابية مجرد تشكيلات صورية، تقوم بالموافقة على ما تريده السلطة من قوانين، وما تعتزمه من إجراءات تكبل الحريات وتدعم الفساد، سواء أكانت على مستوى الوطن أو المحافظات والمدن، وبرعت هذه المجالس – وخاصة في مجلسي الشعب والشورى – في تعديل الدستور والقوانين بناء على رغبة الحاكم، الذي جاء بهم في انتخابات مزورة .. وصار هؤلاء النواب شبه المعينين على استعداد لإرضاء الحاكم على حساب أية قيمة أو فكرة، ومن الطرائف أن أحدهم قال بلا خجل عند ترشيح الحاكم لفترة رئاسية جديدة: إن الجنين في بطن أمه سيصوت لصالح تولي الرئيس فترة جديدة !

ومع أن الصحف وأجهزة الإعلام تناولت هذه المقولة، وتوقفت عندها طويلا، فإن صاحبها ظهر بعد إطلاقها على شاشات التلفزة دون أن يبدي أي خجل أو ندم على مقولته النفاقية المثيرة للتقزز !

المبيدات المسرطنة:

على الجانب الشعبي فقد عانى الناس عناء شديدًا في معيشتهم اليومية؛ حيث ازدادت البطالة، وارتفعت الأسعار، وانخفضت الأجور؛ بسبب هبوط قيمة الجنيه المصري بصورة غير مسبوقة، وارتفعت الديون الداخلية والخارجية، وعاث أنصار النظام فسادًا في الأرض، فاستوردوا الأغذية المهرمنة والمبيدات المسرطنة والأقماح المسوسة، وتحولت مصر إلى أكبر سوق

استهلاكي لكل البضائع والمنتجات الفاسدة، وامتدت العشوائيات في كل مكان؛ دليلا على الفوضى والفقر وسوء التربية والأخلاق، وراحت القلة الموالية للنظام تسرح وتمرح بأموال الشعب المنهوبة، وتمارس سلوكيات منحطة، تؤكد على الجانب الحيواني في الإنسان المصري، وانهار التعليم واضطرب المجتمع، واصطفى النظام نخبة من المثقفين، باعت نفسها بثمن بخس، أطلق عليها الوزير المختص اسم " الحظيرة الثقافية "، راحت تؤله الحاكم، وتمنحه الألقاب الفريدة، من قبيل: صاحب نصر أكتوبر، وصاحب الضربة الجوية، والنسر الأعظم .. ونظم له صعاليك الثقافة أغاني من عينة " اخترناك "، عدا ما دبجوه من مقالات مديح رخيصة، وصلت إلى الحضيض عندما سافر الحاكم إلى ألمانيا للعلاج، فجعلوه مصر، وجعلوا مصر هو، ووصفوا عودته من رحلة العلاج بعودة الروح إلى مصر ! وتنافسوا في نفاقهم الوضيع إلى درجة مقززة ..

المواطن فلان:

ذكر بعضهم أن المصريين يحسون أنهم أكثر أمنًا مع الحاكم العائد من ألمانيا، ووصفه بعضهم بالإنسانية في أروع صورها، واكتفى بعضهم بجعله المواطن فلان؛ لأنه – في زعمه – أسس شرعية المواطن في قلوب الناس قبل أوصاف الرئيس والزعيم والقائد، ووصفه بعضهم بالوالد والأخ منسوبًا إلى نفسه (والدي وأخي)، وعلى طريقة الندابات في الريف قديما قال بعضهم: " مين لمصر غيرك يا ريس "، وتحدث بعضهم عن المكاسب الديمقراطية وحرية التعبير التي حققناها في عهد فخامته، وحمل بعضهم على المعارضين " التافهين " و" الأقزام " الذين يعكرون مزاج السادة الحكام بسخافاتهم ورزالاتهم !

التزوير علنًا:

وفي عام 2010 أجريت انتخابات لمجلس الشعب ومجلس الشورى، وكان التزوير فيها علنًا، وبمعرفة أجهزة الأمن، وتم اختيار أو تعيين من وافق عليهم مسئولو الحزب الحاكم، وتواترت أخبار عديدة عن ثمن المقعد، وما يتم دفعه لبعض من بيدهم الأمر؛ مما جعل المعركة بين الموالين للنظام فقط .. من يدفع أكثر ويبدي ولاء أكبر هو الذي يدخل المجلس بأضخم

عدد من الأصوات عرفتها الانتخابات المصرية، مع أن نسبة التصويت كانت متدنية للغاية !

أما من يمثلون المعارضة من الأحزاب الكرتونية فقد تم إرضاء بعضهم بمقعدين أو ثلاثة مقابل الانبطاح الكامل أمام إرادة السلطة الفاشية، وكان حزب الشيوعيين في مقدمة الأحزاب المنبطحة نظير تعيين رئيسه في مجلس الشورى، ومرور نائبين له في مجلس الشعب. أما التيار الإسلامي فقد أهدروا كل الأصوات التي حصل عليها، ومنعوا نجاح أي نائب له.

خليهم يتسلوا:

لجأ المعارضون الذين لم يخضعوا للإرادة الحكومية المستبدة إلى فكرة إنشاء مجلس شعب مواز، يعبر عن إرادة الشعب الحقيقية، وحين سئل الحاكم عن هذه الفكرة قال مقولته المشهورة:

" خليهم يتسلوا " !!

والمعنى واضح .. استخفاف بإرادة الشعب، وامتهان لكرامته، ورفض لتعبيره عن كرامته ووجوده !

جاء شهر يناير 2011 واستعدت أجهزة القمع للاحتفال بما يسمى عيد الشرطة يوم 25 يناير، وأخذت أجهزة الإعلام تروج للعيد، وتذكر بأمجاده، في الوقت الذي أعلن فيه وزير الداخلية أنهم يراقبون هواتف الناس جميعا، وحين سئل عن حق الناس في الاحتفاظ بخصوصياتهم، وعدم الرقابة إلا بإذن من النيابة، قال لسائليه:

" اللي خايف ما يتكلمش " !

أي لا وجود للقانون في دولة القانون والحريات والديمقراطية، كما كان يروج أنصار النظام على مدى سنوات طوال.

التعذيب:

كانت هناك حادثتان في أوائل يناير 2011، ارتبطتا بالتعذيب في المقار الأمنية بالإسكندرية حتى الموت؛ الأولى تتعلق بشاب اسمه خالد سعيد، قبض عليه في أحد المقاهي، وتم تعذيبه حتى لفظ أنفاسه، وقيل إنه ابتلع لفافة بانجو، فأودت بحياته، وكان هذا سببًا غير مقبول؛ فمن شهدوا الواقعة، قالوا إن المنتسبين لجهاز الأمن ضربوه وعذبوه، حتى قضى نحبه.

وراح الشباب يستخدمون أجهزة التواصل الاجتماعي على الشبكة الضوئية .. ومن خلال الفيس بوك راحوا يعرضون قضية خالد سعيد، وتنادوا للتظاهر احتجاجًا على مقتله.

الحادثة الأخرى ارتبطت بشخص متدين سلفي اسمه سيد بلال، اتهموه في حادث كنيسة القديسين ليلة عيد الميلاد، وتعرض الفتى الشاب لتعذيب بشع على يد ضباط أمن الدولة ليعترف بالمشاركة في الحادث الذي أودى بحياة عدد من النصارى، ولأن الفتى لم تكن له علاقة بالحادث فقد استمر تعذيبه حتى لفظ أنفاسه، وأمرت الأجهزة بدفنه ليلا دون جنازة أو مشاركة من الناس !

كان الاهتمام بخالد سعيد أكثر من الاهتمام بسيد بلال؛ لأن الأخير متدين ويفخر بإسلامه، وتم التركيز على الأول؛ بحكم تفوق العلمانيين في فن الدعاية. كتبت مقالة مؤثرة عن سيد بلال الذي تجاهله أهل السياسة والسلفيون الذين ينتمي إليهم، كان لها صداها في الاهتمام به والكتابة عنه.

امتلأ الميدان:

أشعل الحادثان مشاعر المصريين وعواطفهم، وجعل المظاهرات تتمدد، وتتجاوز الإسكندرية إلى القاهرة، ويوم عيد الشرطة 25 يناير امتلأ ميدان التحرير بالجماهير من كل حدب وصوب، واستخدمت أجهزة الأمن كعادتها الغاز المسيل للدموع والخرطوش والرصاص الحي، ولم يُجْدِ ذلك فتيلا، فقد بقي الناس رجالا ونساء، شبابا وشيوخا، أطفالا وكهولا، في الميدان قرابة ثلاثة أسابيع، جرت فيها الأحداث بين مد وجزر، وشهد يوم الجمعة 28 يناير – اليوم الرابع للثورة المصرية، وسمي جمعة الغضب – انهيار جهاز الشرطة المصرية، وانسحابه بعد قتل ما يزيد عن 800 شهيد بمعرفة هذا الجهاز، وخرج السجناء الخطرون؛ حيث فتحت الشرطة أبواب السجون عمدًا، وقُتل ضابط كبير رفض فتح السجون، وتم فرض حظر التجوال، ونزل الجيش لفرض الأمن.

موقعة الجمل:

أذاع الحاكم بيانًا مرئيًّا ومسموعًا، حاول فيه استمالة العواطف الشعبية، وكاد ينجح في فض الاعتصام وتهدئة الجماهير، لولا أن أتباعه حاولوا اجتياح ميدان التحرير وقتل من فيه بعد أن أدركوا أن الناس بدءوا يميلون لتصديق ما جاء في البيان، والرضا بتعيين رئيس المخابرات الأشهر عمر سليمان نائبًا للرئيس، وأخذ بعضهم في الانصراف، وجاء هجوم موقعة الجمل التي استخدمت فيها الجمال والخيول والسياط والسيوف والسلاح يقودها أشخاص قادمون من ناحية الهرم ليعيد الأمور إلى وضعها السابق، حيث تصدى الموجودون بالميدان للهجوم، وخاصة شباب الإخوان المسلمين الذين أبلوا بلاء حسنًا، واستشهد منهم عدد كبير، وهو ما جعل الجماهير تزحف بكثافة إلى ميدان التحرير ثانية، وتخرج في الإسكندرية والمحافظات بحشود ضخمة، وأصر المحتشدون على عدم مغادرة الميادين والشوارع إلا بعد رحيل الحاكم، وهو ما تم بالفعل في 11 فبراير، حيث أعلن نائب الرئيس عمر سليمان في بيان قصير تخلي الرئيس عن الحكم، وتسليم المسئولية إلى المجلس العسكري للقوات المسلحة..

سقوط جمهورية الخوف:

انطلقت الجماهير تعبر عن فرحتها وإحساسها بالحرية والأمان، وسقوط جمهورية الخوف لأول مرة منذ ستين عامًا.

وشاء القدر أن يرحل في الوقت ذاته صانع حرب رمضان الحقيقي الفريق سعد الدين الشاذلي، الذي سجنه الحاكم المخلوع، وأذله وشهّر به، وكأنه يغادر الدنيا بعد أن غادر سجانه الحكم والسطوة!

ومع أن المجلس العسكري أبدى نوعًا من التعاطف مع الشعب، واحترام الشهداء الذين سقطوا في الثورة، فإنه راح يكسب وقتًا ويتهرب من التزامات نقل القيادة إلى الشعب، ولكن الثوار دخلوا في صراع طويل ومظاهرات متواصلة للضغط على المجلس؛ كي يخضع للإرادة الشعبية، حتى أجريت انتخابات مجلسي الشعب والشورى وانتخابات الرئاسة في شهر مايو، وجاءت بالرئيس محمد مرسي أول رئيس مدني لمصر.

إفشال الرئيس:

وضح أن المجلس يبيت أمرًا للثورة، وانتهز فرصة نجاح الإسلاميين بالأغلبية في الاستحقاقات الانتخابية ليؤلب أذرعه الإعلامية ضدهم، ويساعد على إفشال الرئيس الشرعي؛ خوفًا من نجاحه، وحرصًا على مصالح العسكر، وإثارة الجماهير بسبب القصور في بعض الخدمات، مثل الكهرباء والوقود، وتم التحالف مع الأقليات السياسية والكنيسة والدعوة السلفية، والخروج يوم 30 يونيه 2013 في مظاهرات صُوِّرت على أنها ضمت ثلاثين مليونا ! وبدعم من بعض دول النفط الخليجية ودول الغرب بقيادة الولايات المتحدة، أعلن وزير الدفاع انقلابه في 3 يوليو 2013، بوقف الدستور، وتعيين رئيس المحكمة الدستورية رئيسًا مؤقتًا للبلاد، وإعلان ما سمي بخارطة طريق يتم فيها صياغة دستور جديد، وانتخاب مجلس نواب ورئيس جديد.

التعامل الدموي:

وعقب ذلك الانقلاب تم أسر الرئيس الشرعي في مكان مجهول، وبدأ التعامل الدموي العنيف مع الرافضين للانقلاب، حيث جرت العديد من المذابح في الحرس الجمهوري ورابعة العدوية والنهضة ورمسيس والفتح وأكتوبر والمنصة، وقرى كرداسة ودلجا وناهيا، وغيرها من المدن والقرى. ومازالت الشوارع والميادين تشهد مذابح شبه يومية كلما خرجت مظاهرة تندد بالانقلاب، وتطالب بالحرية والديمقراطية.

كما جرت مداهمات واقتحامات للبيوت والجامعات والمدارس والمؤسسات في أرجاء مصر، أسفرت عن اعتقال أكثر من أربعين ألفًا من صفوة المجتمع؛ علماء وأساتذة ورجالا ونساء وشيوخًا وأطفالا، مع معاملتهم أسوأ معاملة في المعتقلات، وتعذيب بعضهم تعذيبًا وحشيًّا، يتنافى مع الإنسانية والأخلاق والقانون، وصل ببعضهم إلى الموت.

تكميم الأفواه:

استباح الانقلاب الجامعة، وألغى انتخاب القيادات، وأصدر قوانين لفصل الأساتذة والطلاب، وحرم الطلاب والطالبات الذين يشك في ولائهم من سكنى المدن الجامعية، بل أغلق هذه المدن تمامًا في بعض الجامعات، كما

أغلق الصحف الحرة والقنوات التلفزيونية المعبرة عن الإسلاميين، وطرد الكتاب الذين يشك في ولائهم من الصحف، وكنت واحدًا منهم، فقد كنت أكتب عمودًا يوميًّا في الأهرام تم منعه، بالإضافة إلى منعي من إذاعة القرآن الكريم؛ حيث كنت أدعى للمشاركة في أحد برامجها، كما منعت مقالاتي في مجلة الأزهر، وكانت بعيدة عن القضايا اليومية..

حوّل الانقلاب الصحف اليومية والبرامج الإذاعية والتلفزيونية إلى نسخة واحدة، وفكر واحد، وأسلوب واحد، يشيطن الإسلاميين كأنك تقرأ جريدة البرافدا في عهد الشيوعية بالاتحاد السوفييتي، وصار من يريد الانتقام من غيره يبلغ عن رفضه للانقلاب، أو انتمائه للإخوان أو الإسلاميين.

فقدان الحرية:

تم تنصيب قائد الانقلاب رئيسًا للدولة، وظن أنصاره أن الاستقرار سيعود، وأن الوقود سيتوفر، وأن الكهرباء لن تنقطع، وأن الأسعار ستنخفض، وأن الأجور سترتفع، وأن البطالة ستنتهي .. ولكن شيئًا من ذلك كله لم يحدث؛ بل تفاقمت الأحوال، وفقد الناس الحرية والكرامة، وهبطت مصر إلى الأسوأ؛ مما يهدد البلاد والعباد !

كتبتُ عشرات المقالات في متابعات شبه يومية نشرتها عبر الشبكة الضوئية في مواقع عديدة، تتناول ما يجري وتفسره وتوضح أبعاده، ولم أستطع حتى الآن نشرها في كتب بوصفها تؤرخ لأخطر مرحلة في تاريخ مصر.

كان هناك ناشر طبع لي بعض الكتب عن الثورة والتمرد الطائفي الذي توحش في العقدين الأخيرين إلى جانب كتب أخرى، ومنها: التمرد الطائفي في مصر: أبعاده وتجلياته؛ العمامة والثقافة: دفاع الإسلام وهجوم العلمانية؛ عباد الرحمن وعباد السلطان؛ الأقلية السعيدة: يوميات التمرد والتسامح؛ ثورة الورد والياسمين: من سيدي بوزيد إلى ضفاف النيل؛ اخلع إسلامك تعش آمنا !!؛ تدبير المنزل – ما بعد الثورة؛ الضيافة والشهادة؛ عواصف الربيع العربي.

وقد لاحظت أن الناشر توقف فجأة عن النشر لي ولعدد من الكتاب بأعينهم؛ بحجة الظروف المالية. وقد عرضت عليه نشر بعض الكتب

للطلاب، وأدفع تكاليفها، ولكنه راوغ ورفض، وهو ما رجح لديّ أن الرجل تعرض لضغوط من جهات قاهرة، في وقت بدأ فيه التآمر على الثورة يأخذ صورة مباشرة.

الربيع العربي:

كانت عواصم عربية عديدة قد بدأت في الثورة على الطغاة، الذين أهدروا كرامة شعوبها سعيًا إلى الحرية الكرامة والعدالة.

سبقت ثورة الشعب التونسي التي سميت ثورة الياسمين الثورة المصرية بأيام، وقد اشتعلت ثورة تونس - كما سبقت الإشارة - بعد إحراق شاب اسمه محمد بو عزيزي نفسه أمام الناس، حتى قضى احتجاجا على ظلم لحقه من بعض المسئولين التونسيين، واستطاع الشعب التونسي أن يرغم الحاكم الطاغية على الفرار مع أسرته إلى السعودية، وهو ما ألهم المصريين الإصرار على إسقاط النظام الحاكم، وقد نجحوا في إسقاط رأس النظام، أما النظام نفسه فقد بقي كما هو؛ لأن الخديعة كانت محبوكة، ولأن المصريين شعب طيب، وهو ما أدى إلى جريمة الانقلاب أو نجاح الثورة المضادة!

زنقة زنقة:

وفي ليبيا اشتعلت الثورة في 17 فبراير، أي بعد الثورة المصرية بأسبوع تقريبًا، وانطلقت شرارتها الأولى في مدينة بنغازي، وواجهها الطاغية القذافي أقدم رؤساء إفريقيا قاطبة (40 عامًا في الحكم) بالعنف والدم، وتوعد الثوار بأنه سيلاحقهم زنقة زنقة ودار دار وبيت بيت، وتدخلت الدول الكبرى بالقصف الجوي لقواته، وتم قتله وهو يختبئ في بعض مواسير المجاري، وبعد حين نجحت الثورة المضادة في نشر الفوضى، واستعاد رموز نظام القذافي المبادرة مرة أخرى في صراع لم ينته، يدعمه الانقلابيون المصريون ودول خليجية ماديًّا ومعنويًّا.

البراميل المتفجرة:

وأشعل تعذيب طفل في سوريا، وخلع أظفاره، شرارة الثورة هناك يوم الخامس عشر من مارس بمنطقة درعا في جنوب البلاد، وواجهها النظام بالرصاص والقصف بالبراميل المتفجرة، وتحولت الثورة بعد نحو ستة أشهر من الاحتجاجات السلمية إلى صراع عسكري دموي بشع، كان ضحاياه

حتى كتابة هذه السطور أكثر من ثلاثمائة ألف سوري قتيل، وما يزيد عن عشرة ملايين سوري، هجروا بلادهم أو نزحوا من مواطنهم ليعيشوا حياة البؤس والهوان، فضلا عن الدمار الذي أتى على مدن بأكملها، ومن المفارقات أن الطاغية لم يلق برميلا متفجرًا واحدًا على العدو الذي يحتل الجولان منذ أربعين عاما !!

حارب النظام شعبه بدعم من مقاتلين إيرانيين وحزب الله اللبناني الشيعي، وميليشيات الشيعة العراقيين الدموية فضلا عن دعم روسي عسكري وسياسي غير محدود. ويبدو أن هناك توافقًا دوليًّا لإبقاء الوضع المتردي في سوريا على ما هو عليه بين روسيا الداعمة للنظام عسكريًّا وسياسيًّا، والغرب الذي يرى في النظام السوري حاميًا للكيان الصهيوني على حدوده الشمالية الشرقية؛ لأن نجاح الثورة قد يأتي بالإسلاميين الذين يهددون سكون جبهة الجولان المحتلة.

اليمن السعيد !:

وانضمت اليمن إلى دول الثورة على الطغاة في 21 مارس؛ حيث خرجت الجماهير في صنعاء والمدن اليمنية تهتف ضد الطاغية الحاكم، وهو ما أدى إلى انشقاق الرجل الأقوى في الجيش اليمني اللواء علي محسن الأحمر؛ لينقسم الجيش إلى قسم مؤيد للثورة بقيادته، وقسم مؤيد للرئيس صالح بقيادة نجله أحمد علي عبد الله صالح، واستطاعت دول الخليج أن تتوصل إلى اتفاق يتنازل الحاكم عن منصبه، وتبدأ مرحلة انتقالية، يتولى فيها نائب الرئيس المسئولية، ووضع دستور جديد للبلاد، ولكن قوى الشر لم تترك لليمن فرصة التنفس، وسلطت الأشرار من الحوثيين وأتباع الحاكم المخلوع على الثورة، فاعتقلوا الرئيس المنتخب وحكومته، واستولوا على معظم القوات المسلحة ومعسكراتها، وأعلنوا ما يسمى ببيان ثوري أو خريطة طريق تنسف كل ما صنعه الثوار، ولكن الرئيس المنتخب استطاع أن يفلت من قبضتهم، ويذهب إلى عدن، ويعلن صنعاء عاصمة محتلة.

كانت الأمم المتحدة أرسلت مبعوثًا ليدير حوارا بين الأطراف اليمنية؛ من أجل الوصول إلى حل للأزمة، ولكنه لم ينجز شيئًا ذا بال، بل إن أطرافا اتهمته بالعمل على مضاعفة الأزمة وتعقيدها، ولا أحد يدري إلام تنتهي الأمور.

داعش:

على الجانب الشرقي من الوطن العربي، ثار أهل السنة في العراق ضد دموية النظام الطائفي الحاكم، واعتصموا بالآلاف في منطقة الأنبار شهورًا طويلة، حتى سقط رئيس الوزراء الطائفي الدموي الشيعي، وجاء آخر لا يقل عنه دموية، ولكنه يداهن ويتكلم بلغة ناعمة، وظهر عنصر جديد في الساحة، وهو استيلاء تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) على مساحة شاسعة من أراضي سوريا والعراق أكبر من مساحة بريطانيا، ولقي التنظيم ترحيبًا من قطاع كبير من أهل السنة المظلومين، وأعلن أحكامه وتشريعاته في المناطق التي سيطر عليها، وقد ردت أمريكا بإقامة تحالف عسكري صليبي من دول غربية، ويضم بعض الأعراب لقصف المناطق التي يحكمها داعش؛ بحجة القضاء عليه، ولكنهم يقتلون المدنيين البسطاء من أهل السنة؛ لأن التنظيم يعرف كيف يهرب عند اللزوم ويحمي نفسه. وما زالت الطائرات الصليبية وطائرات الأعراب تقصف أهل السنة الأبرياء، دون أن تهزم التنظيم، أو تقضي عليه، ولكنها نجحت في شيطنته إعلاميًّا.

اغتيال وانفصال:

وفي خضم اشتعال ثورات الربيع العربي - كما سميت عام 2011 - أعلنت الولايات المتحدة في 2 مايو من العام ذاته، عن قتلها - بالتعاون مع المخابرات الباكستانية - للشيخ أسامة بن لادن، زعيم ما يسمى بتنظيم القاعدة، في مخبأ لجأ إليه بالباكستان، وعدت ذلك انتصارًا تاريخيًّا.

وبعد نحو شهرين – في 9 يوليو - أعلن استقلال جنوب السودان بعد فصله عن السودان، وهو ما يمثل نكسة خطيرة لمصر والعرب؛ لأن دولة الجنوب المسيحية المتعصبة ستكون حاجزًا بين العرب والإسلام من ناحية وبين إفريقيا من ناحية أخرى، فضلا عن متاعب متوقعة بسبب مياه النيل التي تعتمد عليها مصر.

القتل الممنهج:

انتهز العدو الصهيوني حالة الثورة في البلاد العربية، وركز على متابعة سياسة القتل البطيء لقطاع غزة، فشن أكثر من حرب شرسة بالطائرات والدبابات، وقتل كثيرًا من قادة المقاومة، ولعل أبرزهم إبراهيم جميل

الحرازين من سرايا القدس وأبرز مجاهديها بلواء غزة، وقد ارتقى في 15 يناير 2013، وقد أظهرت المقاومة الإسلامية في غزة شجاعة فريدة، حين واجهت العدو بإمكاناتها المحدودة، وخاضت مواجهة استمرت خمسين يومًا عام 2014، وجعلت العدو ينسحب دون أن يحقق أهدافه، وإن كان خلف من الشهداء أكثر من ألفي شهيد، عدا الجرحى والمصابين والدمار الهائل في البيوت والمؤسسات والمساجد، حتى مؤسسات الأمم المتحدة لم تسلم من قصفه.

زيارة غزة والأردن والمغرب:

أتيح لي عقب الثورة مباشرة زيارة قطاع غزة؛ للمشاركة في مؤتمر عمداء البحث العلمي الذي دعت إليه جامعة الأقصى، وحضره زملاء من عدد كبير من الدول العربية، وبعض من يعملون في الدول الغربية. كان المؤتمر فرصة جيدة للتعرف على القطاع المحاصر من العدو والأشقاء على السواء، وقد رأيت البؤس الذي يفرض نفسه على الحياة هناك، ومع ذلك فالناس يواجهونه بالصبر والعمل، والإرادة الفولاذية التي تنحاز لدينها ووطنها، وتقاوم القتل الممنهج.

كتبت عن الزيارة وما جرى فيها من أحداث ومفارقات موضوعًا طويلا، نشرته على صفحتين كاملتين في إحدى الصحف التي كنت أشارك في تحريرها آنئذ.

كما أتيح لي زيارة الأردن لأول مرة؛ للمشاركة في مؤتمر الأديبات المسلمات الذي انعقدت أنشطته في عمان وإربد، وسعدت بالتعرف على عديد من المدن الأردنية التاريخية، وزرت المنطقة الشمالية المشتركة التي تجمع فلسطين وسوريا والأردن، فيما يعرف بالأغوار وهضبة الجولان، ورأيت من بعيد قمة جبل الشيخ الشهير، وتناولت الزيارة في موضوع طويل نشرته في بعض المجلات.

زرت المغرب للمرة الثالثة؛ لحضور مؤتمر علمي، وكانت أنشطته في مدينة تطوان في الشمال، وهي قريبة من مدينة طنجة الشهيرة، وأتيح لي زيارة الساحل الشمالي ومدنه، حتى وصلت إلى المضيق، وهو مضيق جبل طارق؛ حيث يمكن رؤية الساحل الأندلسي أو الإسباني من الساحل المغربي، وكانت رحلة جميلة؛ حيث جاءت في وقت شعر فيه العرب جميعًا بالفخر

والعزة لنجاح الثورة المصرية، وتحرر المصريين من الخوف، وهو ما رأيته على وجوه من يستقبلوننا في المطار، ومن نقابلهم في الشارع والفندق والمقهى والجامعات، ولكن.. لم تكتمل الفرحة!

رحيل رمزين:

وشهدت هذه الفترة وفاة اثنين من المؤثرين في حركة البلاد والسياسة في يوم واحد، هو 17 مارس 2012؛ أولهما نائب رئيس الجمهورية ورئيس المخابرات العامة الأسبق اللواء عمر سليمان، حيث توفي في الولايات المتحدة، واكتنفت وفاته بعض الغيوم، حيث كان قبل وفاته يتمتع بصحة جيدة، ولكن البلاد فوجئت بوفاته بعد نقله إلى إحدى المستشفيات الأمريكية.. وعمر سليمان من أهم رؤساء المخابرات المصرية الذين شغلوا هذا المنصب لفترة طويلة، فقد ظل رئيسًا للمخابرات منذ عام 1993 حتى عام 2011، وتعرض لمحاولة اغتيال قبيل تنحي حسني مبارك. وقيل إن له علاقة بتعذيب بعض المتهمين في أحداث إرهابية لحساب الولايات المتحدة من أجل الحصول على اعترافات.

الآخر هو الأنبا شنودة رئيس الكنيسة الأرثوذكسية، وقد ارتبطت ولايته بالعنف الطائفي الذي مارسه بعض النصارى، وتحدي القانون في مسألة بناء الكنائس، والترويج لفكرة أن النصارى أصل البلد، والمسلمين غزاة طارئون، وضروة قيام دولة نصرانية، وهو ما عالجته في عدد من كتبي ومقالاتي.

وكان شنودة قد استخدم ذكاءه وأموال الكنيسة وأغنياء النصارى، وعلاقاته مع الولايات المتحدة والغرب وأستراليا في تكوين نخبة موالية للكنيسة في الصحافة والإعلام بالداخل والخارج، تدافع عن تفكيره الطائفي، وعنف أتباعه ضد المسلمين في الداخل، وتصمت عن أذرعه الطائفية في الخارج التي تطالب بدولة نصرانية مستقلة عن الاحتلال الإسلامي!

وتولى بعده الأنبا تواضروس، الذي لا يخافت في عدائه للإسلام، وشارك في الانقلاب الذي قام به العسكر في 3 يوليو 2013، بعد أن أمر النصارى بالخروج من قداس الأحد في الكنائس يوم 30 يونيه 2013؛ للمشاركة في المظاهرات المطالبة بإسقاط الرئيس المنتخب محمد مرسي - فك الله

أسره - كما بارك قتل المسلمين في رابعة العدوية ونهضة مصر، من خلال برقيات التهنئة الحارة للانقلابيين!

كنت سعيداً بتحرر بلادي في فبراير 2011، وذهبت للاستحقاقات الانتخابية بشوق، مع أني متعب ومريض، ولكن الانقلاب أعاد جمهورية الخوف أو دولة الرعب مرة أخرى!

.. وغُلّقت الأبواب!

❋❋❋

12 - خاتمة

نجاح وفشل:

هناك سؤال يطرح نفسه في ختام هذه السردية الطويلة التي استغرقت ثلاثة أجزاء، ورأينا فيها تحولات النيل من البراءة وطعمه الجميل إلى الهزيمة والانكسار والتوقف عن الجريان، إلى الغربة والتسمم والبرْكة الآسنة، فلم يعد له طعم ولا لون ولا رائحة، إلا ما يشير إلى الفناء، وخاصة بعد أن بنتْ إثيوبيا سدًّا على منابعه، يهدّد بتجفيفه أو تقليل مياهه، وكان رمز الحياة!

السؤال هو: هل نجح صاحب السيرة في حياته وتفوق، أو فشل وأخفق؟

لابد هنا من التعرف على مفهوم النجاح والفشل، والمعاييرالتي تحكم كلا منهما، لكي يمكن الإجابة عن السؤال ..

عناصر مهمّة:

مفهوم النجاح والفشل يرتبط بمدى تحقق الأهداف والغايات التي توضع أمام صاحبها، فإذا استطاع أن يصل إلى ما أراد فقد نجح، إذا لم يصل فقد أخفق، ويدخل في هذا المعيار عناصر مهمة بالنسبة لمن ينجح أو يخفق، وهي بذل الجهد، والأخذ بالأسباب، مع الاعتماد على الله ومرضاته، وهنا تكون مسألة النجاح والفشل نسبية، أو لا تقاس بالمقاييس المادية المباشرة. طالما كان الشخص متسقًا مع نفسه، ومع عقيدته، وقدم كل ما استطاع، فتستوي عنده الأمور جميعًا، فإذا أصابه خير فمن الله، وإذا لم يصبه فمن نفسه، أو لعل الله يدخر له شيئًا أفضل وأحسن. وأمر المؤمن كله خير، كما علمنا نبينا الكريم ﷺ.

ثم إن من عناصر الإيمان التسليم بالقدر خيره وشره، والمسلم يؤمن بقدر الله في كل الأحوال، ولا يتنافى ذلك مع العمل والأخذ بالأسباب، وهناك دعوة صريحة في القرآن الكريم إلى العمل في أكثر من موضع: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة:105].

الايمان بالقدر لا يسوغ ترك العمل تحت أي ظرف من الظروف، ولا يبرّر التعلل بالحظ. على المرء أن يعمل، ويترك النتائج لله، وكلما اقترب الإنسان من ربه وهو يعمل، كان التوفيق حليفه في الغالب، ما لم تكن لله حكمة في عدم التوفيق، بتجنيب الشخص متاعب أو آلامًا لا يقدر عليها، أو اختيار أمر آخر، يحمل خيرًا كثيرًا، يفوق ما كان سيحصل عليه من قبل.

حصاد الثمار:

هناك أمور يشترك فيها البشر – على اختلاف معتقداتهم ومذاهبهم – إذا أتقنوها حصدوا ثمارها، وإذا لم يتقنوها فشلوا وأخفقوا وحرموا منها، فالزراعة والصناعة والتجارة والتعليم والاختراعات والمبتكرات، وغيرها متاحة للناس جميعًا .. من يبذل فيها جهدًا ويأخذ بالأسباب، ينجح ويتفوق غالبًا، والعكس بالعكس، بيد أن المسلم وهو يعمل ويأخذ بالأسباب مطالب بأن يربط عمله بالله؛ ليكون في عمله بركة، ويكون على صلة عبادة بخالقه صاحب الكون ومانح الخير للناس جميعًا.

الإحسان والإتقان:

ثم إن العمل لابد أن يكون مربوطًا بالإحسان والإتقان ، وما أكثر النصوص القرآنية والنبوية التي تتحدث عن الإحسان والإتقان .. ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]، وتعد هذه الآية من أجمع الآيات في القرآن الكريم .. ويرى بعض المفسرين أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ خُلُق حَسَن كَانَ أَهْل الْجَاهِلِيَّة يَعْمَلُونَ بِهِ وَيَسْتَحْسِنُونَهُ إِلَّا أَمْر الله بِهِ ، وَلَيْسَ مِنْ خَلَقَ سَيِّئ كَانُوا يَتَعَايَرُونَهُ بَيْنهمْ إِلَّا نَهَى اللَّه عَنْهُ وَقَدَّمَ فِيهِ. وَإِنَّمَا نَهَى عَنْ سَفَاسِف الْأَخْلَاق وَمَذَامّهَا. وهي ما يعني ضمنًا أن الإحسان مطلوب في كل شيء يمارسه الإنسان عبادة أو سلوكا.

وقد فسر العلماء الْعَدْل بالْإِنْصَاف ؛ وَمِنْ الْإِنْصَاف: الْإِقْرَار بِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِنِعْمَتِهِ ، وَالشُّكْر لَهُ عَلَى أفْضَاله ، وَتَوَلِّي الْحَمْد أَهْله، ثم إتقان العمل. وقالوا: الْإِحْسَان: أَدَاء الْفَرَائِض، وفي مقدمتها العمل المتقن لأنه عبادة.

وهناك حديث الرسول الكريم ﷺ، الذي روته عائشة رضي الله عنها: " إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ".

العمل المتقن يحقق الأهداف ويصل إلى الغايات، ومن يقصّر لا يلومنّ إلا نفسه، وقد بذلت جهدي في عملي بأقصى ما أستطيع، وتركت الباقي على الله .. ووفقني في كثير من الأمور، مع أن الواقع صعب، والأرض غير ممهدة، والبيئة تهيئ للبساطة والرضا بما هو قائم، والقبول بمواضعاته.

عصارة روحي:

لا أزعم أنني تحديت الواقع ومواضعاته، ولكنني كنت مخلصًا للعلم والبحث والفكر والأدب .. بذلت حياتي ووقتي وجهدي في سبيل المعرفة، وأعطيت الناس عصارة روحي بالكلمة والفكرة، وعبرت عن موقفي بصدق ووضوح، ولم أضع حسابًا للأرباح والخسائر.

لقد عشت حياتي كما يعيشها الناس الطبيعيون، فلم يستهوني الغرور أو الخيلاء، ولم أشعر بمركب نقص أو ضغينة تجاه أحد، ولم أكن عدوانيًّا أو منتقمًا .. حاولت أن أتخلق بأخلاق الإسلام ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وبذلت العمل والجهد في حياتي التعليمية والتثقيفية، وأخلصت في عملي الوظيفي؛ ليس خوفًا من مدير أو رئيس، ولكن خوفًا من ربي أولا، وأداء للأمانة ثانيًا؛ فمهنة التعليم أمانة قبل أن تكون وظيفة.

التصالح مع الله:

لذا أعد النجاح معنى وقيمة قبل أن يكون شهادة ومنصبًا وعائدًا ماديًّا، ومعناه وقيمته عندي هما التصالح مع الله والإلحاح في طلب هذا التصالح، فالبعد عن معية الله خيبة كبرى وإخفاق عظيم، وخاصة في زمن فشا فيه الباطل، واستأسد الكذبة والمدلسون وطلاب الدنيا ومروّجو الفكر المادي. هل كنت شجاعًا يوم أصدرت كتابًا بعنوان " مسلمون .. لانخجل " ؟

لقد كنت أمضي في مواجهة التيار بقدر جهدي، وارتضيت الحياة في القرية بعيدًا عن مركز الشهرة والدعاية والمناصب؛ كي أقول كلمتي بوضوح ودون غمغمة أو لجلجة .. عانيت من التعتيم والتهميش والمصادرة وغضب السلطة، ولكني كنت متسقًا مع نفسي، وأسعى للتواصل مع ربي في

دعائي وصلاتي وعملي وسلوكي .. ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام].

العدالة الإلهية:

مثل أي إنسان يعمل، فقد تعرضت لما يسمى بالحسد، الذي تحول إلى حقد يحمل أذى أحيانًا ممن لا يعملون، ولكنهم لم يتمكنوا مني بفضل الله.

رأيت الجاحدين يستحلون سيرتي وجهدي، ولكن دعوت لهم بالهداية، وإن كان الانفعال يدفعني أحيانًا إلى طلب العدالة الإلهية معهم. هناك من تنكر لما بذلته وتجاهل ما قدمته، ولكني لم ألتفت إليه، والتمست له العذر. وهناك من أراد أن يحطمني؛ إشباعا لنقص لديه، أو كراهية لحركتي وسكونه، وهنا حاولت المقاومة بقدر استطاعتي، ثم فوضت الأمر لله، الذي يطلع على خبايا الصدور.

تنظيم العمل:

وعلى مستوى العمل اليومي فإني أعترف بتقصيري فيما يمكن تسميته تنظيم العمل اليومي خارج العمل الوظيفي .. كنت أعتمد على ذاكرتي القوية وقدرتي على العمل في أي وقت، فأجلت ترتيب مكتبتي؛ مما كلفني جهدًا ووقتًا كبيرين عند طلب كتاب أو إعداد بحث أودراسة .. تراكمت الكتب والمجلات في غرف منزلي القديم والجديد .. حاولت تجليد الدوريات، فأنجزت جزءًا لا بأس به، وشغلتني الأمور العاجلة عن إتمام المهمة، رتّبت بعض الكتب، ولم أتم ترتيب الباقي، وشغلتني الأسفار والأعمال العاجلة حتى مضى قطار العمر - كما يقولون - ووهنت الصحة وهجمت الأمراض، فلم أعد قادرًا على التعامل مع المكتبة إلا في حدود ضعيفة للغاية.

وأعترف أنني فشلت في التعامل مع كثير من المخالفين، ولعل ذلك يرجع إلى طبيعتي التي تنفر ممن يمارسون الغطرسة والصفاقة والعنجهية، ولا أدري: هل يدخل ذلك في سياق الرفض والتمرد على كل ما يخالف الفطرة البشرية والأخلاق التي تربيت عليها ؟

الدرك الأسفل:

كم أكره النفاق والمنافقين !!، والذين يتعاملون بمنطق: خذ وهات، دون مشاعر أو أخلاق .. هؤلاء لا يعبرون عن علاقة إنسانية سليمة .. المصلحة تحركهم، والقيمة المادية تجذبهم، أما العلاقة الخالصة التي تجعل شخصًا يودّ شخصًا لله وفي الله، فهي مسألة لا يعرفونها .. كم عانيت من هؤلاء !، وإن كنت للأسف لم أستطع مباغتتهم بالرفض والتمرد، فكان لدي أمل أن يتوب الله عليهم.

التواصل الإنساني يفرض أن يكون هناك إخلاص وصدق، أما النفاق فهو آفة كبرى، وخلة خطيرة تتمدد في جموريات الخوف ودول الرعب؛ لأن الشخص يريد النجاة بنفسه، أو تحقيق مصالحه دون أن يخسر شيئًا، وللأسف يتحول المنافق إلى قدوة لغيره، وهو ما يجعل المجتمع مفككا وغير قادر على الإنجاز الحضاري؛ لأن المصلحة القومية تنتفي وتتراجع لحساب المصالح الفردية والشخصية.

جائزة من الله:

هنا تتراجع الثقة في الآخرين، ويصبح التعامل بين الناس مشوبًا بالشك والريب، فالمنافق أشد خطرًا على الأمة من الكافر؛ ولذا جعلت الآية المنافقين في الدرك الأسفل من النار يوم القيامة ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء]، فالنفاق كما يقول المفسرون هو " الكفر الغليظ "، الذي يستوجب أشد العقاب في الآخرة.

التربية الإسلامية هي علاج المجتمع من النفاق، ومن كل الرذائل الاجتماعية والفكرية والآفات السلوكية والخلقية، وهي التي توجه الناس إلى الإخلاص والصدق، وتجعل ظاهرهم مثل باطنهم، فلا رياء ولا خداع ولا غش ولا احتيال..

والتربية الإسلامية تجعل صاحبها لا ينتظر شكرًا ولا تقديرًا من أحد؛ فالمكافأة من الله سبحانه وحده، هو الذي يكافئ ويجازي، ولا يضيع أجر من أحسن عملا .. قلت لبعض من أحببت من كبار الأدباء والمفكرين: إن القوم منحوا جوائزهم لفلان وعلان من المتسلقين الذين ينافقونهم وحرموكم منها. فردّ عليَّ بهدوء شديد: إني أنتظر جائزتي من الله.

ولعلي هذه الإجابة جعلتني لا أحزن حين لا أجد تقديرًا من الجهات الرسمية في وطني، ويذهب هذا التقدير إلى من لا يستحقون من أشباه الأدباء والكتاب، بينما أتلقاه من خارج الحدود، وممن يطالعون ما أكتب دون سابق معرفة أو اتصال. إن قارئًا أو طالبًا يقابلني في أحد المطارات أوالمناسبات أو الأماكن، يعبر عن شعوره وتقديره حين يراني، فإني أعد هذا جائزة كبرى، آتية من قلب محب حقيقي، وبعيدة عن المجاملات أو النفاق.

المؤمن كيّس فطن:

لقد كنت صريحًا في معاملاتي وكتاباتي إلى الحد الذي جرّ عليّ كثيرًا من المتاعب والحزازات، ولو عدت بزمني إلى الوراء لطبقت حديث الرسول ﷺ: " المؤمن كيّس فطن "، وأرحت نفسي من متاعب وحزازات عديدة كنت هدفًا لها؛ بسبب صراحتي التي تضعني أحيانًا في خانة " السذاجة المفرطة !

ويتصل بهذا نوع من الثرثرة أغرق فيه أحيانًا، مع من ينبغي ألا نثرثر معهم، أو نُسمعهم ما لا يريدون، وأظنني لو عدت إلى الماضي سأمسك لساني عن كثير من الكلام، فالثرثرة ضررها فادح وعظيم، وأذكر أن هناك حكمة وعيتها من فترة تقول:

" ثلاثة لا تعود: الكلمة إذا انطلقت، والسهم إذا رمي، والزمن إذا مضى ".

الكلمة - مثل السهم والزمن - لا تعود، وينبغي أن تكون في موضعها وعلى قدر الحاجة؛ لكيلا يندم المرء على ما يصدر عنه.

نشر السلام:

ولعل الثرثرة كانت نوعًا من الاهتمام بالحياة العامة، التي شغلتني وأهمّتني طوال حياتي أكثر من أموري الخاصة؛ فقد كنت وما زلت أتمنى لبلادي حرية حقيقية، تساعد على الرؤية المتكاملة، والقرار الناضج، وفي الوقت ذاته تحفظ كرامة الناس، وتنصفهم بالعدل والرحمة، وتبني لهم

وطنًا قويًّا يهابه العالم، بما يملك من قيم ومثل، حض عليها الإسلام، وحرص على تنميتها في النفوس والقلوب والعقول.

الإسلام هو أمل الأمة حين تتحرك به الشعوب والأوطان، وفي مواجهة شراسة المعركة ضد الأمة التي يقودها خصومه في الخارج والداخل، يبقى هو الأمل - بعد الله - في نشر السلام وإقامة العدل وبث المرحمة والتعاون بين المواطنين.

تعايش:

بلادي في حاجة إلى تعليم حقيقي، يراعي مواريث الأمة، ويتطلع إلى مستقبل أفضل، وثقافة حقيقية، تؤكد على الأخلاق والشجاعة والجهاد والتضحية والنصيحة المخلصة وإنكار الذات، والبحث عن الحكمة في أي موقع كانت، ومحاربة النفاق والكذب والتدليس والتضليل؛ فهذه آفات تهدم أقوى المجتمعات، وتضعها على حافة السقوط في الهاوية.

بلادي تحتاج إلى تعايش بين كل الفئات والطوائف، يضع في حسبانه مصلحة الوطن قبل أي مصلحة، والتنازل من أجله لتسير سفينته إلى برّ الأمان.

لذا لابد من بناء مواطن يتشبع بقيم الإسلام وأخلاقه التي يرحب بها كل إنسان سوي يملك فطرة سليمة، وشعورًا نقيًّا وإحساسًا خالصًا، مهما كانت عقيدته أو منطلقاته الفكرية؛ لأنها قيم وأخلاق ترفض الظلم والكذب والطغيان والبهتان، وتؤمن بالمودة والرحمة والعدل مع كل الناس ولو كانوا خصومًا، وقبل ذلك وبعده تتبنى العمل والإتقان، وبذل الجهد في كل ما يؤدي إلى الخير والسلام والأمل.

استعادة النيل:

بلادي في حاجة إلى استعادة النيل من الذين يسعون إلى تجفيف منابعه أو تلويثه أو تسميمه؛ كي يجري مرة أخرى، ويحمل الطمي، وينتج الجوافة التي أحببتها طفلا بريئًا، فلعل واحدة من حفيداتي: " رقية " أو " خديجة " أو " حبيبة " تتذوقها، وتشم رائحتها الجميلة!

من المفارقات أنني سمعت قبل أن أختم هذه السطور، صوت الكروان فجرًا. لم أسمعه منذ زمان بعيد جدًا. فاستبشرت خيرًا، وهو يهتف: الملك لك. الملك لك.

حفظ الله مصر المسلمة، وأبقاها عقلا للإسلام ورائدة للأمة.

حلمي محمد القاعود

20 من جمادى الأولى 1436 هـ = 11 من مارس 2015م.

كتب للمؤلف

الأستاذ الدكتور حلمي محمد القاعود

أولا : كتب صادرة عن دار النشر الدولي بالرياض :

1 - النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته، 1427هـ = 2006م.

2 - تيسير علم المعاني، 1427هـ = 2006م.

3 - الأدب الإسلامي: الفكرة والتطبيق، 1428هـ = 2007م.

4 - محمد ﷺ في الشعر العربي الحديث (طبعة ثانية منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة) 1429هـ = 2009م، الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة (مصر)، 1408هـ = 1987م.

5 - المدخل إلى البلاغة القرآنية، 1428هـ = 2007م.

6 - القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة)، 1430 هـ = 2009م.

7 - تطور النثر العربي في العصر الحديث، 1429 هـ = 2008م.

8 - مدرسة البيان في النثر الحديث، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، 1986م.

9 - تطور الشعر العربي في العصر الحديث، 1431هـ = 2010م.

10 – المدخل إلى البلاغة النبوية، 1432هـ = 2011م.

11 - الأدب المقارن: المفهوم والتطبيق، 1436 هـ = 2015م.

ثانيًا : كتب صادرة عن دار العلم والإيمان (دسوق – كفر الشيخ) :

1 - الإخوان والنظام: برنامج الحزب المستحيل، 2009م.

2 - وجوه عربية وإسلامية، 2008م.

3 - الورد والهالوك: شعراء السبعينيات في مصر (طبعة ثالثة)، 2009م، الطبعة الأولى، دار الأرقم، الزقازيق (مصر)، 1413هـ = 1993م.

4 - الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني (طبعة ثالثة)، 2008م، الطبعة الأولى، دار البشير، عمّان (الأردن)، 1416 هـ = 1996م.

5 - الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (طبعة ثالثة)، 2010م، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

6 - الرواية الإسلامية المعاصرة (طبعة ثانية)، 2009م، الطبعة الأولى، نادي جازان الأدبي (السعودية)، 1418 هـ = 1998م.

7 – روائع القصص النبوي: في رياض النبوة (4 أجزاء)، الطبعة الثانية، دار الصحابة، طنطا (مصر)، 2012م.

8 - شعراء وقضايا: قراءة في الشعر العربي الحديث، 2008م.

ثالثًا: كتب صادرة عن مكتبة جزيرة الورد – القاهرة:

1 - التمرد الطائفي في مصر: أبعاده وتجلياته، 2011م.

2 – العمامة والثقافة: دفاع الإسلام وهجوم العلمانية، 2011م.

3 – عباد الرحمن وعباد السلطان،2011م.

4– الأقلية السعيدة: يوميات التمرد والتسامح، 2011م.

5 - ثورة الورد والياسمين: من سيدي بوزيد إلى ضفاف النيل، 2011م.

6 - اخلع إسلامك .. تعش آمنا!، 2011م.

7 – تدبير المنزل – ما بعد الثورة، 2011م.

8 – الضيافة والشهادة، 2011م.

9 – عواصف الربيع العربي، القاهرة، 2011م.

رابعًا: إسلاميات:

1 - مسلمون لا نخجل (4 طبعات)، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، 1399هـ = 1979م.

2 - حراس العقيدة (3 طبعات)، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، 1399هـ = 1979م.

3 – الحرب الصليبية العاشرة، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.
4 – العودة إلى الينابيع: فصول عن الفكرة والحركة، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.
5 – الصلح الأسود .. والطريق إلى القدس، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت
6 – ثورة المساجد .. حجارة من سجيل، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.
7 – هتلر الشرق، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.
8 – جاهلية صدام وزلزال الخليج، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض، 1412هـ = 1992م.
7 – أهل الفن وتجارة الغرائز (طبعتان)، طبعة السعودية، مؤسسة آسام للنشر، الرياض، 1412هـ = 1992م.
8 – النظام العسكري في الجزائر، دار الاعتصام، القاهرة، 1414 هـ = 1993م.
9 – حفنة سطور .. شهادة إسلامية على قضايا الأمة، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض، 1414هـ = 1993م.
10 – الأقصى في مواجهة أفيال أبرهة، مركز الإعلام العربي، 1423هـ = 2002م.
11 – الإسلام في مواجهة الاستئصال، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1425هـ = 2004م.
12 – تحرير الإسلام، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1425هـ = 2004م.
13 – دفاعا عن الإسلام والحرية، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.
14 – التنوير .. رؤية إسلامية، دار الاعتصام، القاهرة، 1417هـ = 1997م.
15 – معركة الحجاب والصراع الحضاري، مركز الإعلام العربي، القاهرة، 1429هـ = 2008م.

16 – العصا الغليظة، كتاب المختار، القاهرة، د. ت.

17 – واسلمي يا مصر، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، طنطا (مصر)، 1414هـ = 1993م.

18 – ثقافة التبعية: المنهج .. الخصائص .. التطبيقات، دار الفضيلة، القاهرة، 1417هـ = 1997م.

19 – انتصار الدم على السيف، مركز الإعلام العربي، القاهرة، 1432هـ = 2011م.

20 – المدافعة والمداولة – قراءة في السنن والتحولات، مكتبة سلمى الثقافية، تطوان (المغرب)، 2012م.

21 – أهل الفن وتجارة الغرائز، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

خامسًا: كتب أدبية ونقدية:

1 – الغروب المستحيل (سيرة كاتب)، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، د. ت.

2 – رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان)، عدد خاص من مجلة الثقافة الأسبوعية، الفاهرة، 1974م.

3 – الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان)، دار الهلال، القاهرة، 1976م.

4 – موسم البحث عن هوية: دراسات في الرواية والقصة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987م.

5 – حوار مع الرواية في مصر وسورية، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 1999م.

6 – الوعي والغيبوبة: دراسات في الرواية المعاصرة، كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، 1427هـ =2007م.

7 - إنسانية الأدب الإسلامي، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار (مصر)، 2008م.

8 - حصيرة الريف الواسعة، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار (مصر)، 2008م.

9 - أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة، وزارة الأواف والشئون الإسلامية، سلسلة روافد، الكويت، 1430هـ = 2009م.

10 - الحكاية كلها معاصرة (دراسات في الرواية)، دار حضر موت، المكلا (اليمن)، 2011م.

11 - الحداثة العربية: المصطلح والمفهوم (طبعة ثانية) دار الاعتصام، القاهرة، 1418هـ = 1998م.

12 - بالاشتراك مع آخرين، نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل، تحرير وإشراف: أسامة الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2012م.

13 - بالاشتراك مع آخرين، أمل دنقل عابرًا للأجيال، تحرير وإشراف: أسامة الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013م.

14 - مطولة علي أحمد باكثير، مطبوعات نادي جازان الأدبي (السعودية)، د. ت.

15 - لويس عوض: الأسطورة والحقيقة، دار الاعتصام، القاهرة، 1414هـ = 1994م.

16 - نحو رواية إسلامية، ملحق المجلة العربية (29)، الرياض، 1420هـ = 1999م.

17 - زمن البراءة: النيل بطعم الجوافة (الجزء الأول من السيرة الذاتية)، الوادي للثقافة والإعلام، القاهرة، 1436 هـ = 2015 م.

18 - زمن الهزيمة: النيل لم يعد يجري (الجزء الثاني من السيرة الذاتية)، الوادي للثقافة والإعلام، القاهرة، 1436 هـ = 2015 م.

سادسًا: إعلام:

1 - الصحافة المهاجرة: رؤية إسلامية، ط2، دار الاعتصام، القاهرة، 1423هـ = 1992م.

سابعًا: كتب للأطفال:

1 - واحد من سبعة، هيئة قصور الثقافة، سلسلة كتاب قطر الندى – العدد 164، القاهرة، د. ت.

ثامنًا: كتب محققة:

1 - فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي، وموقفه إزاء المدنية الغربية، دار الفضيلة، القاهرة، 2010م.

2 - طائفة من المؤلفين، أحسن ما كتبت، دار الفضيلة، القاهرة، 2010م.

3 – المتنبي، عبد الوهاب عزام (تحت الطبع) دار الفضيلة، القاهرة.

4 – تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، أحمد مصطفى المراغي (تحت الطبع)، دار الفضيلة، القاهرة.

تاسعًا: كتب معدة للنشر:

1 - الإبادة والمقاومة: الشعب الفلسطيني لا يموت.

2– خبز السلطة .. خبز الحرية (الحقل الثقافي في مصر المعاصرة).

3 - الحلم والدهشة (قراءة أدبية).

4– اللحم الإسلامي المستباح.

5 - حضرت التبعية .. وغابت الهوية.

6 - صالون الشعر والأدب (أعلام وقضايا).

7 – نداء الفطرة.

8 – ثقافة تزغيط البط!.

9 – محرقة غزة .. الشعب الفلسطيني يقاوم !.

10 – القيم الإسلامية في رسائل النور.

11 – كهنة آمون !.

12 – الصرب في مصر.

13 – الوطن على كتفي !.

14 – القبضة الفولاذية.

15 – على باب الحرية.

❊❊❊

ملحق صور

أمام ضريح محمد الفاتح

أمام جامعة إسطنبول

د.حسين علي محمد ود. صابر عبد الدايم في الرياض

رابطة الأدب الإسلامي في أغادير

في مؤتمر شيتاجونج - بنجلاديش

مع إنعام الحق في بنجلاديش

مع د .حسين سعد العتيبي في الرياض

وزير الثقافة فاروق حسني في مؤتمر أدباء مصر

الدكتور علي عشري بعد مناقشة الماجستير

أمام جامع أبا يزيد

الدكتور نجيب الكيلاني والأديب محمد حسن بريغش

في معبر رفح

مع إسماعيل هنية في المسجد العمري بغزة

الفهرس

الموضوع	الصفحة
1 - أزواج ومحارم !	5
2 - ياسمين وجهيهان	29
3- صحافة واغتيال	54
4 - متاعب ومذابح !	79
5 - مناقشات ومفاجآت	104
6- أحزان وأشواك	128
7 - الحظيرة وأبو حصيرة !	154
8 - رحيل وسفر	178
9 - كتب وترقيات	203
10 - عودة وتكريم	228

الموضوع	الصفحة
11 - وغُلّقت الأبواب	252
12 - خاتمة	277
كتب للمؤلف	285

***